أم الحضارات

ملامح عامة
لأول حضارة صنعها الإنسان

2

مختار السويفى

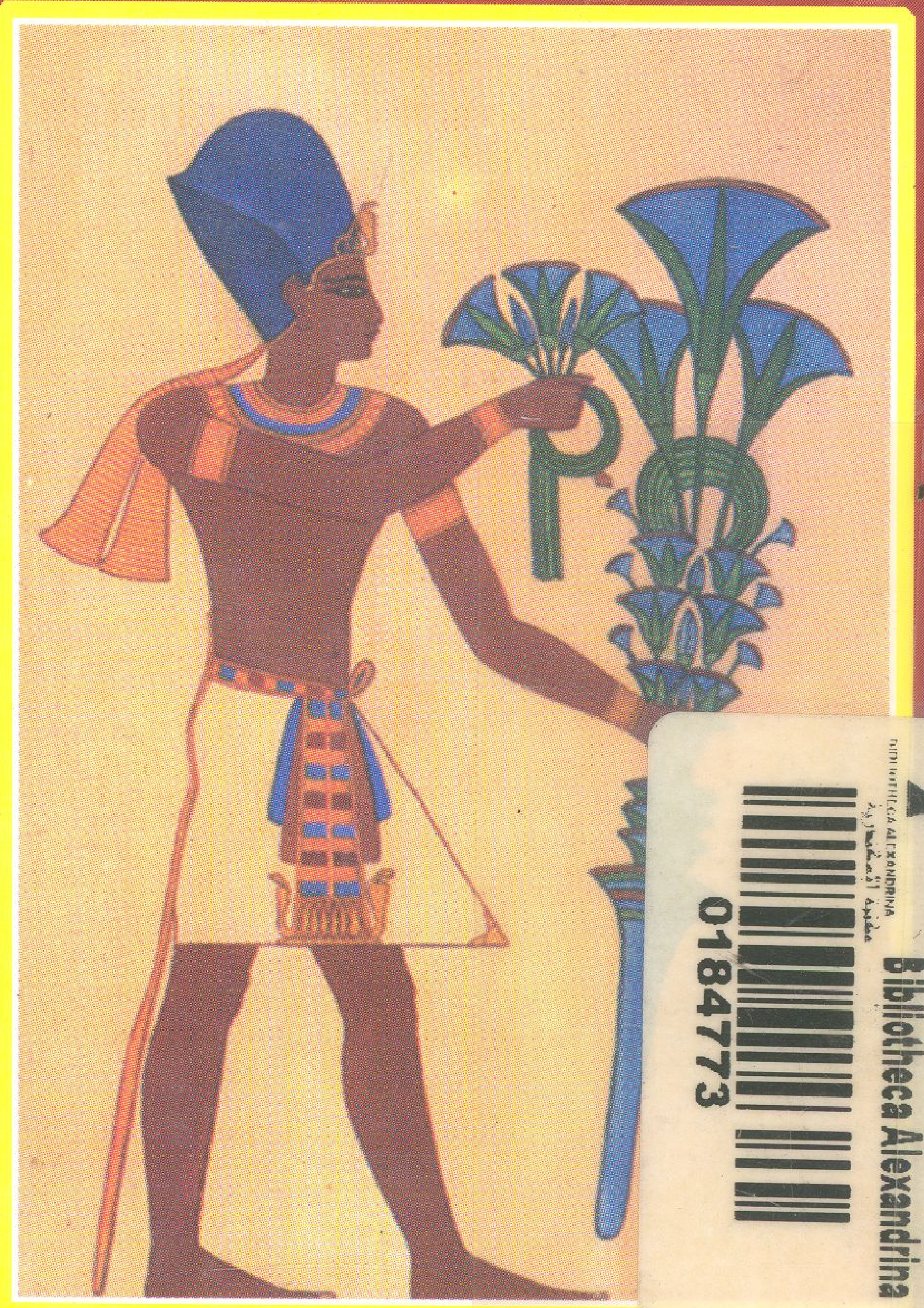

تقديم :
الدكتور زاهى حواس

الدار المصرية اللبنانية

Bibliotheca Alexandrina
0184773

أم الحضارات

ملامح عامة
لأول حضارة صنعها الإنسان

الناشــر : **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ١٥٧٠٧/ ١٩٩٩
الترقيم الدولي : 2 - 570 - 270 - 977
جمع وطبع : **عربية للطباعة والنشر**
العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : رجب ١٤٢٠ هـ ـ أكتوبر ١٩٩٩ م .

مختار السويفى

أم الحضارات

ملامح عامة لأول حضارة صنعها الإنسان

الجزء الثانى

تقديم :
الدكتور زاهى حواس

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

صدق الله العظيم

إهـــــداء ...

إلى حبيبة الروح ...

زهرة الشباب النقية الطاهرة ..

صاحبة البسمة الوضيئة ..

والطباع النبيلة الطيبة ..

ابنتي هالة ..

رحمها الله وأكرم مثواها ..

تقديـــــم

بقلم : أ. د. زاهى حواس

ذلكم كتاب أسعدتنى قراءته ويسعدنى أن أقدم له ، فلقد التقيت بالأستاذ / مختار السويفى عام ١٩٧٨ فى أعقاب عودتى من الولايات المتحدة الأمريكية ، وذلك فى حوار حول مراكب خوفو وما كان لها من وظيفة وهدف ، ولقد رأى فيها الأستاذ مختار السويفى رأى مخالف لما ذهب إليه كمال الملاخ وما آمنت به بأنها مراكب جنزية ترمز لرحلة الميت فى موكب الشمس مع النهار والليل .

على أن ما كان بيننا من اختلاف الرأى لم يحجب عنى ما عُرف به من طيب الشمائل ولين العريكة وكريم الخصال ، وما قلَّ أن نصادف مثيلاً له فى هذه الأيام . ومع ذلك فلقد كنت على يقين قبل التصدى لدراسة الأهرام والتخصص فيها أن مراكب خوفو هذه إنما كانت ذات وظيفة جنزية متبعاً فى ذلك مقالاً نشره أستاذى الدكتور / عبد المنعم أبو بكر ومرممها الحاج / أحمد يوسف غفر الله لهما . وفى ذلك نشب بينى وبين الملاخ جدل عنيف أفضى إلى الخصومة وإن لم تجاوز بضعة أشهر سافرت بعدها إلى جامعة « بنسلفانيا » بالولايات المتحدة الأمريكية حيث توافرت على دراسة الأهرام .

وإذا الاستقصاء يفرض علىّ التعرض لما يجاوز الهرم وما يلحق به من عناصر معمارية بلغ عددها ثلاثة عشر عنصراً معمارياً .

وقد شملت ما كان لخوفو من مراكب خمسة هى أحد عناصر المجموعة الهرمية حيث جعلت اثنتان منها إلى جنوب الهرم على حين احتلت الثلاثة الأخرى مواقعها من الشرق

منه ، حيث قدت فى الصخر أخاديد بطائنها من خشب رقيق بقيت عليها رقائق من ذهب .

كان خوفو فيما خلصت إليه أول من بدّل عقائد الدين ، فجعل من نفسه فى حياته الإله رع ، وكان الميت من أسلافه إنما يمثل حورس فى الأرض ورع فى العالم الآخر . كانت المراكب إذن شمسية يصطنعها من حيث هو رع حيث تنتقل روحه من غرفة الدفن عن طريق الفتحة الجنوبية التى وصفت خطأ بفتحاح التهوية وكان موقعها فيما بين المراكب الشرقية التى كانت لرحلة النهار . والغربية التى أعدت لرحلة الليل حيث تتولى التجديف النجوم ، كما يجعل الإله من المجاديف سلاحاً يقتل بها أرواح الشر فيعبده البشر .

أما المركبان شمالى وجنوبى المعبد العلوى فهما رمزيتان يبحر فيهما الملك بهيئة حورس لتوحيد مصر جنوباً وشمالاً على حين اختصت المركب الخامسة ـ عن بردية أبو صير ـ بعقيدة حاتحور بحكم ما خصصت له المجموعة الهرمية من عبادة ثالوث رع وحورس وحاتحور ، إذ كان رع يعبد فى المعبد العلوى وحورس فى السفلى على حين عبدت حاتحور كما كانت توصف فى عقيدة المصريين بعين رع وزوجة الملك الحى وأم خليفته . وكان الميت فيما رأينا فى غير هذا الموضع يحكم من قصره على مقربة من الهرم ولم تكن منف ـ ميت رهينة الآن ـ سوى قصر لمعبد الإله بتاح . وما كانت « منف » عند المصرى إلا كمية القصور القائمة عند الأهرام فيما بين أبو رواش وميدوم .

ونعود إلى الأستاذ مختار السويفى وما له ، فضلاً على هذا الكتاب ، من مصنفات عديدة تناولت من تاريخ مصر وآثارها ما أعجبنى وأعجب المتخصصين المتعمقين ، فضلاً عن جمهرة القراء المثقفين ، وكذلك أعجبنى بما ترجم عن الإنجليزية بأسلوبه السهل الممتع وما شفعه به من حواش تشرح ما عساه يغمض على القارئين ، وفيها تتجلى مواهبه وثقافته وسعة إطلاعه ، حيث نراه مناضلاً صلباً فى قضايا وطنه وخاصة حيال هذيان الصهيونية الذين ينسبون الأهرام إلى مخلوقات من قارة تسمى « أطلانتس » أو إلى اليهود .

وقد اجتهد واجتهدنا معه فى الرد عليهم ودحض مزاعم مخرجى السنيما ذوى الانتماءات الصهيونية الذين غالوا فى تصوير مظاهر السخرة والإذلال التى مارسها كما زعموا ملوك مصر القديمة فى سبيل تشييد عمائرهم ، وما كشفنا عنه من مقابر الذين عملوا فى بناء الأهرام جنوب شرقى أبو الهول فضلاً عن مواقع ثكناتهم تفصح بأنهم مصريون وأنهم كانوا يتمتعون ـ بفضل ما كشف عن هياكلهم العظيمة ـ بالرعاية الطبية مما قد ينزل بالعمال فى كل عصر ومكان من إصابات العمل وما يعالجون به من جبائر عند الكسر أو البتر الواعى إن لم يكن عن ذلك بد ، وقد امتد العمر بعامل بترت قدمه أربعة عشر عاماً ، كما أجريت عملية التربنة ، برأس عامل عاش بعدها عامين . وكان متوسط القامة شأن أغلب المصريين ما بين ١٧٥ سم ، ١٨٥ سم ، ومتوسط العمر بين الثلاثين والخامسة والثلاثين .

ويذكر لمختار السويفي ويشكر له مسارعته إلى إعداد ندوة فى حزب الوفد شهدها من المهتمين بحضارة مصر وأسهم فيها من نذكر منهم من الدكتور / جاب الله على جاب الله ، والاستاذين جمال بدوى وسعد عبد النور إلى جانب كاتب هذه السطور . كما لا ننكر جهد السيدة / هدى سراج الدين ، وما عملت عليه من إثارة الاهتمام الإعلامى واجتذاب الجماهير .

وها هو مختار السويفى مع إعجابى بمقالاته الأسبوعية فى صحيفة الوفد وعناوينها البراقة وموضوعاتها الوطنية الفياضة يبادرنى بل ويشرفنى بتقديمى الجزء الثانى من كتاب « أم الحضارات » .

وكنت قد صاحبت نسخة من جزئه الأول عند سفرى إلى الواحات البحرية للحفر فى موقع أثرى له منزلته فى تاريخ مصر ، وهناك أتيحت لى متعة قراءته بين أطلال ماضٍ يمتد من الأسرة الفرعونية التاسعة عشرة حتى العصر الإسلامى وإن بلغ الازدهار فى العصر الرومانى . فكنت أنفرد بالكتاب فى خيمة الحفائر فى فترات الراحة وفى هدأة الليل ، ومع إشراقة الصباح ، فكانت متعتى بكل جزء من الكتاب بالغة .

ولئن كنت قد قرأت جل موضوعاته من قبل فى صحيفة الوفد فلقد ازددت متعة

بالصورة التى قرأتها مجتمعة بين دفتى كتاب ، إذ تعرض للمرأة المصرية والطب المصري والجيش فى الدولتين القديمة والوسطى ثم دبجها بنماذج من الأدب المصرى القديم ، فأما دور المرأة فقد تصادف أن أوليته اهتمامى فى كتاب صدر لى بالإنجليزية شرفت بأن أهدته السيدة الفاضلة « سوزان مبارك » إلى رؤساء الوفود فى المؤتمر العالمى الماضى للمرأة والذى عقد فى « بكين » بعد أن كانت قد شرفتنى بالتقديم للكتاب ، وفى كتاب آخر بالعربية سوف يصدر قريباً بعنوان « سيدة العالم القديم » .

ولئن كان الأستاذ مختار السويفى قد تناول المرأة فى أكثر من جانب فلعلى أتحفظ هنا على ما تفتقد الدراسات عن المرأة المصرية القديمة بعامة من توازن ، وذلك لصدور تلك الدراسات عن نصف المجتمع وما عسى أن يتخللها من مفارقات تنحرف عن الواقعية والحكم العادل وتقدير أحاسيس المرأة حق قدرها ، كما لا ينبغى أن يغرب عنا ما آل إلينا من كتابات ونصوص .

ومن ثم فالباحث فى موضوع المرأة محاصر بين ما ورثنا عن الرجال من مصادر وبين ما تناولها من العلماء الأجانب من ترجمات وآراء ورؤى .

ومع ذلك فها هى المرأة المصرية القديمة تبرع فى الكثير ، وإن كنا على غير يقين إن كانت راضية سعيدة وهى تمثل بحجم أصغر إلى جوار الرجل تتطوق ساقه كما لم نعهد امرأة نسب إليها ما نسب إلى حكماء الرجال مثل « بتاح حتب » من قول ونصح ، ولذلك يحتل ما كتب المؤلف عنها منزلة جديرة بالتقدير لما بسط بعين المصرى من دورها الدينى والدنيوى .

ومهما يكن من شىء فقد تبين من الكشوف الحديثة ما كان عليه المجتمع المصرى من تناغم وتآلف ، فلم تكن زوجة الحجار أو زوجة الفنان تقل رقة وجمالاً عن نساء الطبقة العليا ، ومن ثم فلا محل من شكوى بعدئذ من قلة ما نعلم عن الطبقة الدنيا فى ذلك الزمان، ولم يكن ما بدا من صمت المصرية القديمة فيما كتب الأستاذ مختار السويفى دليلاً على خضوعها واستكانتها أو تواضع دورها كما ذهبت عالمة أجنبية فى علم المصريات ، فتوهمت ذلك من المناظر التى تصورها تتطوق ساق زوجها أو أبيها مع

غياب النصوص ، ومن ثم فلا مناص من تصدى المصريين لكتابة تاريخهم فهم أقدر ممن سواهم على فهم المجتمع المصرى والشخصية المصرية .

ومع ذلك فالحق نقول أن ما سجل من حقوق المصرية القديمة عند مقارنته بما يقابلها فى بلاد اليونان والرومان قد كشفت هناك عن وضع متدن للمرأة ومرتبة تقل كثيراً عن مراتب الرجال وإن عرفت تلك المجتمعات التقدم فى شئون أخرى ، وعلى هذا فلقد تمتعت المصرية كما أوضح الصديق مختار السويفى بما يساوى حقوق الرجل إذ ترث الأرض والمنزل مع كفالة حقها فى التصرف فيما تملك وإدارته كما كان حقها مكفولاً فى إقامة الدعوى فى المحاكم وذلك مع ما حفظ من نصوص وعقود ملكية ووصايا لها عند الوفاة .

على أن المرأة لم تكن فى مصر القديمة ملاكاً ، إذ أوضح المؤلف ما تورطت فيه من مؤامرات عرفناها من قرية العمال والفنانين فى دير المدينة عند جبانة البر الغربى من الأقصر وما كانوا يسجلون على الشقف واللخاف من شئون حياتهم اليومية كافة .

ولم يكن شاذاً ولا غريباً فى مجتمع دير المدينة هذا مثول النساء فى قاعات المحاكم إشهاراً لوصية أو طرفاً فى نزاع مدّعيات أو مدّعى عليهن . بل لقد بلغت امرأة فى الدولة القديمة منصب رئيس الأطباء وأخرى منصب الوزارة فى الأسرة السادسة .

وقد تعرض الصديق مختار السويفى لموضوع آخر مهم هو « الجيش فى مصر القديمة» وعندى أن سلطان مصر قد شمل تماماً سوريا وفلسطين منذ الأسرة الأولى ولم يقتصر على صلتها التجارية بهذه البلاد ليس غير . لذا عمد المصرى القديم عن طريق الجيش - ولم يكن يومئذ جيشاً بمفهومنا - إلى السيطرة على تلك الأقاليم . ولعل فى صلاية « نعرمر » ما يوحى بذلك لما بدا فيها من إشارة إلى فلسطين وسوريا ، وذلك فضلاً عن أن « ونى » من الأسرة السادسة سافر على رأس جيش إلى فلسطين لما احتمل من تسلل قوم غرباء إلى تلك البقاع .

وتشهد آثار العين وتدميرها على ذلك فضلاً عن تصوير المصريين فى مقبرتين بسقارة ودشاشة وهم يحاصرون ما يعبر عن دويلات محصنة بأسوار عالية ، لم تعهد يومئذ فى

غير سوريا وفلسطين . ولا شك سوف يمتعنا الأخ مختار السويفى فى الجزء الثالث من «أم الحضارات» عن الجيش فى الدولة الحديثة كما أمتعنا به فى الدولتين القديمة والوسطى، ولقد تفجرت فى نصوص المصريين أثر احتلال الهكسوس روح الحرب والكفاح واشتعال الوطنية وحب التضحية فى سبيل مصر ، وقد دخل الجيش الميدان يملأه روح الكفاح ضد المحتل الأجنبى ، وإذا به فى معاركه ضدهم يتلقى العون من كل مكان من أرض مصر .

وقد كان من المظاهر البارزة فى تلك الحرب ما كان للمرأة من دور خصيب أسهمت به فى التحرير ، وذلك بفضل ما جبلت عليه من شخصية قوية « تتى شيرى » جدة «كاموس» وكذلك « يعح حتب » زوجة « سقنن رع » وأم « كاموس » و « أحمس » ، وقد ورد عنها أنها استعرضت الجنود وقمعت الثورة. ولقد أقبل الشباب يومئذ على الجيش ينخرطون فيه ويندفعون فى معاركه فى حماس شديد، وتمكنت مصر من تكوين إمبراطورية امتدت من أعالى الفرات حتى الشلال الرابع فى الجنوب حيث تدفقت على مصر الجزى وعروض التجارة فنعمت بثراء ورخاء صار مضرب المثل فى أنحاء العالم القديم . وعمد ملوك الدولة الحديثة كلما أصابوا نجاحاً أو أحرزوا نصراً أفاضوا على إلههم « آمون رع » وعلى معبده فى الكرنك القرابين والهبات وأقاموا من المنشآت شكراً له واستزادة منه على ما وفقهم إليه وأيدهم فيه ، فكان أن حظيت بما لم تحظى به من قبل من اتساع العمران وتقدم الفن .

وكذلك بلغ الطب بما له من جذور عميقة فى أرض مصر منزلاً ذاع بين جيرانها من أقاليم آسيا ودولها حتى سعى ملوك الحيثيين إلى تلمس العلاج عند أطباء مصريين .

ثم يختتم الأستاذ السويفى كتابه بلمحات من الأدب المصرى ومنها قصة « الملاح الغريق »وقصة « سنوهى » وما تضمنت من حبه لوطنه مصر رغم ما نعم به فى سوريا من سلطان وثراء فهو يصر على أن يدفن حيث ولد فى مصر وترابها .

وبعــد :

فإن قراءتنا لتاريخ مصر وحضارتها فرض وواجب مقدس علينا ، وكذلك فإن على

العلماء والمتخصصين أن يكتبوه ويمكنوا منه أطفالنا وكل مصرى . ولسوف يعلو بذلك الانتماء لهذا البلاد الأمين ، فنعد جيلاً قوياً مؤمناً يعمل جاهداً فى سبيل بلوغ مصر الحديثة أوج التقدم فى الألف الثالثة بعد الميلاد كما كانت منذ الألف الثالثة قبل الميلاد .

ويقينى أن الأستاذ مختار السويفى من القلة التى تسهم بجد وحب فى سبيل إعلاء تاريخ الأجداد وتقدمه صافياً سائغاً لكل طالب وباحث على أرض مصر وما وراء أرض مصر .

وإنى لأرجو - عزيزى القارىء - أن تتمتع بكل كلمة فى هذا الكتاب لتعرف عبقرية الأجداد وتصفق فى النهاية لما بذله من جهد عظيم ذلك الكاتب الصديق .

والله ولى التوفيق

د . زاهى حواس

الهرم : ٢٠ ابريل ١٩٩٩

أول من اعترفوا بأن للمرأة حقوقًا مقدسة

● كنت قد انتويت أن أقدم مجموعة من الدراسات عن علوم الطب والصيدلة التى مارسها الشعب المصرى فى حضارته القديمة العظيمة ، وهى العلوم التى سبقت بها مصر حضارات العالم القديم كلها . . ولكن استفزتنى الممارسات المتخلفة التى تقوم بها حركة « طالبان » ضد المرأة الأفغانية . . فالبرغم من اننا على أبواب القرن الحادى والعشرين بعد الميلاد ، ظهرت هذه الفئة من المتحكمين التى جعلت كل همها أن تغلق مدارس البنات ، وتلزم النساء بالبقاء بالبيوت ، ومنعهن من ممارسة أى عمل مهما صغر أو كبر ، وذلك استنادًا إلى ادعاء متخلف بأن هذا هو حكم الشريعة الاسلامية على المرأة ، علماً بأن الشريعة التى يتقولون بها أكثر كرمًا فى معاملة المرأة وأوسع أفقًا من تلك الآفاق المتخلفة الضيقة .

● ولذلك فسوف نخصص هذه المجموعة من الدراسات الخفيفة عن أول حضارة إنسانية وضعت المرأة فى موضع التكريم ، واعترفت بحقوقها فى الحياة الكريمة الحرة ، والمساواة مع الرجال مع مراعاة ما تفرضه الفروق والطبيعة الجنسية من حقوق وواجبات .

● من المعروف أن تاريخ مصر المكتوب بدأ ببداية عصر الأسرات حوالى عام ٣٢٠٠ ق م ، حين قام الملك مينا بتوحيد الوجهين البحرى والقبلى فى دولة واحدة .

● ولكن ليس معنى ذلك أن المصريين لم يكن لهم وجود ولا حضارة قبل هذا

التاريخ ، فهناك مئات وآلاف من الشواهد الأثرية التى تؤكد لنا كيفية الحياة التى عاشها المصريون الأوائل الذين استوطنوا وادى النيل قبل عدة آلاف من السنين سابقة على بداية عصر الأسرات . وهى الفترة الطويلة التى أطلق عليها المؤرخون وعلماء الآثار مصطلح « عصور ما قبل التاريخ » .

● وفى تلك العصور السحيقة الغارقة فى القدم ، بدأت الإرهاصات الأولى التى انتهجها هؤلاء الأقدمون فى بناء حياة مستقرة على ضفاف النيل ، فتعلموا الزراعة [ويقول بعض المؤرخين أن الزراعة بدأت فى مصر منذ عشرين ألف سنة قبل الميلاد] . . كما تعلموا استئناس الحيوانات وتدجين وتربية الطيور . وأدت هذه الحياة المستقرة إلى نوع من التضافر الجماعى لمواجهة الأخطار الطبيعية التى كانت تهدد الجماعات البشرية التى تعيش على ضفاف النيل ، حيث كان الجميع يهبون فى كل موسم من مواسم الفيضان لبناء الجسور التى تؤمنهم من أخطار النهر حين يفيض . كما تضافروا أيضًا لبناء مساكنهم وقراهم فوق الروابى المرتفعة حسب طبيعة الأرض على الضفتين .

● هذه الحياة الجماعية التى كانت تستلزم التضافر الجماعى كانت بطبيعة الحال سبباً مباشرًا لظهور أفراد على قدر مناسب من التمييز يجعلهم قادرين على قيادة وتوجيه هذا العمل الجماعى لتحقيق النتيجة المرجوة لصالح الجميع . وهكذا بدأت فكرة النظام والتنظيم .

● وكانت هذه الحياة المستقرة أيضا من الأسباب التى أدت إلى الحاجة إلى الاستقرار النفسى والاجتماعى ، والتحول من الحياة البدائية إلى حياة اجتماعية منظمة تحكمها قواعد وتقاليد ملزمة ولا يمكن الخروج عليها ، ومن هذه القواعد الاجتماعية ظهرت فكرة تكوين الأسرة بما تتطلبه من قواعد وأحكام لتنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة .

● وكان المصريون القدماء أول شعب فى تاريخ الحضارة الانسانية يضع لنفسه مجموعة من القواعد المقدسة لتكوين الأسرة ، تقوم على أساس « الزواج » بما ينتج عنه من حقوق وواجبات متبادلة بين الرجل والمرأة ، وبمعنى آخر كانوا أول من جعل للمرأة حقوقًا لا تخلو من الإلزام والتقديس ، ومكانة اجتماعية محاطة بكل تقدير وكل احترام .

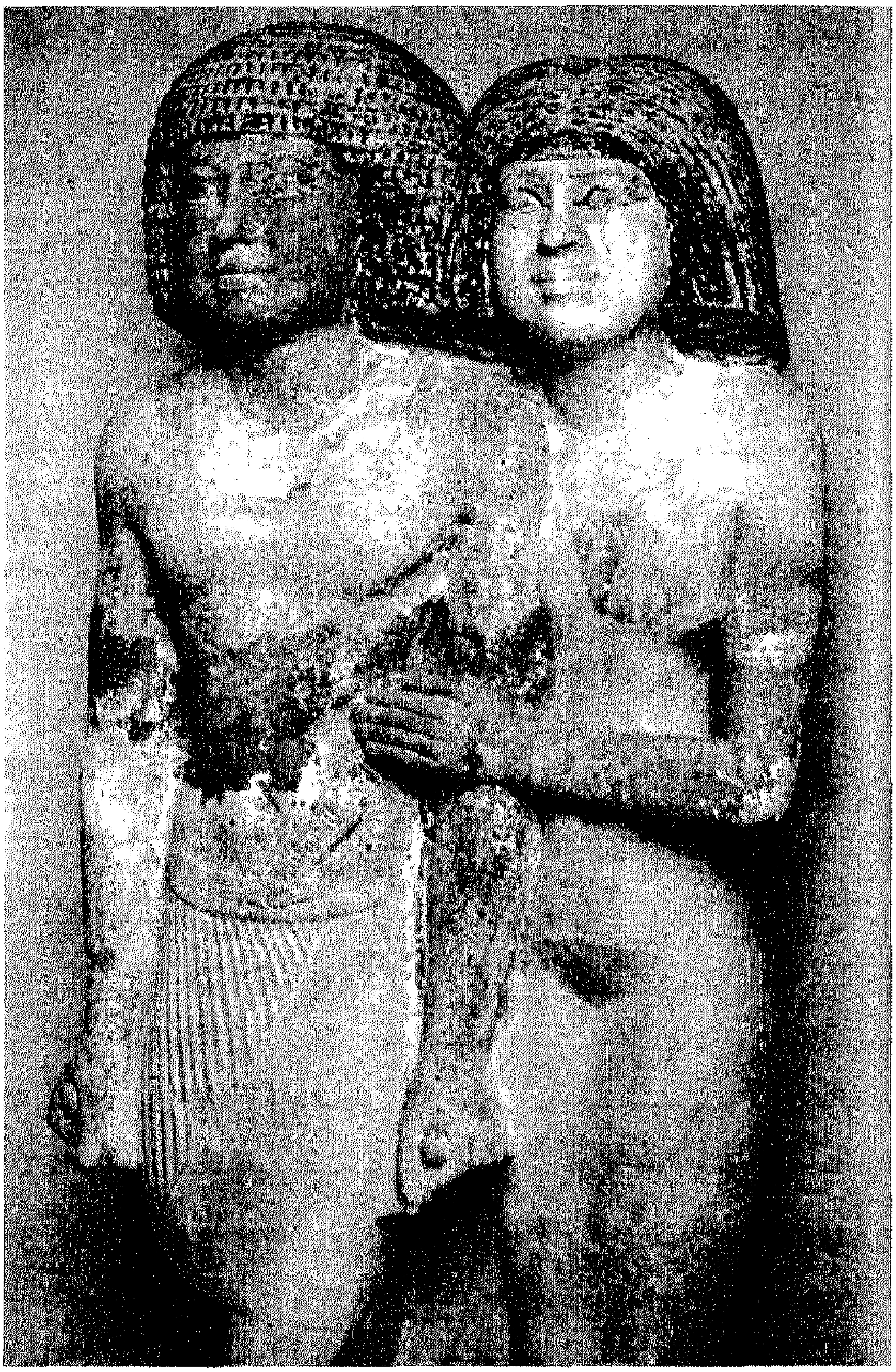

منذ أقدم العصور كانت فكرة الزواج وتكوين الأسرة رمزاً للمحبة والوفاء
والاستقرار العائلي والاجتماعي في مصر .

تقديس الأنوثة .. فى عصور ما قبل التاريخ

هؤلاء المصريون الأوائل الذين عاشوا على ضفاف النيل فى عصور ما قبل التاريخ ، أدركوا منذ البداية أن الحياة الاجتماعية لا يمكن أن تستقر إلا بتكوين «الأسرة» التى تتكون من رجل وامرأة يعيشان حياة متكاملة لتعمير الكون . ولم يكن هذا الهدف النبيل ليتحقق إلا باضفاء شرعية مقدسة على هذه العلاقة الخالدة البناءة المثمرة بين الرجل والمرأة .

● وأدرك هؤلاء المصريون الأوائل أيضا أن وظيفة المرأة فى تعمير الكون وظيفة مقدسة، فلولاها ما ولد مولود ذكر ولا أنثى ، ولا استمرت الحياة فى التجدد والازدهار إلى أبد الآبدين ، ولا شعر الرجل بهذا الفيض النورانى الذى يعمر قلبه بالحب ، وهو أسمى علاقة بين البشر . وعلى هذا الأساس أحاطوا رمز المرأة بهالات مقدسة ورفعوا هذا الرمز إلى مراتب الآلهة .

● وقبل تنزيل الرسالات السماوية إلى الأرض بآلاف السنين ، أدرك هؤلاء القوم أن الكون عامر بآلهة متعددين يفرضون القدسية والتقديس على مناحى الحياة وظواهرها وخباياها ، وابتدعوا لوصف هؤلاء الآلهة ووظائفهم قصصاً وأساطير شتى ، توارثتها الأجيال جيلاً بعد جيل ، وتوجوا هذه الأساطير التى أصبحت دينًا وعقيدة بفكرة «التثليث» . . فجعلوا لكل إله زوجة إلهية وابناً إلهياً . وذلك تأكيداً لإيمانهم بأن الاستمرار والخلود يتطلب أسرة من ذكر وأنثى ، هما البذرة والتربة الخصبة ، ومنبت

الثمار والعمار . ومن هذا التصور الدينى البدائى للأسرة الإلهية ، استمد المجتمع المصرى فى عصور ما قبل التاريخ تقاليده ومعتقداته وأحكامه التى يجب أن تحكم الأسرة الانسانية .

● ولم تكن زوجات الآلهة مجرد وسائل للنسل والانجاب ، بل رفعتهن الأساطير إلى مرتبة الآلهة أنفسهم ، وجعلتهن إلهات ترمز كل واحدة منهن إلى شأن من شئون الحياة الدنيا أو الحياة بعد الموت .

● وتعطينا الأساطير الدينية المصرية القديمة صوراً شتى للوظائف التى تخصصت فيها الإلهات . . وعلى سبيل المثال نجد الإلهة « تاورت » ومعناها « العظيمة» تخصصت فى حماية الحبالى من نساء البشر ورعايتهن حتى مرحلة الولادة . . وتخصصت « حتحور» فى الرمز إلى الحب والجمال والموسيقى . . وتخصصت « سيشات » فى الرمز إلى الكتابة والتدوين وصوروها فى شكل امرأة جميلة ترتدى ثوباً من جلد النمر وتحمل فى يديها قلماً ومحبرة ولوحاً . . وجعلوا « ماعت » رمزاً للتوازن الكونى المتمثل فى العدل والصواب والصدق والحق والطهارة والنقاء . . أما « سخمت » ومعناها «القوية» فجعلوها رمزاً للحرب وحماية الصحارى وتصوروا فيها القوة القادرة على شفاء الأمراض ومهاجمة الأرواح الشريرة .

● أما كبرى الإلهات المصريات القديمات فهى الإلهة « إيزيس» زوجة أوزيريس وأم حورس ، فقد ذاعت شهرتها فى العالم القديم كله ، بل وامتدت شهرتها حتى عبدت وبنيت لها المعابد فى أنحاء الامبراطورية الرومانية القديمة ، وظلت عبادتها قائمة فى أصقاع شمال أوربا حتى العصور الوسطى . بل ومازالت بعض الجماعات فى أوربا وأمريكا تؤمن بها وتمارس عبادتها حتى الآن .

● وتعتبر أسطورة إيزيس مثلا أعلى للحياة الزوجية القائمة على الاخلاص والحب والوفاء والأمومة الحانية والحرص على تربية الوليد وتعليمه مبادىء التمسك بالحق والكفاح ضد الظلم والتغلب على قوى الشر لكى تستقيم الحياة .

● ومن الطريف أن الاسطورة تصور لنا هذه الإلهة مثل « ربة البيت » المسئولة عن

طحن الحبوب وعجن الدقيق وصنع الخبز ، لتكون مثلاً أعلى لربات البيوت من البشر. كما تحكى الاسطورة أيضا أن أوزيريس حين كان يحكم مصر كان يوكل إيزيس فى مسئولية ادارة شئون البلاد أثناء غيابه ، فكانت تسوس الأمور وتقيم العدل وتعطى الحقوق لأصحابها . ومن هنا وتطبيقا لهذه اللمحة الاسطورية ، تبوأت عرش مصر ملكات شديدات البأس ، حكمن البلاد مثل الملوك الرجال سواء بسواء .

أسطورة إيزيس وأوزيريس كانت مثلا أعلى للحياة الزوجية

فى مصر القديمة فى كل عصورها التاريخية

ورفعوهن إلى مراتب الملكات

كل العلماء الذين درسوا تاريخ الأمم القديمة ، يعترفون بالمكانة العالية التى وصلت إليها المرأة المصرية القديمة ، وهى مكانة رفيعة لم تصل إليها أية امرأة فى جميع المجتمعات الانسانية التى كانت تعاصر الحضارة المصرية منذ عصور ما قبل التاريخ وخلال عصر الأسرات بأكمله ، وهو عصر بدأ عام ٣٢٠٠ ق م واستمر نحو ثلاثين قرنا .

● وكما رفعت الأساطير المصرية معنوية المرأة إلى مصاف الآلهة ، وجعلت من بعضهن إلهات معبودات ، فقد سجل التاريخ المصرى كيف ارتفعت المرأة المصرية القديمة ـ على أرض الواقع ـ إلى مصاف الملوك والملكات ، بل وتدل جميع الشواهد التاريخية على أن وراثة عرش مصر وانتقال الملكية من ملك مات إلى ملك جديد ، كانت المرأة تلعب فيه دورا أساسياً حاسماً يقوم على ثبوت الحق الشرعى فى وراثة العرش. ولذلك فقد كانت المرأة « الملكة » هى التى تثبت هذا الحق الشرعى طبقا للدستور الذى اتبعه نظام الحكم الملكى فى كل حقبات التاريخ المصرى القديم ، باعتبارها الأم التى تنقل الجوهر المقدس إلى ابن الملك الذى سيرث العرش بعد وفاة أبيه .

● ويقول « مانيتون » المؤرخ المصرى القديم الذى ولد بقرية « سمنود » بالدلتا وعاش فى القرن الرابع قبل الميلاد معاصراً لبطلميوس الأول وبطلميوس الثانى : « إن ملوك مصر منذ عصر الأسرة الثانية أقروا الشرعية المطلقة لحق اعتلاء المرأة عرش البلاد

وحق قيادتها لنظام الحكم » . ومن المعروف أن هذا المؤرخ كتب تاريخ مصر القديم باللغة اليونانية ، وهو الذى قسم الأسرات الملكية التى حكمت مصر إلى ٣١ أسرة ، كما قسم حقب التاريخ المصرى القديم إلى ثلاث حقبات أو عصور رئيسية هى : عصر الدولة القديمة ، والدولة الوسطى ، والدولة الحديثة .

● كذلك يقول بعض المؤرخين القدماء الأجانب إن مصر القديمة كانت تطبق قانونا دستوريا ذا طابع سياسى يبيح للملكات حق الجلوس على عرش البلاد وممارسة شئون الحكم . ويعنى هذا القانون ببساطة أن المرأة « الملكة » باعتبارها الطريق الوحيد المؤكد لانتقال خط العرش واستمراره ، يجوز لها أن تجلس على العرش وتحكم البلاد كالملوك الرجال . وذلك بالرغم من أن هناك كثيرًا من الدلائل التاريخية تشير إلى أن حكم الملكات لم يكن له قبول حسن فى طبيعة نظام الحكم فى مصر القديمة .

● وتدل الشواهد الأثرية على أن المرأة الملكة بلغت هذه المكانة الرفيعة منذ عصر الأسرة الأولى . وتظهر هذه المكانة واضحة جلية فى مقبرة الملكة « نيت حتب » [ومعنى اسمها « نيت راضية » و « نيت » هى إحدى إلهات الدلتا فى عصر ما قبل توحيد الوجهين البحرى والقبلى] . . وهى مقبرة ضخمة فخمة تقع فى منطقة « نقادة » بالصعيد ، وذات طراز معمارى يدل على مدى أهمية هذه الملكة ومركزها ومكانتها فى نظام الحكم بحيث استحقت أن تبنى لها مثل هذه المقبرة .

● وفى التاريخ المصرى القديم شواهد عديدة تدل على ممارسة المرأة الملكة حق الوصاية على العرش ، وذلك حين يموت الملك ويكون ابنه صاحب الحق الشرعى للخلافة على العرش مازال طفلا . . ففى هذه الحالة تتولى أمه الملكة أرملة الملك المتوفى شرعية الوصاية القانونية والدستورية على الملك الصغير حتى يبلغ الرشد وينفرد وحده بحكم البلاد . وفى أثناء تلك الوصاية ـ التى تكررت كثيرًا فى تاريخ مصر ـ ظهرت قدرات الملكات الأرامل فى السيطرة التامة على شئون البلاد وتسيير أمور الدولة من دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية .

● وتدل الشواهد الأثرية من نقوش جدارية وتماثيل منحوتة من مختلف أنواع الأحجار على أن النساء كن يصورن فى صحبة أزواجهن من الملوك ـ أو من أبناء الشعب ـ وقد أحاطت بهن أسمى آيات التبجيل والاحترام .

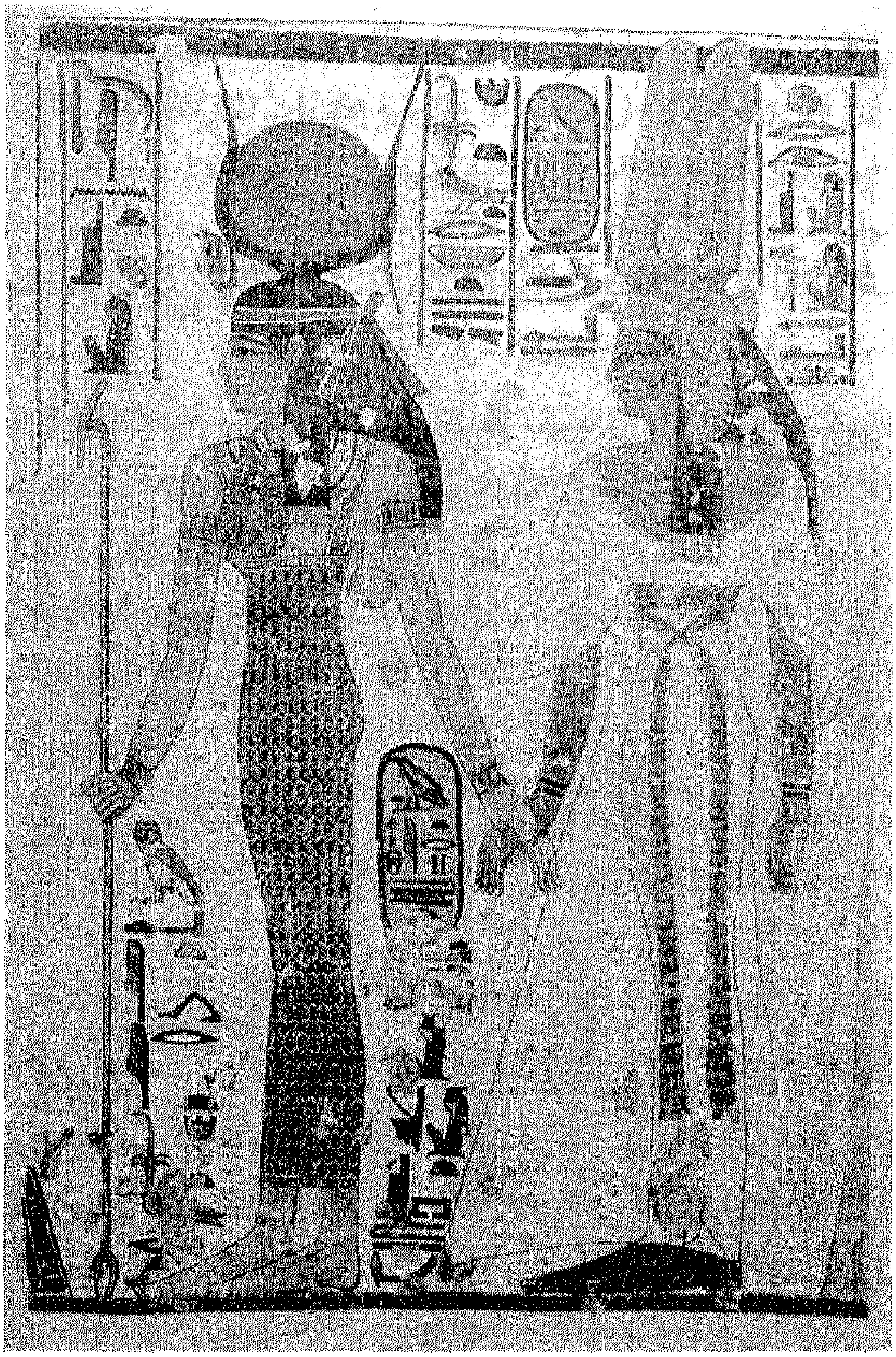

الملكة « نفرتارى » تتلقى بركات إيزيس

[نقش ملون من مقبرة نفرتارى بغرب الأقصر]

ملكات شهيرات : « حتب حرس » أم الملك خوفو

فى الدور العلوى بالمتحف المصرى بالقاهرة ، وبالقرب من القاعات التى تشغلها آثار توت عنخ آمون ، يفغر الزوار أفواههم دهشة وإعجابًا بتلك التحف الأثرية ذات الكمال الفنى والذوق الرفيع التى عثر عليها بمقبرة الملكة « حتب حرس » التى اكتشفتها بعثة جامعة هارفارد برئاسة عالم الآثار « ريزنر » عام ١٩٢٥م بجوار الواجهة الشرقية للهرم الأكبر بالجيزة .

● والملكة « حتب حرس » هى ابنة الملك « حونى » آخر ملوك الأسرة الثالثة وصاحب هرم « ميدوم » . . وزوجة الملك « سنفرو » مؤسس الأسرة الرابعة وصاحب هرمى دهشور . . وأم الملك « خوفو » صاحب الهرم الأكبر أحد عجائب الدنيا السبع . . أى أنها عاشت فى القرن السابع والعشرين قبل الميلاد .

● وقبل أن نستعرض مفردات الكنز الأثرى العظيم الذى عثر عليه بمقبرة هذه الملكة والذى يدل على المكانة الرفيعة التى كانت تشغلها ، لا بأس أن نشير إلى أن هذه المقبرة تمثل لغزاً غامضاً فى علم الآثار المصرية ، فقد تم العثور على محتويات المقبرة كاملة ، كما عثر على الأوانى « الكانوبية » التى تحتوى على أحشاء المومياء بعد تحنيطها ، ولكن المومياء نفسها لم تكن موجودة بالمقبرة ولا يعرف أحد ماذا كان مصيرها .

● ويفسر عالم الآثار « ريزنر » هذا اللغز بأن من المحتمل أن تكون الملكة « حتب حرس » قد دفنت أولاً فى مقبرة خاصة بجوار هرمى زوجها الملك « سنفرو » بدهشور ،

وربما تكون هذه المقبرة قد اقتحمت وتعرضت للسرقة بعد عملية الدفن بقليل ، وأن اللصوص القدامى قد فتحوا التابوت وأخرجوا مومياء الملكة للاستيلاء على ما كانت تتحلى به من حلى ومجوهرات على أن يستولوا على بقية محتويات المقبرة فيها بعد . . ولكن تم اكتشاف عملية الاقتحام والسرقة فى عهد ابنها الملك « خوفو » . ومن المحتمل أن رجال الدولة المختصين قد أبلغوه بعملية الاقتحام ولكنهم أخفوا عنه عملية الاستيلاء على المومياء إشفاقا عليه واتقاء لغضبه . لذلك فقد أصدر « خوفو » أوامره بإعادة دفن أمه فى المقبرة السرية التى تم العثور عليها بشرق هرمه .

● وهذه المقبرة عبارة عن بئر عميقة يبلغ عمقها ٩٩ قدمًا [١٧و٣٠ مترا] وتنتهى بغرفة دفن كانت مكدسة بالأثاث الجنائزى الذى يتكون من تحف أثرية عالية المستوى رفيعة الذوق . وكانت البئر مردومة عن آخرها بالأحجار والركام ومغطاة تماماً بالرمال لزيادة التمويه ، ولم يكن هناك أى بناء سطحى فوقها يشير إلى وجود المقبرة . ولعل هذا التمويه كان السبب فى بقاء المقبرة سليمة منذ عهد خوفو حتى لحظة اكتشافها . ومعنى هذا أن الملك خوفو بكل ما كان يتمتع به من مكانة وسطوة إلا انه عاش مخدوعاً دون أن يدرى أن مومياء أمه لم تكن مدفونة فى تلك المقبرة السرية التى جهزها لها .

● والذى يلفت النظر ويثير دهشة المشاهد لآثار الملكة « حتب حرس » هو دقة الصناعة وفخامة الذوق فى تصميم مجموعة الأثاث الجنائزى وملحقاته ، بحيث يشعر المشاهد لأول وهلة بمدى الثراء والمستوى الرفيع للحياة التى عاشتها تلك الملكة . كما تعطينا هذه الكنوز مؤشراً لنتخيل ما كانت عليه الكنوز الثمينة التى دفنت فى مقابر وأهرام ملوك الدولة القديمة وعلى الأخص ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة .

● ومن أجمل القطع الأثرية التى عثر عليها كرسى المحفة الخاص بتلك الملكة وهو مصنوع من خشب الأبنوس الثمين ومزخرف بكتابات هيروجليفية مطعمة بالذهب والعاج . . وتدل هذه الكتابات المنقوشة على الجوانب الأربعة على اسم الملكة وألقابها . ومن ضمن هذه الألقاب لقب « مرشدة الحاكم » . ويفسر بعض المؤرخين وعلماء الآثار المصرية هذا اللقب ـ ومنهم العالمة الفرنسية « كريستيان نوبلكور » ـ بأن الملكة

«حتب حرس » كانت وصية على العرش الذى يجلس عليه ابنها « خوفو » الذى يحتمل انه ورث العرش قبل أن يبلغ الرشد .

● أما بقية الآثار المبهرة الأخرى فتتكون من السرير الذى كانت تنام عليه الملكة أثناء حياتها ، وهو مصنوع أيضا من خشب الأبنوس . . ومقاعد فخمة مطعمة بالذهب . . وأعمدة المظلة التى كانت تعلق عليها ستائر الناموسية . . وصندوق كبير دقيق الصنع كان يشتمل على بعض متعلقات الملكة وبعض الأدوات الخاصة بها ومنها قلادة صدرية من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة وأساور مزينة بزخارف على شكل أجنحة الفراش ومرصعة أيضا بالأحجار الكريمة . . ومجموعة من أدوات الزينة والتجميل كان من ضمنها شفرات أمواس مصنوعة من الذهب .

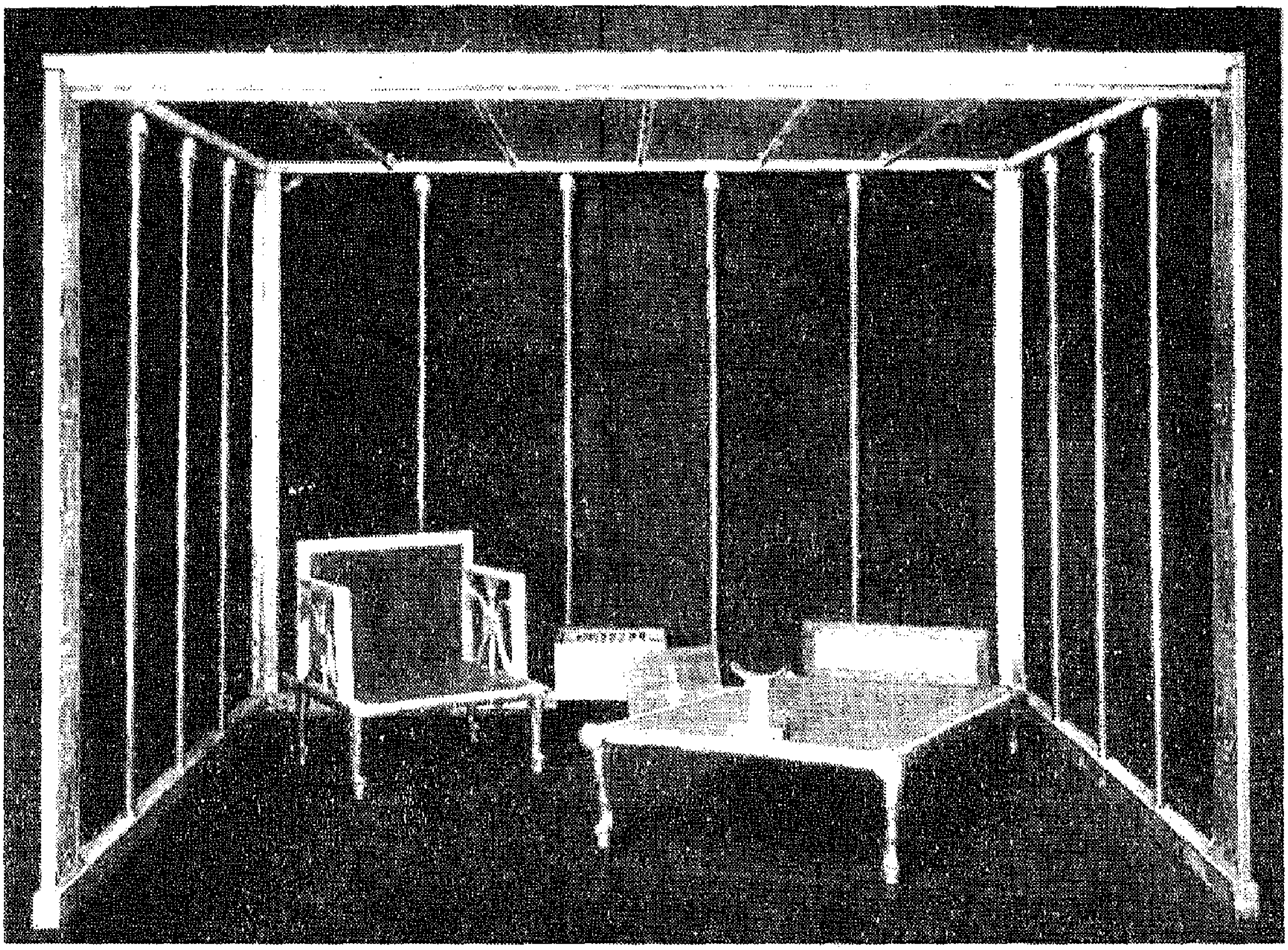

دقة الصناعة وفخامة الذوق الرفيع فى مجموعة الأثاث الجنائزى للملكة « حتب حرس »
[من معروضات المتحف المصرى بالقاهرة]

ملكات شهيرات : « إياح حتب » .. أم الملك أحمس

لم يسجل تاريخ العالم القديم كله دوراً لامرأة تميزت بالشجاعة الفائقة والحس الوطنى الصادق العظيم مثل الدور الرائع الذى قامت به هذه المرأة الملكة المصرية العظيمة « إياح حتب » . . زوجة الملك الشهيد « سقنن رع » . . وأم الملك « أحمس » أول أبطال التحرير فى تاريخ العالم .

● فى أواخر عصر الأسرة السابعة عشرة [حوالى عام ١٥٦٠ ق م] كانت مصر تعانى احتلالاً بغيضا من جانب قوم من الرعاة الأجلاف اسمهم الهكسوس . . كانوا يسيطرون على معظم مناطق الدلتا ومصر الوسطى . . وقد عاثوا فسادًا فى الأرض ، واستعبدوا المصريين ، واستوظفوا بعض الخونة كحكام على بعض أقاليم الصعيد ، يدينون لهم بالطاعة والولاء بالإضافة إلى دفع الجزية .

● فى هذه الظروف الوطنية القاسية ظهرت تلك المرأة المصرية العظيمة « إياح حتب » بجانب زوجها العظيم الملك « سقنن رع » . . وقد ورثت عن أمها الملكة « تيتى شرى » روح الدعوة إلى ضرورة النضال ضد المحتلين المسيطرين على مقدرات البلاد . . فقامت « إياح حتب » منذ البداية بدور سياسى بارع فى الدعوة إلى كراهية الهكسوس كراهية التحريم ، والمناداة رسمياً بإحياء وإذكاء المشاعر الوطنية فى نفوس أهل طيبة [موطن الأسرة السابعة عشرة آنذاك] وبث هذه المشاعر النبيلة فى نفوس شعب مصر فى الصعيد والوجه البحرى ، والعمل الواجب على كل مصرى بضرورة قيام حرب التحرير المقدسة ضد هؤلاء الهكسوس البغاة .

● وخرج زوجها الملك الشجاع « سقنن رع » على رأس الجيش الذى تم تكوينه وتجهيزه للحرب ، رافعاً راية الجهاد والنضال ضد المستعمرين ، بعد أن ترك لها مسئوليات الحكم أثناء غيابه لقيادة المعركة التى شنها ضد الهكسوس فى شرق الدلتا . ولكن المعركة لم تحقق النتيجة المرجوة ، وسقط الشجاع سقنن رع شهيداً على أرض المعركة فداء لمصر .

● وتلقت المرأة العظيمة هذه المصيبة بصبر جميل ، ولم تستسلم للشعور بالهزيمة والاحباط ، بل تأججت شخصيتها القوية بروح النضال الوطنى ، وواصلت سيطرتها باعتبارها وصية على العرش الذى ورثه ابنها الملك « كامس » ودفعته وهو لم يتجاوز سن الفتوة والشباب إلى مواصلة الحرب المقدسة ضد الغزاة حتى تتطهر أرض مصر كلها من دنس احتلال الغرباء . وقام « كامس » بعدة هجمات على الأقاليم التى يسيطر عليها الهكسوس وحاصر عاصمتهم ،ولكنه مات فى شبابه قبل أن تتحقق أمنية أمه الأرملة التى أصبحت ثكلى بموت ابنها فى عز الشباب .

● وورث العرش ابنها الثانى الملك « أحمس » وكان فتى يافعاً لم يصل إلى سن الرشد، فواصلت مهمتها السياسية والوطنية باعتبارها وصية على العرش ، وأخذت تغذى ابنها بكراهية المستعمرين ، وأوصته بضرورة القضاء على الخونة من حكام الأقاليم وأمراء الاقطاع المصريين الذين يمالئون الهكسوس ويرتضون الخضوع لتحكم الأجانب ، وشجعته على إعادة بناء وتجهيز الجيش المصرى على أساس استراتيجى بجعله جيشاً وطنياً يشترك فيه كل القادرين على الحرب من أبناء الشعب المصرى .

● وهكذا خرج أحمس على رأس جيش عظيم انضمت إليه جيوش الأقاليم المصرية بجنوب الصعيد ومصر الوسطى وجنوب الدلتا ، حتى بلغ تعداد هذا الجيش حين وصل إلى « أواريس » عاصمة الهكسوس بشرق الدلتا نحو ٤٨٠ ألف محارب من الضباط والجنود الفرسان والمشاة . وكان هذا الجيش الكبير يشع حماساً ووطنية ويحارب بروح عسكرية عالية وتسيطر عليه فكرة تحقيق الهدف المقدس بالقضاء نهائياً على سيطرة الهكسوس وطرد فلولهم إلى خارج حدود البلاد .

● وتمكن جيش التحرير المصرى بقيادة أحمس من تحقيق الهدف الذى كانت تسعى إليه أمه العظيمة بتطهير أرض مصر كلها من دنس المستعمرين . بل وظل يطارد الأعداء الذين كانوا يفرون أمامه فى هلع حتى شمال سوريا .

● وبهذا النصر المؤزر العظيم أعيد توحيد جميع الأقاليم المصرية تحت حكم مركزى عاصمته « طيبة » . . كما وسع أحمس الحدود المصرية جنوباً وشمالاً ، واستحق بذلك أن يصبح مؤسساً لأسرة ملكية إمبراطورية جديدة ، هى الأسرة الثامنة عشرة ، كما استطاع أن يكون على رأس فترة تاريخية جديدة أصبحت معروفة فى التاريخ المصرى القديم باسم « الدولة الحديثة » .

● وتتويجا لهذا النصر منح أحمس أمه الملكة « اياح حتب » وسام الذبابة الذهبية ، وهو أعلى وسام عسكرى فى الدولة المصرية . وبذلك أصبحت المرأة الوحيدة فى تاريخ العالم القديم كله التى تحمل هذا الوسام العسكرى الذى كان هو وأمثاله من الأوسمة العسكرية العليا لا يمنح إلا لأعظم قادة الجيوش الحربية . وذلك اعترافاً بكفاح هذه المرأة المصرية العظيمة وقدرتها على إدارة شئون الدولة وفضلها فى بث روح الوطنية المصرية فى طول البلاد وعرضها .

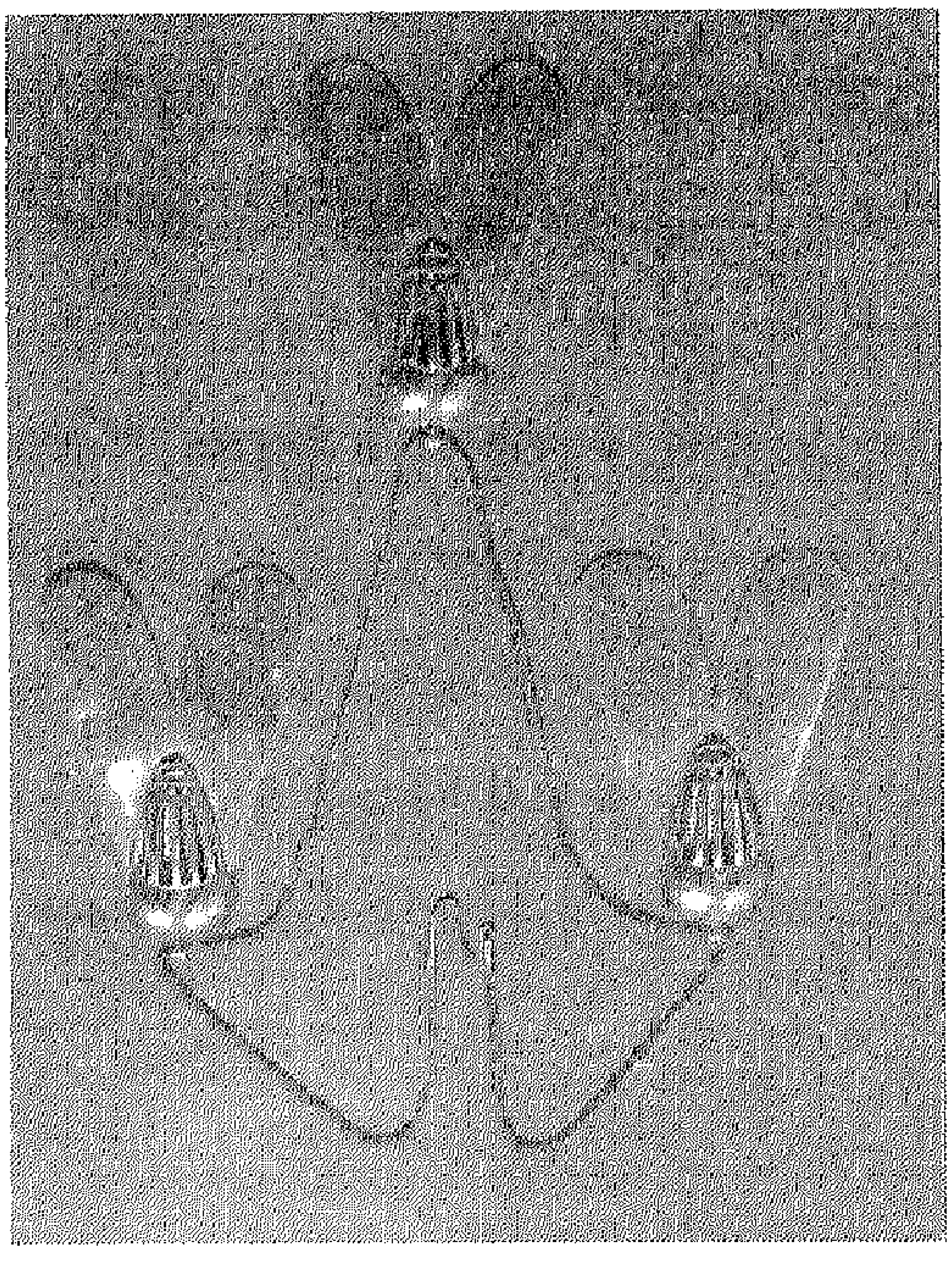

وسام الذبابة الذهبية

ملكات شهيرات : الملكة « تى » .. أم أخناتون

لست أقصد بهذه الدراسات سرد تاريخ الملكات الشهيرات فى مصر القديمة ، وإنما أرمى إلى إبراز واستظهار الأدوار الحضارية العظيمة التى قامت بها المرأة المصرية منذ أقدم العصور ، تاركا للقارىء الكريم حق المقارنة بين تلك المكانة الرفيعة الرائعة التى ارتقت إليها المرأة المصرية منذ آلاف السنين ، وبين تلك الدعوة المتخلفة التى ينادى بها البعض - خارج مصر والحمد لله - ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين باغلاق مدارس البنات ومنع النساء من الخروج من البيوت واستبعاد المرأة عن ممارسة أى عمل من الأعمال العامة .

● ومن المعروف أن الملكة « تى » من بنات الشعب المصرى ، ولم تكن سليلة ملوك أو حتى منتمية إلى أسرة ملكية . . كان أبواها يعيشان فى مدينة « إخميم » [بمحافظة سوهاج حاليا] . . وأبوها ضابط بالجيش المصرى حصل على رتبة « قائد العجلات الحربية » - أى قائد سلاح الفرسان - وكانت أمها كاهنة فى معبد الإله « مين » . ومعنى هذا انها نشأت فى أسرة على قدر من العلم والثقافة والمستوى الاجتماعى .

● كانت « تى » على قدر كبير جدا من الجمال الساحر الوقور ، فاختارها الملك «امنحوتب الثالث » [من ملوك الأسرة الثامنة عشرة] زوجة له ، معارضا بذلك التقاليد الملكية المتبعة والتى تقضى بضرورة زواج الملوك من سليلات الملوك . . وكانت مصر فى عهده إمبراطورية واسعة الأرجاء تمتد شمالاً من بلاد النهرين (العراق) وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين واسرائيل ، وتمتد غرباً إلى داخل الحدود الليبية ، وتمتد جنوباً إلى

شمال السودان . . وبلغت مصر فى ذلك العهد مبلغاً لم تشهده أى دولة من دول العالم القديم كله من ناحية الثراء والغنى والنفوذ السياسى والثقافى . ويقول بعض المؤرخين وعلماء الحضارة إن الإمبراطورية المصرية كانت فى حقيقة الأمر وحدة أفريقية آسيوية بزعامة مصر .

● وبالرغم من أن زوجها ـ كما هو معروف فى التاريخ ـ كان مولعاً بحب التمتع بمناعم الحياة ولذائذها ، بل لقد بلغ عدد السرارى والجوارى والمحظيات فى حريمه الملكى عدة مئات كان يجلبهن « بالجملة » من مختلف المناطق الآسيوية والأفريقية التابعة للسيادة المصرية ، ومع ذلك فقد كان « امنحوتب الثالث » يقدر ما كانت تتمتع به الملكة « تى » من ذكاء وفطنة ورجاحة عقل وقوة شخصية . ولذلك فقد حرص على أن يشركها معه فى الحكم وممارسة كل أعماله الرسمية المتعلقة بالسياستين الداخلية والخارجية .

● ويتصدر قاعة العرض الرئيسية بالمتحف المصرى بالقاهرة تمثالان ضخمان للملك امنحوتب الثالث والملكة تى بحجمين متماثلين ، وهو وضع لم تصل إليه قبلها أية ملكة من ملكات مصر الأخريات ممن نحتت لهن تماثيل أو صورن فى النقوش الجدارية بجوار أزواجهن الملوك الذين حكموا مصر قبل عصر الأسرة الثامنة عشرة .

● وتدل الشواهد الأثرية من رسائل رسمية حررت بداخل مصر أو وردت إليها من البلاد الأجنبية على المكانة السياسية الرفيعة التى كانت تشغلها الملكة « تى » سواء فى عهد زوجها أو فى عهد ابنها أخناتون الذى تولى الحكم بعد وفاة أبيه . كما أن هناك شواهد أثرية أخرى تدل على أن كبار رجال الدولة والحكم فى مصر كانوا يستشيرونها فى الشئون المتعلقة بالسياسة الداخلية والسياسة الخارجية .

● ونتيجة لانهماك زوجها فى ملذاته فقد انهارت حالته الصحية فى أواخر سنوات حكمه ، فاحتفظ بالسلطة الإسمية بينما تولت هى ممارسة شئون الحكم على أساس من العدالة والمساواة وتحقيق ما يمكن أن نسميه باقتصاد الرفاهية ، وحق أبناء الشعب فى التعليم ، فازداد عدد المدارس التى كان المصريون القدماء يطلقون عليها اسم « بيوت

الحياة » . كما حرصت على توفر سبل التعليم العالى للنابهين من طلاب المدارس الأولية والمتوسطة الذين يتميزون بالنبوغ والمواهب الظاهرة فى الاقبال على العلم فى أعلى مستوياته .

● ويذكر التاريخ أيضا ذلك الدور السياسى والحضارى الرائع الذى لعبته ابنة الشعب الملكة « تى » أثناء حكم ابنها أخناتون الذى تولى العرش وعمره اثنتى عشرة سنة ، فأصبحت وصية عليه حتى بلغ الرشد . وكانت من أهم المحفزات التى دفعته إلى إعلان ديانة التوحيد والدعوة إلى نبذ فكرة تعدد الآلهة ، والدعوة إلى عبادة الإله « آتون » الواحد الأحد خالق كل شىء ولا شريك له . وهى الدعوة التى يعتبرها كثير من المؤرخين أول ثورة حضارية فى تاريخ الانسان فى مجال الدين والفن .

رأس تمثال للملكة « تى »

ملكات شهيرات : حتشبسوت .. درة النساء الشريفات

تعرفنا حتى الآن على ملكات من نساء مصر كان لهن دور فعال فى علو شأن أبنائهن من الملوك الذين رفعوا شأن عرش البلاد . . تعرفنا على أم خوفو . . وأم أحمس . . وأم أخناتون . وفى هذه الدراسة سنتعرف على امرأة مصرة عظيمة تولت حكم مصر لفترة تجاوزت عشرين سنة وتسعة شهور من القرن الخامس عشر قبل الميلاد . . وهى الملكة حتشبسوت .

● حتشبسوت كلمة باللغة المصرية القديمة معناها « درة النساء الشريفات » . ويصفها نص هيروجليفى أمرت بنقشه على جدران معبد الدير البحرى يقول : « عندما أصبحت الطفلة حتشبسوت شابة ، كانت جميلة جمالاً مبهراً ورائعا ، وكان النظر إليها أمتع بكثير من النظر إلى أى كائن أو أى شىء آخر فى الدنيا كلها » .

● وإلى جانب هذا القدر من الحسن والجمال الذى وُصِفَت به والذى تدل عليه أيضا تماثيلها الرائعة ، كانت حتشبسوت تتميز بشخصية متحكمة قوية ، وبعقل ناضج قادر على اتخاذ القرار الصحيح ، وبروح طيبة مسالمة تبنت الدعوة إلى نشر الحضارة المصرية بعلاقات قائمة على الود والمحبة بين مصر وجيرانها . وهذه الصفات كلها جعلتها تستحق المكانة السياسية الرفيعة التى تبوأتها فى التاريخ المصرى ، كما جعلتها مقبولة من الشعب ومن كبار رجال الدولة كملكة حاكمة تجلس على عرش مخصص فى الأصل للملوك الرجال . وفى زمن كانت التقاليد فيه لا تستحسن أن تجلس على هذا العرش امرأة تحكم مصر والمصريين .

● ودون أن نخوض فى البحوث التاريخية التى دارت حول كيفية جلوسها على العرش وانفرادها بحكم مصر ، نشير إلى أن البلاد فى بداية عهدها كانت تتنازعها فئتان حزبيتان : حزب منهما كان يتكون من رجال المؤسسة العسكرية المصرية الذين كانوا يرون ضرورة السيطرة على التجارة الخارجية العالمية عن طريق قوى الجيش والأسطول والنفوذ السياسى المصرى على دول ومناطق العالم القديم . . والحزب الثانى كان من المثقفين ورجال الدين وكبار الموظفين الاداريين ، وهؤلاء كانوا ينشدون سياسة السلام مع الدول والشعوب المجاورة والتى تقوم على أساس التجارة الحرة . وهى السياسة التى تتيح لهم القيام باصلاحات داخلية آمنة وتوفير الرخاء دون سفك الدماء .

● ناصرت حتشبسوت منذ البداية سياسة السلام . وهناك نص مكتوب على أحد جدران معبد الدير البحرى تقول فيه : « يعلم الإله اننى سوف أحكم الأرضين [مصر] . . وليس لى أعداء فى أى أرض أخرى » . ووُصِفَت فى أيامها بأنها لم تكن طاغية ولا ظالمة بل كانت تعطى كل ذى حق حقه . وبعد أن ساد السلام ربوع البلاد خرجت القوافل البرية والأساطيل البحرية التجارية المصرية ، تحمل المنتجات والمصنوعات المصرية التى تحمل سمات حضارتها إلى البلاد الأجنبية فى أقصى الشمال وأقصى الجنوب ، لتبادلها بما تحتاجه مصر من خامات ومنتجات تلك البلاد .

● وفى عهدها تم تشييد واحد من أعظم وأفخم الآثار المعمارية التى خلفتها الدولة الحديثة . وهو معبد الدير البحرى الذى أقيم فى حضن الجبل على الشاطىء الغربى للنيل فى مواجهة طيبة « الأقصر » . وهو معبد فريد فى بابه وليس له مثيل فى معابد مصر ولا معابد العالم القديم كلها . وقد وضع هندسته وتصميمه وأشرف على الأعمال المعمارية التنفيذية لبنائه مهندس مصرى شاب تميز بالعبقرية الهندسية والقدرة الفائقة على ادارة الأعمال ، واسمه « سننموت » .

● وعلى جدران هذا المعبد العظيم الذى مازال محل إعجاب كل من يزوره ويشاهده ويرتاد أبهاءه حتى الآن ، دونت الملكة حتشبسوت تقريراً تفصيليا مدعماً بالصور الوصفية لبعثتها البحرية الشهيرة التى أبحرت فيها سفن الأسطول التجارى المصرى إلى

بلاد بونت [يقال انها الصومال أو بلاد اليمن أو هما معاً] . . وكانت البعثة مجهزة بمجموعة من الفنانين الرسامين الذين قاموا بدور الصحفيين الذين كتبوا أدق «ريبورتاج » علمى مصور فى وصف بلاد بونت من الناحية الطبيعية والبيئية ، وجغرافيتها البشرية ، وتقاليد وعادات أهاليها ، بالاضافة إلى دراسة علمية ممتعة عن مختلف أنواع الأسماك والأحياء المائية فى البحر الأحمر .

● وتضمن التقرير أيضا إحصاءً تفصيلياً عن أنواع « الواردات » التى عادت بها السفن المصرية مثل : العاج والأبنوس وجلود الفهود وسبائك الذهب والفضة وأحمال من البخور والعطور والتوابل والقرفة والأعشاب الطبية وشتلات أشجار البخور التى نقلت بجذورها ، وكذلك « التوتيا » المستعملة فى صناعة كحل العيون ، فضلا عن مجموعة كبيرة من الحيوانات الحية تشمل الزراف والكلاب والنسانيس . وذلك كله بالإضافة إلى نقوش تصور براعة المصريين القدماء فى أعمال النقل البحرى والنقل النهرى للبضائع الثقيلة وأعمال الشحن والتفريغ .

حتشبسوت . . درة النساء الشريفات .

ملكات شهيرات : نفرتيتى

.. شريكة اخناتون فى فلسفة التوحيد

فى عام ١٩٩١م ترجمتُ كتاباً يعتبر من أهم المراجع الحديثة فى « علم المصريات » . وهو كتاب عنوانه « نفرتيتى . . الجميلة التى حكمت مصر فى ظلْ ديانة التوحيد » من تأليف العالمة البريطانية « جوليا سامسون » التى استغرقت نحو خمسين عاماً من عمرها فى دراسة الآثار المصرية الخاصة بما يسمى فى التاريخ المصرى القديم « بعصر العمارنة » نسبة إلى بلدة « تل العمارنة » بمحافظة المنيا حالياً .

● ومن أهم الاستنتاجات العلمية التى انتهى إليها هذا الكتاب ، استناداً إلى مجموعة من الشواهد الأثرية النادرة التى عثر عليها فى مناطق الكرنك بالأقصر ، وبقايا منشآت ومعابد مدينة هرموبوليس القديمة [الأشمونين حالياً بمحافظة المنيا] ، وبقايا آثار مدينة « آخت آتون » التى هدمت وأزيلت فى العصور القديمة بعد أن سويت بالأرض ، والتى أصبح اسمها الآن « تل العمارنة » . . وتدل هذه الشواهد الأثرية ، بعد دراستها وفحصها علمياً وتاريخيا ، على أن الملكة « نفرتيتى » قد جلست على عرش مصر وحكمت البلاد بعد وفاة زوجها « أخناتون » وأثناء وصايتها على عرش الملك «توت عنخ آمون » الذى تولى الملك صغيراً لم يبلغ الرشد .

● واسم « نفرتيتى » كان ينطق فى اللغة المصرية القديمة « نفرت إيتى » ومعناه «الجميلة آتية » أو « الجميلة قادمة » . وكان من ضمن ألقابها الملكية لقب « نفر نفرو آتون » ومعناه « الجميلة جمال آتون » . فالجمال إذن كان قاسماً مشتركا بين اسمها وألقابها والصفات والنعوت التى وصفت بها . . وبالفعل تدل جميع النقوش التى رسمت لها

وصورتها فى مختلف الأوضاع والمواقف ، كما تدل تماثيلها الرائعة الكاملة وغير الكاملة ، على انها ذات جمال آسر ساحر أخاذ ، يشع نوره من عينيها وجبهتها ووجنتيها وشفتيها ورقبتها الطويلة الرائعة .

● ومن الأوصاف المكتوبة التى أطلقها عليها زوجها اخناتون : « أنها مليحة المحيا ، مبهجة بتاجها ، تلك التى إذا أصغى الإنسان إلى صوتها طرب ، سيدة الرشاقة ، ذات الحب العظيم ، الجديرة بالمرح ، ذات الحسن ، حلوة الحب ، جميلة الوجه ، زائدة الجمال ، التى يحبها الملك ، سيدة السعادة ، وسيدة جميع النساء . . نفرتيتى . . الجميلة جمال آتون » .

● عاشت نفرتيتى فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، زوجة للملك أخناتون المعروف بأنه أول ملك فى تاريخ العالم القديم كله أعلن أن الله واحد لا شريك له خالق كل شيء وكل كائن يدب فى الأرض . وقد تسببت هذه الدعوة إلى ديانة « التوحيد » فى إحداث تغييرات جذرية فى كافة المفاهيم السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والفنية والثقافية . . ليس على مستوى مصر وحدها ، بل وتأثرت بها جيران مصر فى الدول والبلدان المجاورة . ويصف بعض المؤرخين هذا العصر بأنه « ثورة دينية » بينما يصفه مؤرخون آخرون بأنه « ثورة فى عالم الفن والثقافة » .

● وتدل جميع النقوش التى صورتها مع زوجها وبناتها الأميرات الست على مدى الحب الأسرى والروابط العائلية الطيبة التى كانت تحكم العلاقات داخل هذه الأسرة الملكية . . فجميع النقوش تصورها بحجم مماثل لحجم زوجها ، وجميع النصوص المكتوبة والمصورة تؤكد انها كانت تشترك مع زوجها اشتراكا فعليا فى أداء جميع أعمال الحكم فى الدولة ، من استقبال الوفود الأجنبية ، والتفتيش على سفن الأسطول ، واحتفالات المراسم الملكية بتوزيع الهدايا والنياشين على كبار رجال الدولة .

● ويتميز ذلك العصر أيضا بانطلاق حرية الفنانين فى التعبير ، حيث رسموا صوراً غير مسبوقة ولا ملحوقة فى تاريخ الفن المصرى القديم ، تصور الملك وهو يقبل زوجته قبلة حارة أثناء ركوبهما عربة يتجولان بها فى أرجاء مدينة « آخت آتون » التى

اتخذها الملك عاصمة جديدة لمصر ، وهو منظر غير معتاد فى الفن المصرى القديم ، لم يرسم لأى ملك جلس على عرش مصر قبل أخناتون أو بعده . . بالاضافة إلى نقوش أخرى تصور أخناتون ونفرتيتى وبناتها أثناء ممارسة الحياة البيتية العادية ، وبدون اتباع قواعد البروتوكول الملكى التى كان يلتزم بها الفنانون التزاما صارماً عند رسم وتصوير أعضاء الأسر الملكية .

● ومن أحدث النظريات التى قال بها بعض المؤرخين وعلماء الآثار المحدثين والتى أثبتتها العالمة البريطانية « جوليا سامسون » بصفة قاطعة ، نظرية تؤكد ان نفرتيتى حكمت مصر خلفا لزوجها اخناتون بعد موته ، ووصية على عرش الملك الصغير «توت عنخ آمون » الذى تولى الملك بعده .

المرأة المصرية القديمة

حوّلت مصر من العصر الحجرى إلى عصر المعادن

انقرضت الآن عادة شعبية مصرية تتعلق بطب العيون . . فقد كانت أمهاتنا وجداتنا تحرصن على وضع « الششم » فى عيوننا ونحن أطفال صغار ، مرة كل شهر ، سواء أكانت العيون مريضة أو تعمص ، أم كانت سليمة وقوية دون مرض أو عماص . . وذلك على أساس أن « الششم » بالإضافة إلى كونه علاجاً للعيون ، فهو يقوى النظر ويجعل العيون صافية رائقة .

● وتقول المعاجم والقواميس العربية إن « الششم » هو ما يوضع فى العين للاستشفاء به . وإن اسم « ششم » معرب عن كلمة « جشم » الفارسية ومعناها «العين» .

● ومن الثابت تاريخيا وأثرياً أن قدماء المصريين هم أول شعب فى العالم اهتم بطب العيون وزينتها . . وذلك منذ عصور ما قبل التاريخ وما قبل عصر الأسرات ، حيث كانوا يستخدمون مادة « الملاخيت » وهى مسحوق « كربونات النحاس القاعدية» لتزيين العين بنفس الطريقة التى يستعمل بها « الكحل » فى أيامنا هذه .

● وقد لاحظت أن هذه المادة الكيميائية كانت تسمى فى اللغة المصرية القديمة باسم « شسمت » . ولهذا أرجح أن كلمة « ششم » ذات أصل مصرى قديم وانتقلت إلى الفرس ، ومنهم انتقلت إلى اللغة العربية .

● ويقول بعض علماء المصريات إن المرأة المصرية القديمة كانت السبب التاريخى فى

انتقال الحضارة المصرية من « العصر الحجرى » إلى « عصر المعادن » الذى يسمى علمياً « العصر الخالكوليثى » أو عصر بداية استخدام النحاس فى صناعة الأدوات التى كانت تصنع من قبل من حجر الظران أو الصوان .

● ويفسر هؤلاء العلماء هذا الدور العظيم الذى قامت به المرأة المصرية القديمة فى اكتشاف معدن النحاس بنظريتين متقاربتين . . تقوم النظرية الأولى على أساس افتراض محتمل إلى حد كبير . . فمن الفروض المعروفة منذ القدم أن المرأة كانت تتولى مسئولية إعداد الطعام للأسرة ، ولذلك فقد كانت تتولى أمر إشعال النار وتشغيل المواقد اللازمة لطهى الطعام أو لصنع الخبز .

● وتقول النظرية الأولى إن من المحتمل ان امرأة مصرية مجهولة كانت تقوم بعمل عجينة الكحل من مادة « شسمت » أى [مادة الملاخيت المكونة من كربونات النحاس القاعدية كما ذكرنا من قبل] . . وكانت هذه المرأة بجانب الموقد الذى أشعلت ناره لانضاج الطعام . . وحدث أن سقطت هذه العجينة فى نار الموقد بطريقة عفوية أو لأى سبب من الأسباب . وبطبيعة الحال فلم تستطع تلك المرأة أن تمد يدها فى النار لتنقذ عجينتها الغالية . . ولابد انها تحسرت وهى ترى العجينة وقد آلت إلى مصير الاحتراق .

● وبعد أن تم نضج الطعام وخمدت نار الموقد ، لاحظت المرأة أن عجينة الكحل التى فقدتها قد تحولت إلى معدن براق هو « معدن النحاس » . . فقد أدت النار إلى صهر العجينة التى كانت تتكون فى صورتها الخام من « كربونات النحاس القاعدية » . ونتيجة لعملية الصهر تبخرت بعض مكونات هذه المادة ، وبقى معدن النحاس فى صورته الخام المعروفة فى نهاية الأمر .

● وكان هذا الاكتشاف الرائع الذى تم صدفة ، وسيلة انتقال المصريين القدماء من « العصر الحجرى » إلى « عصر المعادن » . وهى نقلة حضارية عظمى كان للمرأة المصرية القديمة فيها الفضل الأول .

● هكذا تقول النظرية الأولى ، أما النظرية الثانية فلها تفسير آخر لدور المرأة

المصرية القديمة فى هذا الاكتشاف . يقولون إن هذا الاكتشاف قد تم غالباً فى شبه جزيرة سيناء أو فى بعض مناطق الصحراء الشرقية ، فقد ثبت بصفة قاطعة أن المصريين منذ أقدم العصور كانوا يرسلون بعثات أو حملات تعدينية للحصول على «التركواز » أو الفيروز من سيناء ، وللحصول على الذهب من الصحراء الشرقية .

● وبالنظر إلى طبيعة هذه العمليات التعدينية ، فقد كانت هذه البعثات تبقى فى تلك المناطق لمدد طويلة . لذلك فقد كان العمال ـ وكذا الجنود الذين كانوا يحرسونهم ـ يصطحبون معهم زوجاتهم اللاتى كن يتولين عمليات إعداد الطعام والأعمال البيتية وغير ذلك من الأعمال المعاونة الأخرى لكى يتفرغ الرجال لعملية التعدين وجمع الفيروز أو تبر الذهب .

● وتدل الشواهد الأثرية على أن المواقد البدائية التى كانت تستخدم فى طهى الطعام ، كانت عبارة عن حفرة فى سطح الأرض ، أو مساحة صغيرة مجهزة ، توضع فيها قطع الأخشاب أو فروع الأشجار الجافة التى كانت تستخدم كوقود قبل اكتشاف كيفية صنع وإعداد الفحم النباتى . . وبعد اشعال النار فى هذا الوقود ، كانت توضع فوق النار القدور الفخارية البدائية التى يطهى فيها الطعام .

● ومن المعروف علمياً أن المكونات الأولية لمعدن النحاس فى شبه جزيرة سيناء كانت توجد على شكل رواسب فى الطبقات السطحية من الأرض ومن المحتمل فى مثل هذه الحالة ، أن بعض النساء المصريات حين كن يعددن المواقد فى أرض تختلط فيها هذه المكونات الأولية لمعدن النحاس بالحصى أو التراب أو الرمال ، لاحظن ذلك البريق المعدنى الأصفر . يلمع وسط رماد النار بعد خمودها . وبذلك بدأت عمليات اكتشاف المناطق التى توجد بها مكونات النحاس ، سواء فى سيناء أو فى الصحراء الشرقية .

● وبالرغم من اختلاف وجهات النظر فى التفسير الذى قالت به هذه النظرية والتفسير الذى قالت به النظرية الأخرى التى تفترض أن اكتشاف معدن النحاس كان نتيجة لسقوط عجينة الكحل المكونة من مادة الملاخيت أو « شسمت » حسب التسمية

المصرية القديمة فى نار الموقد وانصهارها ، فإن كلاً من هاتين النظريتين لا تغفل ذلك الدور الحضارى العظيم الذى قامت به المرأة المصرية فى اكتشاف معدن النحاس ، وذلك قبل أن يبزغ فجر التاريخ ، بل وقبل أن يوحد الملك مينا الوجهين البحرى والقبلى فى مملكة واحدة هى أقدم دولة وحكومة انشأها الانسان المتحضر على كوكب الأرض .

● ومن معدن النحاس استطاع المصريون الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ أن يصنعوا الأدوات الزراعية المستخدمة فى الحرث والحصاد بعد أن كانوا يصنعون تلك الأدوات من حجر الصوان ، كما استطاعوا أن يصنعوا منه أيضا الأدوات الصناعية كالمثاقب والمطارق والأزاميل والمناشير والمسامير . . بل واستطاعوا أيضا أن يطوعوا هذا المعدن لصناعة الحلى ، فصنعوا منه خرزاً مثقوباً استعملوه فى عمل وتشكيل العقود والأساور والخلاخيل والأقراط . . بل وتوصلوا إلى طريقة صب هذا المعدن وطرقه حتى تمكنوا من عمل تماثيل صغيرة أو بالحجم الطبيعى لبعض الملوك والأفراد .

تمثال من الحجر الجيرى الملون لامرأة تشعل النار أمام موقد . .

{ من معروضات متحف الفنون الجميلة فى بوسطن } .

حق المساواة بين الرجل والمرأة فى مصر القديمة

فى نصوص الصلوات التى كانت تقام لعبادة وتمجيد الإلهة « إيزيس» التى كانت تعتبر المثل الأعلى للمرأة المصرية القديمة نص يقول : «إيزيس . . يا ربة الأرض . . أنت التى جعلت قدرة المرأة تتساوى مع قدرة الرجل» . ويفسر بعض المؤرخين الأجانب هذا النص بأنه تكريس لحق المساواة بين الرجل والمرأة فى مصر القديمة التى لم تعرف التفرقة بين الجنسين فى التمتع بالحقوق العامة .

● وتقول العالمة الفرنسية كريستين نوبلكور [وهى من أشهر علماء الآثار المصرية فى العصر الحديث ولها كتب ومؤلفات تعتبر من أهم المراجع المدققة فى التاريخ المصرى القديم والآثار المصرية القديمة] إن مصر كانت الدولة الوحيدة بين دول العالم القديم كلها التى خصصت للمرأة أوضاعًا قانونية تحقق لها المساواة مع الرجل .

● وعقدت كريستين نوبلكور مقارنة علمية بين هذه الأوضاع القانونية التى تمتعت بها المرأة المصرية القديمة مع الأوضاع القانونية التى كانت مفروضة على المرأة فى القانون الرومانى الذى كان سائداً فى عصر الامبراطورية الرومانية حيث كانت المرأة فيه تحت وصاية الرجل ، ولا تتمتع إطلاقاً بتلك الحقوق الشخصية الواسعة النطاق التى كانت تتمتع بها المرأة المصرية القديمة ، خصوصاً من ناحية الأهلية القانونية ، والذمة المالية ، وحق المرأة فى التملك .

● وتدل عشرات من الشواهد الأثرية التى يرجع تاريخها إلى مختلف العصور التاريخية المصرية القديمة على أن المرأة كانت كاملة الأهلية القانونية متى بلغت سن

الرشد ، وتستطيع أن تتصرف بكامل مسئوليتها الشخصية دون انتظار لموافقة أى طرف آخر حتى ولو كان والدها أو زوجها . . وكانت صاحبة الحق فى أن تعقد ما شاء لها من عقود أو اتفاقات قانونية مع الآخرين ، سواء فى البيع أو الشراء أو التأجير أو الوصية لتمييز أحد الورثة عن بقية الورثة الآخرين متى شاءت أن تفعل ذلك لأسباب تراها .

● كذلك فقد كان للمرأة المصرية القديمة الحق فى ممارسة الاجراءات القضائية ورفع الدعاوى والدفاع عن نفسها وحقوقها أمام المحاكم . . وتؤكد ذلك بردية نادرة تتضمن تقريراً قضائياً عن إحدى قضايا الأوقاف ، يطالب فيها الورثة بالحصص الشخصية المقررة لكل واحد منهم حسب ما جاء فى حجة تخصيص الممتلكات الموقوفة . . وقامت بعض الوارثات بالدفاع عن حقوقهن أمام المحكمة التى حكمت بتعيين إحداهن «مديرة للأملاك العقارية» محل النزاع لتوزيع الحصص المقررة لكل وارث أو وارثة . ومن الطريف أن هذا التقرير القضائى تضمن ذكر حدوث تزوير فى بعض مستندات تلك القضية عند تسجليها لدى الإدارة المركزية التابعة للحكومة ، فقامت إحدى الوارثات بالمرافعة أمام المحكمة حيث كشفت ذلك التزوير وطعنت فى المستندات المزورة .

● وفى عصر الأسرة السادسة التى استمرت فى حكم مصر نحو ١٥٠ سنة [من عام ٢٤٢٠ إلى عام ٢٢٧٠ ق م] قال الحكيم «كاجمنى» : [علموا المرأة يتعلم الرجل ويتعلم الشعب] . ومعنى هذا أن التعليم كان متاحاً للأناث كما كان متاحًا للذكور . وهناك شواهد أثرية كثيرة على أن نساء الأسر الملكية والبلاط الملكى وطبقة النبلاء كن من المتعلمات المثقفات . . كما كان من واجب رب الأسرة من الطبقة الوسطى أن يقوم بتعليم أبنائه وبناته فى المدارس أو «بيوت الحياة» المخصصة لتعليم الصغار والمبتدئين أسس وقواعد الكتابة والحساب . وبالنسبة للبنات اللاتى يبدين تفوقاً فى تحصيل العلم كان يتاح لهن الحق فى التعليم العالى .

● وكانت هناك نساء بلغن حظًا موفوراً من التعليم والثقافة العامة والمتخصصة ، وكن يمتلكن مكتبات خاصة فى بيوتهن . وتدل على ذلك بردية كتبها شخص يدعى «خنوم ردى» كان يعمل أميناً لمكتبة سيدة اسمها «نفرو كابيت» وقال فيها : « لقد

عينتنى السيدة مشرفاً على خزائن الكتب الخاصة بها وبأمها فى دندرة . . وكانت السيدة مولعة بالعلوم والفنون . . وقد زدت فى عدد ما تحتويه المكتبة من كتب ، وجلبت لها كثيرًا من المؤلفات القيمة حتى لم تعد تتسع لأكثر من ذلك . . وقمت بترتيبها أحسن ترتيب وربطت ورممت ما كان منها مفككاً ! » .

« نفرت » وزوجها « رع حوتب » . . على قدم المساواة فى كل شيء .

[من معروضات المتحف المصرى بالقاهرة]

عذارى مصر القديمة .. وفترة الحب والخطبة

قال حكماء مصر القديمة ينصحون الشباب بالزواج المبكر باعتباره عاصماً من الوقوع فى الخطيئة : « اتخذ لك زوجة وأنت فى سن الشباب لتنجب لك أبناء » . . ومفهوم هذه الحكمة يمتد أيضاً إلى أن الأبناء الذين ينجبهم الأزواج فى سن الشباب سيشبون عن الطوق ويصبحون شباباً بدورهم بينما يكون أباؤهم وأمهاتهم فى عز شبابهم ، الأمر الذى يؤدى إلى حسن التفاهم بين الآباء والأبناء .

● وكان من المعتاد والشائع بين سائر الطبقات فى المجتمع المصرى القديم أن تتزوج الفتاة فى سن الرابعة عشرة ، وأن يتزوج الفتى فى سن السابعة عشرة ،وفى مثل هذه الأعمار بالنسبة للفتى أو للفتاة تنمو مشاعر الحب وعواطفه المتأججة ، الأمر الذى يجعل علاقة الزوجية بين الشابين قائمة على أساس من الحب يدعم هذه العلاقة وينميها باستمرار .

● ولما كانت القواعد والعادات الاجتماعية قد أعطت للمرأة المصرية حرية الإرادة وحرية اختيار زوج المستقبل الذى تتمناه ، فليس من المستغرب العثور على عدد هائل من القصائد الشعرية المكتوبة على صفحات البردى ، تتناول أدق وأحلى المشاعر العاطفية النبيلة لفتيات وعذارى يتغزلن فى فتيان أحلامهن ، ولشباب من الذكور يعبرون بأحلى التشبيهات عما يجيش بصدورهم من هوى عذرى نبيل المقصد والهدف . . وكانوا جميعاً ـ شبابا وشابات ـ يتمنون أن يتوّج هذا الحب بزواج مقدس مستديم .

● وليس من المستغرب كذلك أن نقرأ فى إحدى هذه القصائد أبياتاً تؤكد لنا أن الفتاة العذراء التى وقعت فى حب شاب من جيرانها قد باحت بسر هواها إلى أمها ، وأن الأم قد سُرَّت بذلك غاية السرور ، وأخذت تدعو وتتوسل لآلهة الحب أن تساعد ابنتها فى تحقيق أمنيتها بالزواج من المحبوب .

● وبالرغم من حرية الفتاة المصرية فى الحب واختيار زوج المستقبل ، إلا أن الأمر فى جميع الأحوال كان يتوقف على موافقة الوالدين على هذا الاختيار ، فإن تمت الموافقة كان الوالدان يبذلان كل ما فى وسعهما لتحقيق الارتباط بين ابنتهما ومن تحب . أما إذا لم يوافق الأب أو الأم على هذا الارتباط لأى سبب من الأسباب فإنهما كانا يتقدمان بالنصح المناسب لابنتهما وإبداء وجهة النظر فى رفض استمرار العلاقة بين الإبنة ومن تحب ، مع إرشادها إلى ضرورة التمسك بأهداب الفضيلة والمحافظة على عذريتها وشرفها .

● وتماماً مثلما يحدث الآن فى مجتمعنا المصرى الحديث يترك الفتى والفتاة المتحابان إلى والديهما مسئولية السير فى إجراءات الزواج والاتفاق على أية بنود أو اتفاقات يرون النص عليها فى عقد الزواج المزمع إبرامه . وهو عقد - إذا تم - كان لابد من تسجيله وإشهاره فى سجلات الحكومة . ومع ذلك فقد كانت بعض الزيجات تتم مشافهة دون تسجيل حكومى ، حيث يتم الاتفاق بين الزوجين وعائلتيهما على ما يرونه من شروط ، وحيث يعلن هذا الزواج بين الأقارب والجيران فى احتفال مشهود [ومثل هذا الزواج كان معروفاً فى مصر الحديثة حتى عام ١٩١١ م عندما صدرت لائحة المحاكم الشرعية والأحوال الشخصية التى نصت على ضرورة تسجيل الزواج لدى الجهات الحكومية المختصة حتى يمكن أن تنظر المحاكم فى المنازعات التى قد تنجم عن هذا الزواج] .

● وحين يعلن الحب ويصبح مشروعًا بموافقة أسرتى الفتى والفتاة يصبح من حقهما اللقاء علانية ليزداد كل منهما معرفة بطباع الآخر [وهى فترة تشبه فترة ما بعد قراءة الفاتحة والخطبة فى مجتمعنا الحديث] . وفى هذه الفترة يصبح متوجباً على الفتى عريس المستقبل أن يقدم لمحبوبته بعض الهدايا فى كل المناسبات الدينية والشعبية أو حتى المناسبات الشخصية . وفى الوقت نفسه تصبح عائلة الفتاة مسئولة عن تجهيز العروسة

باللوازم الضرورية لبدء حياتها الزوجية طبقا لما هو سائد فى الطبقة الاجتماعية التى تنتمى إليها .

● وفى خلال تلك الفترة أيضاً تستمر مظاهر الفرح فى بيتى العروسين ، حيث تتجمع النساء والبنات لقرع الطبول أو العزف على الآلات الموسيقية الشعبية ولإنشاد أغانى الأفراح والحب والغرام ، ولممارسة الرقص المعبر عن الفرح والبهجة والسرور . وتستمر هذه الاحتفالات الصغيرة حتى يحين موعد الاحتفال الكبير بليلة الزفاف .

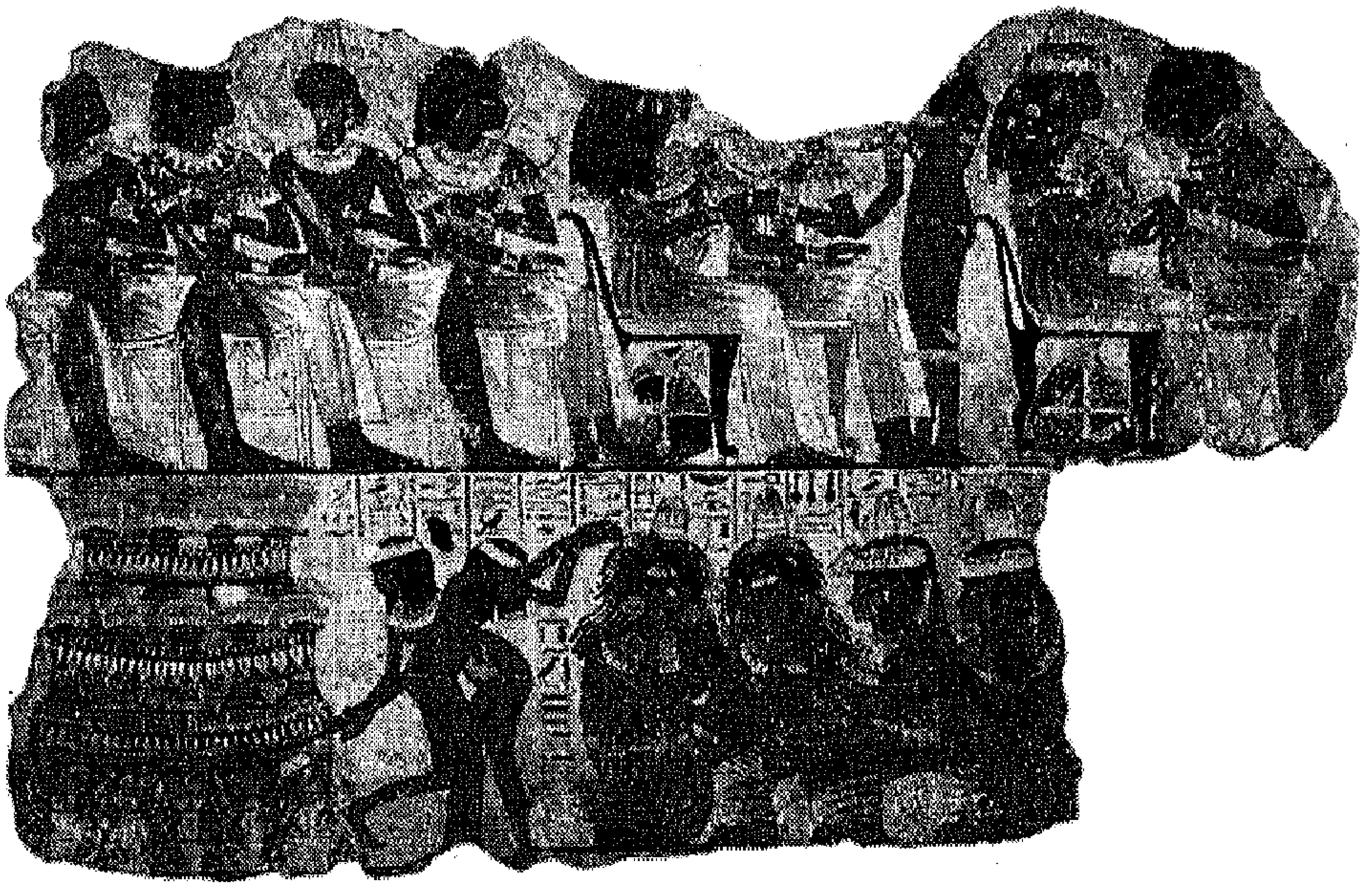

وتقام حفلات الموسيقى والرقص والغناء ابتهاجاً بكل مراحل الزواج .

قائمة العفش .. واستعراض جهاز العروسة ..
ابتكار مصرى قديم

هناك عادة مازالت سائدة حتى الآن فى القرى وفى الأحياء الشعبية بالمدن المصرية . . وهى استعراض مفردات «جهاز العروسة» على الناس ، وما تحتويه هذه المفردات من مراتب وألحفة ودرابيات وملاءات ومخدات والموبيليات الخاصة بغرفة النوم وغرفة الاستقبال والأوانى النحاسية أو المصنوعة من الألومنيوم والصحون والأطباق وكافة أدوات المطبخ بالإضافة إلى الفساتين والأرواب ذات الألوان الزاهية . . وفى العادة يتم استعراض هذا «الجهاز» محمولاً على الأكتاف أو الرؤوس أو منقولاً على العربات .

● وهناك نقوش كثيرة ترجع إلى مختلف العصور التاريخية فى مصر القديمة تؤكد أن تلك العادة الاجتماعية الخاصة باستعراض «جهاز العروسة» كانت ضمن تقاليد الزواج فى مصر القديمة . وتصور تلك النقوش مجموعات من الأطفال والشباب من الذكور والاناث [هم فى الغالب من أقارب العروسين أو من الجيران والأصدقاء] يحملون على أكتافهم ورؤوسهم قطع الأثاث التى تتزود بها العروس لتأسيس بيت الزوجية . وكانت أهم هذه القطع السرير المزود بمسند للرأس ومناضد الطعام ومجموعة من الكراسى ذات الأشكال والطرز المختلفة ، وصناديق حفظ المفروشات والملابس ، وصناديق المجوهرات وما تتضمنه من عقود وأساور وحلقان وخلاخيل ، وأوانى العطور وفازات الزهور وكافة أدوات الزينة والتجميل ، والصنادل التى تستعمل فى البيت أو عند الخروج . كما تصور بعض النقوش « الناموسية» وحواملها التى تنصب فوق السرير حتى لا يعكر الناموس صفو العروسين أثناء النوم .

● وفى بعض هذه النقوش نرى مجموعة من النساء والفتيات الصغيرات وراء حاملى مفردات الجهاز وهن يصفقن وينشدن الأغانى .

● وعندما يصل هذا الجهاز إلى بيت الزوجية الجديد تقوم العروس بالاشتراك مع بعض أعضاء أسرتها وأسرة زوجها بتنظيم الجهاز وترتيبه فى الأماكن المناسبة واعداد البيت للحياة الزوجية .

● وقد تم العثور على بعض عقود الزواج كتبت فيها بالتفصيل «قائمة العفش» التى يتألف منها «جهاز العروسة» مع وصف كل قطعة على حدة وبيان قيمتها «بالدبن» وهى وحدة وزنية من الذهب أو الفضة أو النحاس . وتنص هذه العقود بصفة قاطعة على أن جميع مفردات الجهاز المكتوبة فى القائمة تؤول ملكيتها إلى الزوجة فى حالة الطلاق أو فى حالة موت الزوج ، وفيما يبدو أن تسجيل هذا الحكم فى نصوص العقد كان بناء على عرف سائد فى المجتمع المصرى القديم .

● وبدراسة وتحليل بعض عقود الزواج التى عثر عليها نتبين أنه لم تكن هناك قاعدة واحدة فى تحديد الطرف المسئول عن تدبير «جهاز العروسة» . . فهناك عقود تنص على أن العريس عليه أن يقدم «مهرًا» يتم الاتفاق عليه مع أهل العروسة [ويلاحظ أن القاعدة العرفية العامة هى وجوب تقديم المهر عند الزواج ، كما عثر أيضاً على نص أمر ملكى يلزم الرجل بتقديم مهر عند زواجه] . . كما أن هناك عقوداً أخرى تنص على اشتراك الزوجين فى تمويل شراء واعداد الجهاز ، بل وفى تمويل كافة الاحتياجات المعيشية فى الحياة الزوجية . ومعنى ذلك أن العريس كان ملزماً بتقديم مهر يتم الاتفاق عليه ، وأن العروس كانت ملزمة بتقديم « دوطة» يتم الاتفاق عليها . وذلك كنوع من التعاون على تأثيث البيت الجديد وتمويل الحياة الزوجية المستقبلة .

● وفى بعض الحالات تكون العروس أكثر ثراء من العريس وأهله ، وفى مثل هذه الحالة كان العقد يتضمن ذكر الأموال والأشياء التى تقدمها الزوجة لزوجها بالتفصيل مع إقرار من الزوج بأنه استلم هذه الأموال والأشياء من زوجته . . ومن الملاحظ أن مثل

هذا الزواج كان نادراً ويعتبر أمرًا لا يليق بالرجال طبقاً للعادات والتقاليد التى كانت سائدة فى المجتمع المصرى القديم .

● ولكن فى أغلب الأحوال كان العريس يدفع مهر عروسه لأهلها ، فيقومون هم باعداد مفردات الجهاز ولوازم البيت مع إضافة ما يستطيعون تقديمه من أشياء ولوازم أخرى .

« نبت بر » .. معناها : « ست الدار »

من أشهر الألقاب الشعبية التى كانت تطلق على المرأة المصرية القديمة بعد زواجها لقب «نبت بر» ومعناه بلغتنا الفصحى «سيدة البيت» أو «ربة البيت» مجازاً . . أما بلهجتنا الشعبية فهو يعنى «ست البيت» أو «ست الدار» .

● ومنذ أن استقر قدماء قدماء المصريين الأوائل حول شطآن وادى النيل وروابيه [وقد حدث ذلك من أكثر من خمس وعشرين ألف سنة] مارسوا حرفة الزراعة إلى جانب حرفتى الصيد والرعى . ولكن الزراعة كانت تتطلب نوعًا من الاستقرار فى المكان حتى يمكن ممارسة مراحل العمليات الزراعية من حرث وبذار ورى ورعاية ما تنبته الأرض إلى أن تحين مواعيد الحصاد .

● وبطبيعة الحال فقد أدى هذا الاستقرار إلى نشوء التجمعات الإنسانية الأولى متمثلة فى «القرية» كوحدة اجتماعية يتضامن أفرادها فى تحقيق نظام جماعى ينشد مصالح وأهداف كل من يعيشون فى تلك القرية . . نظام يوفر لهم حياة آمنة تتوفر فيها جميع احتياجات البشر من طعام وشراب وملبس . . ولذلك فقد كان من الضرورى أن ينضوى سكان القرى فى نظام ذى قواعد تواتر العرف على تحديدها ويخضع الجميع لأحكامها .

● ومن المسلمات فى علم «الانثروبولوجيا الاجتماعية» أو علم التاريخ الاجتماعى للإنسان ، أن نظام القرية كوحدة اجتماعية نشأ بداءة بتجمع مجموعة من الأسر والعائلات التى تتكون أساساً من «زوجين» وما ينجبانه من أولاد وبنات ، الأمر الذى

كان يتطلب عادة أن تنشأ مجموعة من العادات والتقاليد التى تتحول بفعل الزمن وتواتر التطبيق والاتباع ، إلى مجموعة من القواعد الصارمة التى يلتزم بها الجميع كنظام موحد يحكم النظام الأسرى والعائلى وما يتضمنه من حقوق وواجبات لجميع أطرافه من أزواج وزوجات وأبناء .

● ويقول كثير من العلماء المتبحرين فى تاريخ العالم القديم إن أكثر الاحتمالات ثبوتاً هو سبق مصر فى وضع القواعد المتعلقة بتنظيم العلاقات القانونية التى تحكم الحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوج والزوجة ، وبين الأبناء والآباء والأمهات . وهناك كثير من الشواهد الأثرية التى تساعدنا فى وضع صورة عامة لنظم الزواج فى مصر القديمة ، وما كانت تحكمه من قواعد قانونية واجتماعية وأخلاقية .

● ولحسن الحظ فقد ترجم الكثير منها إلى اللغات الحية . وبدراسة هذه العقود دراسة تحليلية متأنية ، خرج المؤرخون وعلماء الآثار المصرية بالنتائج التالية :

● كان عقد الزواج نابعاً فى الأصل من العقائد المقدسة ، ليحكم العلاقة المشروعة التى تقوم بين الرجل والمرأة وما تثمره من مسئوليات مشتركة ومتبادلة تنبع من طبيعة الحياة الزوجية فى مجتمع محافظ يضع الأخلاق والآداب الاجتماعية فوق كل اعتبار .

● وكانت المرأة تتمتع بالحق الكامل فى اختيار زوجها ، وإن كانت التقاليد والعادات الاجتماعية التى كانت سائدة فى المجتمع المصرى القديم تتطلب أن يتم هذا الاختيار بموافقة الأب أو الأم أو ولى أمر المرأة قبل زواجها .

● إن المرأة المتزوجة كانت تحتفظ دائماً بإسمها وإسم عائلتها ، ولا تتسمى بإسم زوجها بدلاً من إسم أبيها ، كما هو شائع فى المجتمعات الغربية وبين بعض المتشبهين والمقلدين لتلك العادة الغربية .

● وكانت المرأة المتزوجة تتمتع بحرية التعبير والإرادة الحرة والاستقلال الكامل لذمتها المالية والمدنية والتجارية ، وبالأهلية القانونية والقضائية ، دون أية وصاية من زوجها . . كما كانت صاحبة الحق الأول فى إدارة ممتلكاتها الخاصة بالكيفية التى تراها حتى ولو استشارت زوجها .

الخيانة الزوجية .. جريمة عقوبتها الإعدام

تدل جميع الأدبيات التى عثر عليها فى آثار مصر القديمة ، سواء أكانت فى شكل قصص وحكايات ، أو فى شكل حكم ونصائح كتبها الحكماء والفلاسفة الأقدمون ، على أن المصريين القدماء كانوا شعباً محافظاً على التقاليد السوية ومتمسكاً بأعلى مستويات الأخلاق الرفيعة والسلوكيات الإنسانية والاجتماعية المهذبة والطيبة .

● كانوا يعتبرون الزواج علاقة شرعية بين الرجل والمرأة ، تحكمها العقائد الدينية وقواعد العرف السائدة والقائمة على أخلاقيات صبغوها بصفة مقدسة . وبالتالى فقد كانت الخيانة الزوجية ، سواء من جانب الرجل أو من جانب المرأة ، تعتبر كبيرة الكبائر، وجريمة لا تغتفر عقوبتها الإعدام .

● ولذلك فقد أباحوا لكل من الزوجين حق المطالبة بالطلاق وإنهاء رابطة الزوجية المقدسة ، إذا حلت الكراهية محل الحب المتبادل الواجب بين الزوجين واستحالت العشرة بينهما . أما إذا ارتكب أحدهما جريمة الزنى أثناء قيام العلاقة الزوجية فسوف يكون الموت مصيراً حتمياً لكل من يدنس هذه العلاقة المقدسة .

● والحكم باعدام الزانى والزانية كان مقرراً فى القوانين الوضعية التى كانت سائدة فى مصر طوال العصور التاريخية القديمة ، كما ورد أيضاً فى بعض القصص والحكايات الشعبية والحكم والنصائح التى قال بها حكماء مصر وفلاسفتها ، والتى عثر على الكثير منها مدوناً ببرديات يرجع تاريخها إلى عصور الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة والعصور المتأخرة من تاريخ مصر القديم .

● ومن أشهر القصص التى ورد بها هذا الحكم الحازم باعدام الزانى والزانية ، تلك القصة التى ورد نصها فى بردية «وستكار» والتى ترجمها عن اللغة المصرية القديمة عالم المصرية « أدولف إرمان» . . وهى قصة رواها الأمير «خفرع» لأبيه الملك «خوفو» [الأسرة الرابعة] .

● تقول القصة باختصار : إن الأحداث قد وقعت فى عهد الملك «نب كا» [من ملوك الأسرة الثالثة] حيث كان يعيش «وباونر» الذى كان يشغل وظيفة كبير الكهنة المرتلين ، وكانت له زوجة لعوب وقعت فى عشق شاب كانت تقابله فى خميلة بالحديقة الملحقة بالقصر الذى كانت تعيش فيه . وبعد أن تشبع الزوجة الخائنة وعشيقها من الشراب والطعام والمتعة الحرام ، كان العاشق يستحم فى البحيرة الملحقة بالحديقة ثم ينصرف .

● وحين شاهد البستانى وقائع تلك الخيانة أخبر الزوج المخدوع بما ترتكبه زوجته من فسق وفجور مع عشيقها . وعندئذ صنع الكاهن «وباونر» تمثالاً من الشمع على هيئة تمساح طوله سبعة أشبار ، وتلا عليه تعويذة سحرية طالباً منه أن يقبض على العاشق حين ينزل ليستحم فى البحيرة . . وأعطى التمثال الشمعى للبستانى وأمره بأن يضع هذا التمساح فى البحيرة حين يحضر العاشق الخائن .

● وبالفعل عندما نزل العاشق ليستحم فى البحيرة بعد لقائه مع الزوجة الخائنة ، تحول التمساح الشمعى إلى تمساح حى مخيف طوله سبعة أذرع ، وقبض على العاشق وغطس به فى أعماق البحيرة . . ثم طلب «وباونر» كبير الكهنة من الملك «نب كا» أن يذهب معه إلى بيته ليرى تلك الأعجوبة السحرية التى حدثت فى عهده .

● وعندما وصل الملك إلى الحديقة طلب الكاهن من التمساح أن يخرج من الماء ومعه العاشق الخائن المقبوض عليه ، فخاف الملك من هذا التمساح الضخم القابض على الخائن بين فكيه المفترسين . ولكن الكاهن تقدم وأمسك بالتمساح فتحول بين يديه إلى تمثال من الشمع . وعندئذ قص الكاهن على الملك قصة الزوجة الخائنة وما كانت تفعله مع عشيقها الخائن . فأمر الملك باعدام العشيق وبحرق الزوجة وإلقاء رمادها فى النهر .

● ومن هذه القصة التى كانت تعتبر من «الحواديت الشعبية» التى كانت سائدة فى مصر القديمة ، نعرف أن الإعدام كان عقوبة حتمية مقررة على كل من يرتكب جريمة الزنى ويدنس الحياة الزوجية بهذا الإثم البغيض .

جريمة الزنى .. كبيرة الكبائر

مهما كانت المجتمعات الإنسانية محكومة بعادات وتقاليد وأعراف وقوانين وضعية تنص على مجموعة من المبادىء والقواعد الأخلاقية التى تحدد السلوكيات السوية بين الأفراد وبعضهم ، أو بينهم وبين مجتمعهم الإنسانى ككل ، فإن النفس البشرية بطبيعتها أمارة بالسوء إلا لمن يلهمهم الله بالقدرة على مجاهدة هذه النفس فيلتزمون بالصراط المستقيم .

● ومنذ سكن الإنسان كوكب الأرض ، لم تنقطع سلسلة الجرائم الأخلاقية من كذب وسرقة وقتل وزنى ، ولم ينفرط عقد السلوكيات السيئة من حقد وحسد واعتداء على حقوق الآخرين ، واستهتار بالقيم الرفيعة والمثل العليا . . ولذلك فقد حرصت جميع المجتمعات الإنسانية منذ البداية على وضع عقوبات صارمة تنفذ على كل من يرتكب جريمة من تلك الجرائم . . وحتى إذا أفلت المجرمون من العقاب الدنيوى لأى سبب من الأسباب ، فإن العدالة السماوية تكون لهم بالمرصاد ولن يفلتوا من عقاب الله .

● والدارسون للحضارة المصرية القديمة يؤكدون بصفة قاطعة ـ ومن واقع النصوص التى تم العثور عليها ـ بأن فجر الضمير الإنسانى قد بزغ فى مصر أول ما بزغ . . وأن المجتمع القديم كان ملتزماً منذ البداية بقواعد أخلاقية صارمة تحدد العلاقات بين الأفراد ، وتلزم كل فرد بأن يكون طاهر النفس زكى القلب قويم السلوك ، لا يعتدى على حق من حقوق الآخرين أو حقوق المجتمع .

● وبالرغم من تقرير حق المساواة بين الرجل والمرأة فى مصر القديمة . . وبالرغم من أن المرأة فى كل أطوار حياتها كانت تختلط بالرجال دون حجاب ، إلا أن الأعراف والتقاليد الأخلاقية كانت تفرض على الرجال احترام المرأة وتوفير الأمان لها ، وعدم جرح حيائها بالقول أو بالفعل ، والمحافظة على شرفها وشرف ذويها من عائلتها وعائلة زوجها . . كما كانت تفرض على المرأة الالتزام بالاحتشام والسلوك الطيب والبعد عن الغواية والإغواء ، والمحافظة على عفتها وعلى بكارتها فى فترة ما قبل الزواج .

● ومن أطرف ما ورد مثبتاً لأهمية البكارة عند الزواج ، نص أثرى عثر عليه مكتوباً على جزء من بردية ، تحكى فيه زوجة شابة طرفاً من حياتها الزوجية حيث قالت : «قضى زوجى [نى نوفر كابتاح] معى يوماً سعيداً ، واستقبل جميع أفراد أسرتى باحترام ومودة . . وعندما نام بجوارى فى نفس الليلة ، وجدنى عذراء ففرح بذلك واطمأن قلبه ، وازدادت معرفته بى أكثر وأكثر لأن كلاً منا كان يحب الآخر » .

● ومن التعاليم التى كتبها حكماء مصر القديمة ، نصائح كثيرة تحذر من ارتكاب جريمة الزنى باعتبارها كبيرة الكبائر ، والتى يحكم باعدام من يرتكبها من الرجال أو النساء . . ونصائح أخرى تحذر من النظر بشهوة إلى بنات أو نساء الآخرين من الأقارب والجيران والغرباء .

● يقول الحكيم الشهير «بتاح حتب» : « إذا أردت أن تحافظ على الصداقة فى بيت تدخله ، فاحذر القرب من نساء هذا البيت أو النظر إليهن بغرض سيىء . . ومن الحكمة ألا تحشر نفسك معهن . . ومن أجل ذلك يذهب ألف رجل إلى الهلاك بسبب متعة قصيرة تضيع كالحلم . . ولا يجنى الانسان من هذه الجريمة إلا الموت . . وإذا افتتن الانسان بالأعضاء البراقة للنساء الغريبات ووقع فى الإثم ، فإن افتتانه سرعان ما يصبح بعد ذلك مثل حلم تافه . . والموت يأتى فى نهاية الأمر » .

● ويقول الحكيم « آنى » فى نصائحه الشهيرة محذراً من خطيئة الزنى : « خذ حذرك من المرأة الأجنبية ، تلك التى ليست معروفة فى بلدتها . . ولا تتبعها إذا غمزت لها بعينك أو غمزت لك بعينها . . فهى ماء عميق لا يعرف الرجال التواءاته وتياراته . .

والمرأة البعيدة عن زوجها تقول لك كل يوم إنى جميلة . . ولذلك عندما تكون بعيدة عن أعين الرقباء فانها تقف أمامك لتوقعك فى حبائلها . . فإذا حدث الزنى فإن ذلك يعتبر جرما عظيماً يستحق الاعدام عندما يرتكبه الانسان . . لأن من يرتكب تلك الخطيئة يسهل عليه بعد ذلك أن يرتكب كل ذنوب وآثام وخطايا الدنيا » .

محاكمة الزانى والزانية

يقول علماء ومؤرخو القانون إن مصر القديمة تعتبر أقدم دولة فى تاريخ الانسان وضعت نظاماً قضائياً يتولى الحكم فى المنازعات المدنية والتجارية ، وفى الجرائم التى يرتكبها الأفراد ضد بعضهم أو ضد نظام الدولة .

● ويقولون أيضا إن التنظيم القضائى المصرى القديم كان متدرجاً إلى ثلاث درجات من المحاكم . . فقد كانت هناك « محاكم صغيرة » فى القرى تتكون من قضاة محليين وتتولى الحكم فى المخالفات البسيطة . . وكانت هناك « محاكم مركزية » فى عواصم الأقاليم تتكون من قضاة حكوميين يعينهم الملك وتتولى النظر فى الجرائم الأكثر جسامة من تلك المخالفات البسيطة . . كما كانت هناك « المحكمة العليا » فى عاصمة الدولة وتنظر فى دعاوى المنازعات والجرائم الكبرى ، كما تنظر فى دعاوى استئناف الأحكام التى كانت تصدرها المحاكم المركزية بناء على طلب المتقاضين ، أو إذا كانت هذه الجرائم الكبرى قد وقعت فى العاصمة أو تهدد النظام الاجتماعى أو الأمن العام للدولة .

● وبالإضافة إلى ذلك فقد عرفت مصر القديمة أيضا نظام القضاء المتخصص حيث كان هناك قضاء عسكرى لمحاكمة العسكريين وحدهم . . وقضاء تجارى للبت فى المنازعات المدنية والتجارية التى قد تنشأ بين المصريين وبعضهم أو بينهم وبين الأجانب . . وقضاء متخصص فى الأحوال الشخصية للنظر فى المنازعات الأسرية والعائلية . . وقضاء كهنوتى متخصص فى النظر فى الأحوال الدينية .

● وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على أن الملك أو الفرعون هو الرئيس الأعلى للسلطة القضائية ، ثم يأتى بعده الوزير الأول للدولة ، ثم كبير الكهنة . كما كان للمجالس والتنظيمات المدنية والدينية الحق فى مباشرة الأعمال القضائية التى تقع فى اختصاصاتها . كذلك فقد منحت بعض اللجان التى تتكون خصيصا للنظر فى موضوع معين كما منح بعض ضباط الشرطة الحق فى ممارسة الأعمال القضائية فى حالات خاصة .

● ويهمنا هنا أن نورد ما ذكره مؤررخو القانون من كيفية محاكمة الزانى والزانية وأنواع العقوبات التى كانت مقررة على مرتكبى تلك الجريمة النكراء . . حيث أثبتت الوثائق الأثرية ان الحكم باعدام الزانى والزانية كان مطبقا كعقوبة فى عصر الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة . . ثم تم تخفيف هذا الحكم فى الفترة المتأخرة من التاريخ المصرى القديم ، وظل هذا التخفيف سارياً حتى قبيل ظهور المسيحية ودخولها إلى مصر . والمقصود بالتخفيف هنا هو الحكم بقطع أنف المرأة الزانية حتى تصبح عبرة لغيرها من النساء وحتى يتم تشويه وجهها وحرمانها من جمالها الذى كان سبباً فى الإغواء .

● أما الزانى فقد كان يحكم عليه بالإعدام . . ثم خفف هذا الحكم بالإكتفاء بجلده علناً «ألف» جلدة . وكان اعدام الزانى والزانية يتم عادة بالقائهما فى لنار حتى يتحولا إلى رماد يلقى فى النهر ، أو يتم بقتل الزوجة الزانية وإلقاء جثتها للكلاب .

● وقال المؤرخ القديم ديودور الصقلى الذى زار مصر خلال العصر اليونانى الرومانى إن الرجل الذى كان يغتصب امرأة دون رضاها باستعمال العنف كان يحكم عليه ببتر العضو التناسلى لحرمانه نهائيا من قدرة الحصول على اللذة الجنسية طوال حياته . كما أن هذه العقوبة كانت تطبق على الرجل فى حاله « شروعه » فى ارتكاب جريمة هتك العرض أو الاغتصاب . ويلزم فى هذه الحالة شهادة اثنين من الشهود بالاضافة إلى شكوى المجنى عليها .

● ويقول بعض مؤرخى القانون بناء على دراسة بعض الوثائق الأثرية إن عقوبة

«النفى » أو عقوبة الاشغال الشاقة فى الصحراء كانت تعتبر عقوبة تبعية بعد تنفيذ عقوبة قطع الأنف بالنسبة للمرأة وعقوبة الجلد بالنسبة للرجل .

● ومن الغريب أن المجتمع المصرى القديم قد وضع فى الاعتبار حالة الغضب الذى قد يؤدى إلى قيام الزوج بقتل زوجته إذا ضبطها فى حالة تلبسها بالزنى . . فقد أعفاه القانون من العقاب على أساس اعتبار أن القتل فى مثل هذه الحالة هو تنفيذ مشروع لعقوبة إعدام الزوجة الخائنة . . فقد راعى القانون أن الزوج فى مثل هذه الموقف تنتابه حالة من الغضب العارم والاحساس بجرح كرامته ورجولته فيفقد السيطرة على تصرفاته وينتقم فوراً لشرفه بقتل الزوجة أو بقتل شريكها أو بقتلهما معاً .

● هذا وينص قانون العقوبات الحديث المطبق حالياً فى مصر على معاقبة الزوج الذى يفاجىء زوجته فى حالة تلبسها بجريمة الزنى فيقتلها هى وشريكها بعقوبة «الحبس» بدلاً من عقوبة الاعدام أو الأشغال الشاقة المقررة لجريمة القتل .

القوامة على النساء .. بالمحبة والرضاء

من البديهيات المسلم بها أن طبيعة الرجل تختلف عن طبيعة المرأة ، وأن هذا الاختلاف ينعكس بالتالى على الدور الذى يؤديه كل منهما فى الحياة الاجتماعية والحياة البيتية على حد سواء .

● وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على أن المجتمع المصرى القديم كان يتميز دائما بطابع المساواة بين الرجل والمرأة من الناحية الاجتماعية بصفة عامة وفى مجال الأحوال الشخصية على وجه الخصوص . . وهناك آلاف من النقوش تصور المرأة كشريك للرجل فى الحياة العملية ، فهى تعمل معه فى الحقول وتباشر العمليات الزراعية من حرث وبذر وحصاد ، كما تباشر العمليات الصناعية كالغزل والنسج على الأنوال لصناعة الأقمشة وصباغتها وحياكتها ، أو العمل فى طحن الحبوب والعجن وصناعة الخبز والحلوى وصناعة الجعة وعصر الكروم ، كما ثبت أيضا أن المرأة كانت تشترك فى صناعة تجهيز السوائل والدهانات العطرية .

● وكانت معظم نساء الطبقات الشعبية والطبقة الوسطى يقمن بهذه الأعمال وأمثالها. وكانت أغلب هذه الأعمال تتم تحت إشراف الرجال وإدارتهم . أما نساء الطبقة العليا ـ خصوصاً النساء المتعلمات اللاتى يجدن القراءة والكتابة ـ فقد كان متاحاً لهن القيام ببعض الوظائف الدينية فى المعابد ، وبعض الوظائف الإدارية فى السلطات الإقليمية أو فى الحكومة المركزية للدولة . وكانت هذه الأعمال أيضاً تتم تحت إشراف الرجال .

● وإذا كانت طبيعة المرأة تفرض على النساء المتزوجات ممارسة الأمومة والاشراف

على تربية الأولاد فى البيت ، إلا أن ذلك كان يتم أيضا تحت إشراف الرجال بصفة عامة. وذلك باعتبار الرجل رباً للبيت وصاحب السلطة العليا فيه ، لأنه الطرف الأقوى والمسئول عن حماية أهل بيته من زوجة وأولاد وبنات . ويقول الحكيم «إيب ور» فى ذلك : « إذا كان الرجل يحارب من أجل زوجته وأخته وأمه وبناته فإنه يحمى نفسه ويحميهن من كل سوء » .

● والرجل مسئول أيضاً عن الوفاء بحقوق أمه خصوصاً إذا مات أبوه أو عجز عن الكسب . ويقول الحكيم « آنى » فى ذلك « ضاعف مقدار الخبز والطعام الذى تعطيه لوالدتك . . واحملها كما حملتك . . لقد كان عبؤها ثقيلا فى حملك . . وحينما ولدتك حملتك ثانية وأعطتك ثديها لترضع غذاءك . . ولم تشمئز من برازك ولم تكن متبرمة . . وحينما تصبح شاباً وتتخذ لنفسك زوجة تستقر فى بيتك ، فاجعل نصب عينك كيف وضعتك أمك وكيف ربتك . . وعامل زوجتك باعتبارها أم أولادك » .

● وكانت سلطة الأب على بناته نوعاً من الرعاية الواجبة ، بل وكانت هذه الرعاية تستمر إلى ما بعد الزواج . . فبالنظر إلى أن الزواج فى مصر القديمة كان يتم عادة فى سن مبكرة بالنسبة لكل من الرجل والمرأة ، فقد كان لزاماً على أسرة كل من الزوجين أن يقدما للزوجين الصغيرين « جراية » مستمرة من الخبز والجعة والأطعمة المطبوخة والملابس والاحتياجات الأخرى إلى أن يستقر الأمر بالنسبة للزوجين ويستطيعان التكسب من العمل بما يقيم أودهما ويكفل احتياجاتهما المعيشية . . وقد عثر على نص مكتوب يؤكد أن « الأب » تعهد بأن يمنح إبنته مجموعة من الأشياء كمساعدة منه لها فى تأسيس بيت الزوجية ، كما تعهد أيضا بأن يقدم لها كمية من الحبوب والحاصلات الزراعية لمدة سبعة أعوام تالية على عقد زواجها .

● أما قوامة الرجل على زوجته فقد كانت أمراً مفروضاً باعتبار الزوج رب البيت والمسئول الأول عن الوفاء بكل احتياجات الأسرة . ولكن هذه القوامة كانت على أساس من المحبة من جانب الزوج وبالرضاء من جانب الزوجة . وتأكيدًا لذلك يقول الحكيم «بتاح حتب » فى نصائحه : « إذا كنت رجلاً ناجحاً فأسس لنفسك بيتا واتخذ لنفسك

زوجة تكون سيدة لقلبك . . واحبب زوجتك فى البيت كما يجب . . أشبع جوفها واستر ظهرها . . إن علاج أعضائها هو الدهانات العطرية . . فاجعل قلبها فرحاً ما دمت حياً فهى حقل مثمر لسيدها » .

● ولكن لا يجب أن تكون هذه القوامة نوعاً من السيادة المتغطرسة حتى لا تحدث المتاعب فى البيت . ويقول الحكيم « آنى » فى ذلك : « لا تمثل دور الرئيس مع زوجتك فى بيتها . . ولا تقل لها أين الشىء . . أحضريه هنا إذا كانت قد وضعته فى مكانه المناسب . . واجعل عينك تلاحظها فى صمت حتى تعرف أعمالها الحسنة . . وستكون زوجتك سعيدة إذا عاونتها وساعدتها وكانت يدك معها . . وبذلك يتجنب الرجل تحريك الشجار فى بيته » .

مجموعة تماثيل أثرية تمثل مجموعة من النساء يقمن بأعمال غزل ونسج الكتان .

الطلاق .. وضمان حقوق المرأة

كان الزواج فى مصر القديمة منبعاً للسعادة الشخصية وسبباً هاماً من أسباب استقرار الحياة الاجتماعية بين جميع أفراد الشعب المصرى بكافة فئاته وطبقاته ومستوياته الاجتماعية .

● وكم حفلت النقوش الجدارية والتماثيل المنحوتة من الحجر بما يؤكد طبيعة الترابط الأسرى بين الزوجين ، وعلاقة الحب والمودة والتراحم بينهما وبين ما أنجباه من صبيان وبنات . . فهناك عشرات من النقوش تصور لنا مظاهر السعادة التى كان يتمتع بها الزوجان وأولادهما وهم يركبون القوارب الصغيرة ويمارسون صيد الأسماك والطيور فى رحلة ممتعة فى أحراش النيل وشطآنه الجميلة . . وهناك أيضا عشرات من التماثيل تسجل علاقة الحب والحنان بداخل الأسرة المصرية .

● وبالنسبة للطبقة العليا فى المجتمع المصرى القديم ، هناك مجموعة كبيرة من النقوش الجدارية تصور لنا بطريقة تقليدية الولائم والحفلات الموسيقية والغنائية التى كانت تقام فى بيوت علية القوم ويحضرها الأزواج مع زوجاتهم . . وهى حفلات باذخة بما كان يقدم فيها من طعام وشراب والتمتع بعبق البخور والروائح العطرية ، وبما كانت تقدمه الفرق الموسيقية من رقص وغناء .

● غير أن الحياة بطبيعتها لا يمكن أن تستمر على وتيرة واحدة ، وإذا كان من المفروض أن الزواج هو منبع المودة والرحمة والعلاقة الأسرية الطيبة ، فإن بعض الظروف قد تؤدى إلى نشوء المشاكل وأسباب الشقاق فيتحول الحب الواجب إلى كراهية مطلقة قد

تؤدى إلى استحالة استمرار الحياة الزوجية ، وإلى وقوع الانفصال والطلاق كنتيجة مؤسفة .

● وقد تنبه المجتمع المصرى القديم إلى احتمال حدوث المنازعات التى قد تؤدى إلى اضطراب الحياة الزوجية واستحالة استمرارها ، فنشأت مجموعة من العادات والتقاليد والقواعد العرفية تنظم أحوال الطلاق والانفصال بين الزوجين ، وتنظم حقوق الزوجة المطلقة ، سواء أكان الطلاق بناء على طلبها أو بناء على طلب الزوج .

● وقد تم العثور على بعض نصوص عقود الزواج التى تتضمن بنوداً تنص على كيفية توزيع الميراث فى حالة وفاة الزوج ، وكيفية تعويض الزوجة فى حالة الطلاق . وفى جميع الأحوال يكون من حق الزوجة أن تستعيد جميع الممتلكات والمفردات المنقولة التى تدخل ضمن جهاز العرس الذى أحضرته معها عند زواجها ، أو الذى ساهم به الزوج طبقا لما هو مدون فى « قائمة العفش » التى وقع عليها الزوج والشهود .

● وفى أحد عقود الزواج نقرأ نصاً يقول فيه الزوج : « لقد اتخذتك زوجة لى . . وأعطيتك [وذكرت هنا قائمة بالأموال والعطايا والهدايا التى قدمها هذا الزوج كمهر لزوجته] . . وإذا حدث مستقبلا أنى أرغب فى طلاقك ، إما لأننى أصبحت أكرهك، أو لأننى أرغب فى الزواج من امرأه أخرى غيرك ، عندئذ سأعطيك [وذكرت هنا أيضا قائمة طويلة بالهبات التى سيقدمها الزوج كتعويض للزوجة عند حدوث الطلاق] . . وسأعطيك أيضا «ثلث » ما سوف نكتسبه ونمتلكه معاً أثناء حياتنا الزوجية ، كما أن جميع الأولاد والبنات الذين ستنجبينهم لى سيكونون ورثة لكل ممتلكاتى التى أحوزها الآن وسأحوزها فى المستقبل . . سيكون ابنك البكرى هو إبنى البكرى » .

● وكان بعض الأباء يحرصون على ضمان حقوق بناتهم بنص مكتوب فى عقود زواجهن ، أو بالاصرار على أن يقوم زوج ابنته بِقَسَمٍ إلهى يقسم فيه على عدم الاضرار بالزوجة وعلى الحفاظ على كافة حقوقها ، وأن يكون هذا القسم مسجلاً بالكتابة وأمام شهود من الرسميين ومن الأصدقاء أو المعارف من الأهالى . وقد عثر على نص لمثل هذا

القسم يرجع تاريخه إلى عهد رمسيس الثالث [الأسرة العشرين من حوالى ١١٩٣ - ١١٦٢ ق م] يقول فيه الزوج أمام رئيس العمال بالقرية والكاتب الرسمى واثنين من الأهالى : « أقسم بالإله آمون وبحياة الملك بأننى لو فكرت فى نبذ أو إهانة زوجتى إبنة [وذكر اسم الأب] فسوف استحق أن أضرب مائة جلدة ، وسوف أفقد كل أموالى وكافة الأملاك التى سنكتسبها أنا وزوجتى خلال حياتنا الزوجية » .

القواعد العرفية لتنظيم أحوال الطلاق

كان الطلاق فى المجتمع المصرى القديم هو أبغض الحلول التى تنتهى إليها المشاكل أو المنازعات الزوجية . ولم يكن أحد الزوجين يطلب الطلاق وانهاء العلاقة الزوجية إلا لأسباب قوية قاهرة تجعل من المستحيل استمرار المعاشرة ، وذلك بسبب نظرة المجتمع إلى المرأة المطلقة بصفة عامة ، أو بسبب المسئوليات والتكاليف والأعباء الباهظة التى تقع على عاتق الزوج عند حدوث الطلاق .

● ويمكن أن نستشف من دراسة النصوص الأثرية القليلة التى عثر عليها بعض الأسباب التى أدت إلى وقوع الطلاق ، لعل أهمها عدم توافق الطباع والأمزجة الذى يؤدى دائما إلى كثرة الشجار والمنازعات فى بيت مفروض فيه الاستقرار ودوام المحبة والمودة بين الزوجين ، وكذلك إذا وقع الزوج فى غرام امرأة أخرى استهوته ورأى فيها «امرأة حياته » ـ وهذا التعبير ورد فى أحد النصوص القديمة ـ باعتبارها أفضل كثيراً من زوجته، وكان لا يمكنه الجمع بين زوجتين بسبب الأعراف السائدة التى كانت تمنع تعدد الزوجات .

● ومن الأسباب الهامة أيضا لحدوث الطلاق أن تكون الزوجة عاقراً لا تلد ، فيلجأ الزوج عندئذ إلى التخلص منها للبحث عن زوجة أخرى قادرة على الانجاب . . ولكن المجتمع المصرى القديم كان ينظر إلى تلك القضية نظرة انسانية تبدو فى تلك الحكمة الرائعة التى قال بها أحد الحكماء لنصح زوج المرأة العاقر : « إياك أن تطلق ربة بيتك

لأنها لم تلد لك أبناءً . . فلا ذنب لها فى ذلك » . وكان الحل الأمثل هو اللجوء إلى «التبنى » المسموح به قانوناً وعرفاً .

● وكان الطلاق إذا حدث يؤدى إلى مشاكل جديدة بالنسبة للمطلق وبالنسبة أيضا للمرأة المطلقة ، فالمجتمع كان يبيح للمطلقة أن تتزوج برجل آخر ، ولكنه زواج قد يؤدى إلى مشاكل جديدة لم تكن فى الحسبان ، خصوصاً بالنسبة لحضانة الأطفال الصغار، أو لحدوث مشاكل عاطفية أسوأها اشتعال نار الغيرة فى قلب الزوج الجديد أو الزوج القديم . لذلك فقد شاعت حكمة شعبية تحذر الرجل من الزواج بالمطلقات ، وتقول ما معناه : « احذر من الزواج بامرأة مطلقة مازال مطلقها على قيد الحياة ، فقد يصبح زوجها القديم عدواً لك ، ولن يسلم قلبك من التفكير فى أشياء خطيرة تقلق راحتك وتعكر صفوك » .

● أما بالنسبة للمطلق ـ خصوصاً إذا كان الطلاق بناءً على رغبته ـ ففى هذه الحالة سيتحمل أعباءً ثقيلة جدا ، عليه أن يوفى بها لمطلقته كتعويض لها ، كما أن عليه أن يقدم لها « نفقة » مناسبة تكفل احتياجاتها المعيشية لها ولأولادها منه .

● وإذا وقع الطلاق بناءً على رغبة الزوجة ، بشرط ألّا تكون مخطئة أو لم ترتكب سببا يجعل من المستحيل استمرار حياتها الزوجية ، ففى هذه الحالة يكون من حق هذه الزوجة أن تستعيد كل ممتلكاتها التى آلت إليها قبل زواجها وكل الممتلكات التى آلت إليها أثناء حياتها الزوجية .

● وفى حالة شك الزوج فى سلوك زوجته بناءً على وشاية أو خبر نقله إليه الآخرون ، ولم يكن فى استطاعته أن يثبت سوء سلوكها بدليل قاطع ، فإن عليه فى هذه الحالة أن يشكوها إلى المحكمة ، حيث يتم التحقيق مع الزوجة فى هذه الوشاية . وعندئذ يكون للزوجة الحق فى دفع هذه التهمة عن نفسها بأن تقسم قسماً إلهياً مقدساً تقول فيه لزوجها أمام هيئة المحكمة : « أقسم بالإله . . . إنى لم أرتبط بأى شخص ولا أقمت أية علاقة غير مشروعة مع أى شخص آخر منذ يوم زواجنا حتى الآن » . وبمجرد إعلان هذا القسم تسقط التهمة عن الزوجة حيث يترك أمرها للإله الذى أقسمت به والذى يعاقب

بالعمى كل من يقسم به زوراً أو بهتاناً . ولكن يكون للزوج الحق فى طلاقها بعد هذه الفضيحة التى تلحق بشرفه وكرامته . ويكون عليه فى هذه الحالة أن يعوّض زوجته بتعويض باهظ مناسب لمكانتها الاجتماعية ، بالاضافة إلى رد كل ممتلكاتها الأخرى .

● وإذا كانت الزوجة قد قدمت « دوطة » عند زواجها فيجب على الزوج أن يرد هذه الدوطة فى حالة حدوث الطلاق ، بالاضافة إلى تعويض مطلقته « بثلث » ممتلكاته . كما أن عليه أن يقدم كل ما وعد بتقديمه إلى زوجته إذا حدث الطلاق برغبته ، وذلك طبقا لما نص عليه عقد الزواج .

● وللمطلقة إذا كانت حاضنة لأطفال صغار أن تحتفظ بحق الإقامة فى بيت الزوجية حتى انتهاء فترة الحضانة ، مع حقها أيضاً فى الحصول على « نفقة » لها ولأطفالها . ولكن فى أغلب الأحوال كانت المطلقة تعود إلى العيش فى بيت أبيها أو عائلتها باعتباره البيت الذى تربت فيه والمسئول عن رعايتها فى مصيرها الذى آلت إليه بعد طلاقها .

الأبناء .. بين زوجة الأب أو زوج الأم

بعد أن يتم الطلاق بين الزوجين . . أو بعد وفاة الزوجة أو الزوج ، قد يتزوج المطلق أو الأرمل بامرأة أخرى تحل محل مطلقته أو محل زوجته المتوفاة . . كما قد تتزوج المطلقة أو الأرملة برجل آخر يحل محل مطلقها أو محل زوجها المتوفى . . فكيف كان موقف الأبناء من زوجة الأب . . أو موقفهم من زوج الأم . . وذلك طبقا للمعايير الاجتماعية والأعراف التى كانت سائدة فى المجتمع المصرى القديم . . ؟

● من طبيعة الأمور أن المشاعر الانسانية داخل الروابط العائلية لا تختلف كثيرا باختلاف الزمان ولا باختلاف المكان . ولذلك فيمكن تحديد المواقف المحتملة فى احتمالين واضحين :

● الاحتمال الأول : أن تكون « زوجة الأب » الجديدة رحيمة القلب بالنسبة لأبناء زوجها الذين أنجبهم من زوجته الأولى ، خصوصاً إذا كانوا أطفالاً صغاراً يحتاجون للرعاية والتنشئة السليمة ، فتعطف عليهم وتسهر على راحتهم وتلبى طلباتهم وتشرف على تربيتهم كما لو كانوا أبناءها ، وحتى إذا أنجبت من زوجها أبناء جدداً فهى لا تفرق فى المعاملة بين أبنائها وأبناء زوجها من زوجته الأولى . وفى هذه الحالة لايكون هناك مجال لظهور المشاكل العائلية وتسير الحياة سيرها المعتاد .

● والاحتمال الثانى : أن تكون « زوجة الأب » الجديدة قاسية القلب ، فتعامل الأبناء الصغار الذين أنجبهم زوجها من زوجته الأولى بلا رحمة ، وتقسو عليهم وتهملهم وتقلب عليهم مشاعر أبيهم ، وتشكوهم إليه بحق أو بغير حق ، وتعاقبهم

بسبب أو بلا سبب ، فتحل الكراهية المتبادلة بينها وبينهم ، وتضطرب الأحوال العائلية فى البيت وتحل المشاكل محل المحبة والوئام .

● هذا بالنسبة للأطفال والأبناء الصغار . . أما إذا كان لهذا الأب أبناء كبار بلغوا الرشد ، فإن الاحتمال الأكبر انهم سينظرون إلى زوجة أبيهم الجديدة نظرة غير ودية بسبب اختلاف المصالح ، فهم يدركون أن هذه الزوجة الجديدة ـ هى والأبناء الذين تنجبهم ـ سيشاركونهم فى الميراث ، بالاضافة إلى شعورهم بأن هذه الزوجة الجديدة أصبحت تشغل فى قلب أبيهم نفسَ المكان الذى كانت تشغله أمهم المطلقة أو المتوفاة .

● هذه الاحتمالات التى قد تكتنف الأحوال العائلية بالنسبة لزوجة الأب قد تحدث أيضا بصورة عكسية بالنسبة « لزوج الأم » الجديد الذى قد يتزوج امرأة مطلقة أو أرملة ذات أبناء من زوجها الأول . وقد ضربنا مثلا بتلك الاحتمالات لأنها حدثت على وجه التقريب فى المجتمع المصرى القديم . وقد أوردت العالمة الفرنسية كريستين نوبلكور ـ وهى ضالعة فى عالم المصريات ـ بعض النماذج لمثل هذه الأحوال من واقع ما تمت دراسته من البرديات المصرية القديمة .

● هناك بردية تحكى قصة حياة أحد ضباط الجيش المصرى يقول فيها إنه اضطر للهرب من بيت أبيه الذى تزوج بامرأة أخرى بعد وفاة والدته ، وذلك لأن هذه المرأة كانت تسيىء معاملته وتقلب مشاعر أبيه ضده .

● ومن بردية أخرى نعرف أن إحدى البنات واسمها « تحنوت » قد رفعت قضية أمام المحكمة ضد أبيها الذى تزوج ـ بعد وفاة أمها ـ بامرأة أخرى اسمها « سنب تيس » . وقام الأب بعمل وصية لزوجته الجديدة ولأولاده منها ، يوصى لهم فيها بأيلولة ما يمتلكه من أراض وعقارات كميراث عند وفاته ، وذلك بالرغم من أن بعض هذه الممتلكات قد آلت إليه كميراث من زوجته الأولى أم ابنته « تحنوت » .

● وهناك وثيقة أخرى دوّنها أحد كبار الكهنة واسمه « حقا نخت » وهى عبارة عن رسالة أرسلها هذا الكاهن إلى ابنه الأكبر واسمه « مرى سو » يطالبه فيها بضرورة احترام زوجة أبيه واسمها « إيوت محب » وذلك بعد أن تبين أن هذا الابن واخوته من الصبيان

والبنات كانوا يسيئون معاملة زوجة أبيهم ، بل وقد انضمت إليهم خادمة البيت واسمها « سمن » وأصبحت هى الأخرى لا تعامل سيدتها الجديدة بالاحترام الواجب . وخلاصة الرسالة ان هذا الأب قد أصدر أوامره بطرد هذه الخادمة من البيت ، وهدد أبناءه وبناته بانه سيوقع عليهم أشد عقاب ما لم يغيروا طريقة معاملة زوجته الجديدة ويحترمونها الاحترام الواجب باعتبارها زوجة لأبيهم ، خصوصاً وانها لم ترتكب شيئا يؤدى إلى تكتل أولاده ضدها ومعاملتها بهذه الطريقة السيئة .

نساء مصر القديمة .. وكيدهن العظيم

مثل كل النساء فى كل زمان وكل مكان ، كان بين نساء مصر القديمة نساء صالحات وأخريات طالحات . كانت هناك المرأة العفيفة الطيبة الوفية لزوجها والمحافظة على فرجها وشرفها والتى تتخذ من إيزيس رمزاً مقدساً للوفاء وللأمومة الصالحة ، كما كانت هناك أيضا المرأة الطالحة غير الوفية والتى يمتلىء قلبها بالخيانة والكيد العظيم ، والتى تدبر المؤامرات وتنسج أحابيل الغدر .

● وقد تنبه حكماء مصر القديمة فى مختلف العصور إلى أن الحياة لا تخلو من هذين النوعين من النساء ، فحذروا الرجل بمختلف المحاذير لكى يتدبر أمره عندما يختار زوجته ، وكتبوا الحكم والوصايا باختيار الزوجة من النساء الصالحات الطيبات حتى ولو كن على غير قدر كبير من الجمال والأنوثة . وقال الحكيم « كاجمنى » [من الدولة القديمة] فى ذلك : « المرأة الجميلة ليست دائماً طيبة ، ولكن المرأة الطيبة دائما جميلة » وقال : « مهما كانت الزهرة جميلة فقد تجد بها بعض الأشواك » وقال : « من يعشق الحية لا يسلم من سمومها » .

● وقال الحكيم « آنى » [من الدولة الحديثة] محذراً الرجال من الوقوع فى حبائل النساء الجميلات واختيار الزوجة بسبب جمالها وحده دون تبصر بأصلها والتأكد من حسن منبتها وجمال أخلاقها : « ليس لكل الزهور الجميلة رائحة زكية . . ومن يتزوج بامرأة لأجل جمالها وحده مثله كمثل من يشترى بيتا لجمال طلاء واجهته الخارجية دون أن يعلم بأن داخله غير مريح . . احذر فإن ابتسامة الأفعى تخفى أنيابها السامة » .

● ولحسن الحظ تم العثور على وثائق أثرية تحكى لنا بعض قصص الكيد والمؤامرات التى كانت تدبرها بعض النساء الطالحات سواء أكن من نساء الشعب أم من الملكات أو نساء البلاط الملكى . ونبدأ هنا بقصة عن كيد امرأة من نساء الشعب مالت إلى خيانة زوجها مع أخيه الأصغر . . وهى قصة معروفة فى الأدب المصرى القديم باسم «قصة الأخوين» . وهاكم ملخص لها باختصار شديد :

● فى إحدى القرى كان يعيش أخوان متحابان ، الأخ الأكبر متزوج واسمه « أنوب» والأخ الأصغر غير متزوج واسمه « باتا » ، وكان هذا الأخ الأصغر الساعد الأيمن لأخيه الكبير وكان يعتبره والداً له ويعتبر زوجته مثل أمه . وفى أحد الأيام بينما كان الأخوان يعملان فى حرث الأرض ، أمر الأخ الأكبر أخاه الصغير بأن يذهب إلى البيت لاحضار كيل من البذور يبذرانها بعد الحرث . واتجه الأخ الأصغر فوراً إلى البيت لتنفيذ أوامر أخيه . وعندما وصل إلى البيت كانت زوجة أخيه تمشط شعرها . . وانتهزت خلو البيت فنادت على « باتا » وراودته عن نفسه وقالت له : « تعال نقضى معاً ساعة حب » . . اندهش « باتا» من هذه الغواية المفاجئة . ولكن لحسن خلقه لم يؤنب زوجة أخيه على هذا السلوك الشائن بل عاملها بالحسنى وقال لها إنه يعتبرها مثل أمه ويعتبر أخاه الأكبر أباً له . ولهذا السبب فلن يخبر أخاه بشىء وسيحتفظ بهذا السر لنفسه ولن يبوح به لأحد . . وأن عليها أن تكفر عن تلك السيئة وترعى حدود الآلهة .

● ولكن عندما عاد الأخ الأكبر إلى البيت وجد زوجته تبكى وتتألم ، وقالت له بكل مقدرتها على الكيد كذباً وافتراء إن أخاه عندما وجدها وحيدة بالبيت راودها عن نفسها ، فعنفته قائله له إنها مثل أمه وعليه أن يحفظ شرف أخيه ، ولكنه لم يسمع كلامها فهجم عليها وضربها وحاول اغتصابها بالقوة ولكنها قاومته وطردته .

● وعلى الفور قرر الأخ الأكبر أن يقتل أخاه عندما يعود إلى البيت ، وأخذ سلاحه واختبأ خلف باب الحظيرة . وقبيل مغيب الشمس جمع الأخ الأصغر المواشى والأبقار من الحقل واتجه نحو البيت. وعندما اقترب من باب الحظيرة حدثت معجزة ، فقد تراجعت إحدى الأبقار وقالت «لباتا» إن أخاه الأكبر يضمر له شراً وينوى قتله وعليه أن يفر بحياته من هذا الشر المنتظر .

● وهكذا أخذ الأخ الأصغر يجرى بأقصى سرعة ، وانطلق أخوه الأكبر وراءه حاملاً سلاحه . ولكن الإله خلق بين الأخوين بحيرة مليئة بالتماسيح المتوحشة فحالت بين الأخوين . . وعندئذ شرح الأخ الأصغر لأخيه حقيقة ما ارتكبته زوجته من غواية ، وانها هى التى راودته عن نفسه ولكنه رفض إكراماً لأخيه ومحافظة على شرفه . . وبسبب حدوث هذا الشر فلن يعود إلى البيت لأن الحياة لن تعود صافية مثلما كانت . . ورحل الأخ الأصغر إلى وادى الأرز [لبنان] وعاد الأخ الأكبر إلى البيت نادماً وقتل تلك الزوجة الخائنة التى فرقت بينه وبين أخيه .

● ونكتفى بهذا القدر الملخص من تلك القصة . وعلى من يريد قراءة أصلها الكامل ، فعليه الرجوع إلى الجزء الأول من كتاب « الأدب المصرى القديم » للدكتور سليم حسن .

● ويقول مؤرخو الأدب العالمى إن هذه القصة القديمة ذاعت حوادثها وما تضمنته من هدف أخلاقى فى مختلف المجتمعات الانسانية شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً قديماً وحديثاً ، ونسجت على منوالها قصص أدبية مماثلة فى كل من فرنسا وإيطاليا وألمانيا والنمسا والمجر وروسيا والبلاد السلافية ورومانيا واليونان وآسيا الصغرى والحبشة والهند .

كيد النساء .. فى بلاط الملوك

كان من المتعارف عليه فى مصر القديمة أن أبناء الطبقات الشعبية لا يتزوجون إلا بزوجة واحدة ، ولا يستطيعون الزواج بامرأة أخرى إلا إذا طلقوا الزوجة الأولى ، أو فى حالة وفاة هذه الزوجة ، ذلك لأن تعدد الزوجات بالنسبة للطبقات الشعبية كان من الأمور غير المباحة . وكان الحال على العكس من ذلك بالنسبة لطبقة النبلاء وكبار رجال الدولة ، حيث كان مباحاً لهم حق الزواج بأكثر من امرأة أو بحق امتلاك المحظيات . وفى جميع الأحوال كانت الزوجة الأولى لهم هى « الزوجة الرئيسية » والتى تحمل دائما لقب « نبت بر » أى « ست الدار » .

● وبالنسبة للملك الجالس على العرش كان الأمر مختلفاً إلى حد كبير ، فقد كان الملك مقيداً فى الغالب بالزواج من داخل الأسرة الملكية حتى يضمن حقه فى اعتلاء العرش ، وكانت زوجته الأولى تعتبر « الزوجة الملكية العظمى » . وكان للملك أيضا حق الزواج بزوجات ثانويات كان يطلق عليهن لقب « حمت نسو » أى زوجة الملك . ولكن هؤلاء الزوجات الثانويات لم يحملن مطلقا لقب « الزوجة الملكية العظمى » الذى كان قاصراً على الزوجة الأولى للملك والتى كان لأبنائها حق اعتلاء العرش بالوراثة بعد وفاة الملك .

● وهناك شواهد تاريخية كثيرة نعرف منها أن ملوكاً كثيرين قد تزوجوا بنساء من خارج نطاق أسراتهم الملكية مع وجود « الزوجة الملكية العظمى » وهى الزوجة الأولى التى تتمتع بحق رئاسة شئون البيت الملكى ، والتى كانت لها القدرة فى بعض الأحيان

فى الاشتراك المباشر مع الملك فى إدارة شئون الدولة الداخلية والخارجية . أما الزوجات الملكيات الثانويات فلم يكن لهن مثل هذا الحق .

● وتدل الشواهد التاريخية أيضا على وجود عدة أسباب لقيام الملك بالزواج من تلك الزوجات الملكيات الثانويات ، منها أن يكون الملك بطبعه ميالاً للنساء ، ومنها فى كثير من الأحيان أن يتم الزواج لأسباب سياسية ، كأن يتزوج الملك من بعض بنات حكام الأقاليم فى الوجه البحرى أو الوجه القبلى ، أو يتزوج ببعض بنات ملوك الدول الأجنبية كنوع من تطبيع وتدعيم العلاقات مع تلك الدول .

● كذلك فقد كان للملك الحق فى الاحتفاظ بمحظيات عديدات ، سواء أكن من المصريات أو من جنسيات أجنبية مختلفة . وكانت المحظيات يعشن عادة داخل الجناح الخاص بالحريم والملحق بالقصر الملكى .

● فى مثل هذا الجو الحريمى الخاص ، الذى يجمع بين كل هذه الأنواع من النساء اللاتى لهن علاقة مباشرة بالملك وإن اختلفت درجاتها ، سواء أكن من « الزوجات الملكيات الرئيسيات » أو من « الزوجات الملكيات الثانويات » أو من « المحظيات » يمكن أن تنشأ المناورات والمؤامرات النسائية التى تدبرها النساء ضد بعضهن على سبيل المنافسة فى الحصول على حظوة خاصة لدى الملك ، أو بقصد تفضيل ما ينجبنه من أولاد وبنات على أولاد وبنات الأخريات . غير أن أخطر المؤامرات التى كانت تحاك فى الحريم الملكى هى المؤامرات التى تهدف إلى الإطاحة بالملك ولو بقتله ، حتى يجلس على عرش البلاد إبن لإحدى الزوجات الملكيات الثانويات بدلاً من الوريث الشرعى للعرش الذى يكون فى العادة الإبن البكر « للزوجة الملكية العظمى » .

● ونادرة هى الأخبار التى سجلتها الآثار عن حدوث المؤامرات التى كانت تحاك داخل الحريم الملكى ، وذلك أمر طبيعى حيث كان من غير اللائق نشر أسرار القصر الملكى على الشعب ، وهى أسرار لا يجب أن يعرفها إلا أقرب الأقربين للملك والذين يحوزون ثقته ويحفظون أسراره .

● وقد وصلت إلينا وثيقة أثرية تحكى جانبا من إحدى هذه المؤامرات التى حدثت

داخل القصر الملكى فى عهد « الملك بيبى الأول » [من ملوك الأسرة السادسة التى حكمت مصر من عام ٢٤٦٠ إلى عام ٢٢٠٠ ق م] . ومن الغريب أن بطلة تلك المؤامرة كانت « الزوجة الملكية الرئيسية العظمى » ولم تكن من الزوجات الملكيات الثانويات أو من المحظيات .

● وللأسف فإننا لم نعرف تفاصيل تلك المؤامرة التى دبرتها الملكة ، بل ولا يدل على وجود تلك المؤامرة سوى نص تركه أحد كبار رجال الدولة واسمه « آونى » كان الملك بيبى الأول يثق فيه ثقة كبيرة ، فعينه « قاضياً فوق العادة » وأطلعه الملك على أسراره الخاصة وبما فعلته الملكة ، وطلب منه « وحده » ـ دون أى شريك آخر ـ أن يقوم بالتحقيق ومحاكمة الملكة والاستماع إلى الشهود وتقدير شهاداتهم . ومن الغريب أن هذا النص لم يشر إطلاقاً إلى اسم هذه الملكة ، ولم يشر إلى الحكم الذى صدر ضدها . وأغلب الظن انه كان حكماً بالنفى أو بارغامها على الانتحار وقتل نفسها بنفسها .

رأس تمثال للملك « بيبى الأول »

مسلسل قتل الأزواج .. ولو كانوا ملوكا

نقرأ بين حين وآخر فى صحفنا الحديثة أخباراً عن تلك الجريمة الشنعاء حين تقوم إحدى الزوجات بقتل زوجها ، سواء بقيامها بنفسها بدور القاتلة ، أم بتحريض آخرين على القتل والاشتراك فيه . . وأغلب حوادث القتل هذه ترجع لأسباب شخصية محددة ، كسوء معاملة الزوج لزوجته ، أو لبخله ، أو لانحراف الزوجة فى علاقة آثمة مع عشيق ورغبتها الشريرة فى إخلاء الجو .

● وحتى الآن لم يعثر فى الآثار المصرية على أى دليل لقيام نساء الشعب المصرى القديم بارتكاب مثل هذه الجريمة فى حق أزواجهن ، وذلك فيما عدا تلك الوثائق الأثرية القليلة التى يفهم منها أن المؤامرات التى كانت تدبرها نساء الحريم الملكى بكيدهن العظيم كانت نادرة الحدوث فى عصر الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة . . ومن هذه الوثائق وما تضمنته من معلومات واشارات قليلة ، استطعنا معرفة بعض أسرار مؤامرة أو أكثر من تلك المؤامرات التى دبرتها نساء القصور الملكية ضد الملوك أنفسهم . . ولوحظ أن دوافع تدبير تلك المؤامرات كانت سياسية محضة ، ولم تكن هناك أية شبهة لوجود دوافع أخلاقية أو عاطفية .

● وكان من المفترض أن الغالبية العظمى من الزوجات الملكيات الثانويات والمحظيات ممن يعشن داخل القصور الملكية كن على صلة بأشخاص آخرين ممن يعيشون داخل تلك القصور أو خارجها ، سواء أكانوا من أقاربهن أو من الموظفين الذين يتولون إدارة أعمالهن ، أو من الخدم الذين يعملون فى خدمتهن . ولذلك فقد

كانت الفرص متاحة إلى حد ما لمن تريد التآمر ضد الملك ، أو للتحريض على إثارة الشغب أو القلاقل الشعبية خارج القصر الملكى .

● وكان السبب الرئيسى الدافع لتدبير مثل هذه المؤامرات ، هو رغبة إحدى نساء القصر الملكى فى أن يتولى إبن لها من الملك عرش البلاد بدلاً من الوريث الشرعى للعرش ، وهو الابن الأكبر للملك من « زوجته الملكية الرئيسية » . وهذا بالضبط هو ما حدث فى المؤامرة التى دبرتها إحدى الزوجات الملكيات الثانويات ضد الملك «أمنمحعت الأول » وهو من ملوك الدولة الوسطى ومؤسس الأسرة الثانية عشرة التى حكمت مصر من عام ١٩٩١ إلى عام ١٧٨٥ ق م .

● وقد استطاع المؤرخون التوصل إلى معرفة تفاصيل هذه المؤامرة استناداً إلى مصدرين أساسيين من الأعمال الأدبية المصرية القديمة التى يرجع تاريخها إلى عصر الدولة الوسطى . . والمصدر الأول هو نص أدبى كان عنوانه « تعاليم ونصائح الملك امنمحعت الأول لابنه الملك سنوسرت الأول » . . والمصدر الثانى هو النص الأدبى لقصة « سنوحى » وهى قصة شهيرة فى الأدب الصرى القديم . ونقدم فيما يلى مختصراً لوقائع تلك المؤامرة .

● فى يوم يوافق يوم ١٥ فبراير سنة ١٩٦٢ قبل الميلاد ـ وهو تاريخ محدد بالضبط توصل إليه العلماء بعد دراسات تطبيقية رياضية وفلكية ـ تم اغتيال الملك امنمحعت الأول بينما كان نائماً فى غرفة نومه . وطبقا لنص التعاليم المشار إليها ندرك على الفور أن هذه التعاليم كتبها أحد الأدباء الحكماء المصريين بعد مقتل الملك ، وجعل الملك القتيل يحكى بلسانه وقائع عملية الغدر التى انتهت بقتله ، والتى دبرتها زوجة ثانوية لكى تضمن وراثة العرش لابنها من الملك ، بدلاً من الوريث الشرعى الذى تولى العرش فعلاً بعد مقتل أبيه باسم « سنوسرت الأول » .

● وفى هذه التعاليم يحذر الملك القتيل إبنه من كل الموجودين بالقصر من نساء ورجال ، ويحكى له كيف هجم عليه حراسه الخصوصيون ومعهم أسلحتهم الباترة فاغتالوه غدراً أثناء نومه ، بالرغم من أن الملك حاول الدفاع عن نفسه ولكن ـ كما جاء

فى نص التعاليم ـ « إن الانسان لا يستطيع أن يكون قوياً أثناء الليل ، ولا يستطيع أن يقاتل مهاجميه الغادرين وحده » .

● ويشير الملك امنمحعت فى تعاليمه إلى أن المؤامرة كانت بتدبير إحدى نساء القصر حيث يقول فى أسى : « هل رأى أحد من قبل امرأة تقوم بتكوين العصابات . . وهل يتصور أحد أن المحرضين على القتل كانوا من ضمن الذين يعيشون فى كنفى ؟ » .

● أما قصة « سنوحى » فتشير أيضا إلى بعض تفاصيل هذه المؤامرة التى انتهت بقتل الملك حتى يتولى العرش إبن للملك من زوجة ثانوية بدلاً من الوريث الشرعى للعرش ، وهو الملك « سنوسرت الأول » .

مؤامرة حريم .. ضد ملك عظيم

« ابتهجى يا بلادى حتى عنان السماء . . فأنا الذى أوجدتنى الآلهة لأكون ملكاً على مصر . . لأقويها وأصد عنها أعداءها من أهالى السهول والممالك الجبلية وشعوب البحر» . . هذا النص منقوش على أحد جدران منشآت « مدينة هابو » بغرب الأقصر بأمر من الملك رمسيس الثالث ، وهو من ملوك الأسرة العشرين وحكم مصر فى الفترة من عام ١٢٠٠ إلى عام ١١٦٨ قبل الميلاد .

● وقبيل أن يعتلى رمسيس الثالث عرش البلاد ، أصبحت مصر مطمعاً لجميع الشعوب التى كانت تحيط بها من الشرق والغرب ومن الجنوب والشمال . وقامت بين هذه الشعوب تحالفات سياسية وعسكرية واتفاقات على النزوح إلى الديار المصرية والاستيطان فى أراضيها . ولذلك فقد كانت كل الهجمات التى قامت بها تلك الشعوب تتكون من الجنود المسلحين بأحدث الأسلحة التى كانت معروفة فى ذلك العصر ، ومعهم عائلاتهم وأسرهم ومجموعات غفيرة من عائلات وقبائل بأكملها وبمن كان فيها من نساء وأطفال صغار .

● وتدل الشواهد الأثرية والتاريخية على أن تلك الشعوب كانت من النوبيين بجنوب مصر ، ومن الليبيين بغربها ، ومن « البلست » وهم الفلسطينيين والشعوب الأخرى التى كانت تعيش فى المناطق السورية وآسيا الصغرى ، ومن شعوب جزر بحر إيجه ، ومن « الشكلش » وهم أهالى جزيرة صقلية [لاحظ تقارب الاسم المصرى بنطق اسم هذه الجزيرة] ، ومن شعوب « الشردانا » وهم أهالى سردينيا [لاحظ التقارب بين الاسمين] . وكانت الخطط التى وضعتها هذه التحالفات بين تلك الشعوب هى الهجوم على الأراضى المصرية براً وبحراً باستعمال السفن الحربية .

● وما أن اعتلى رمسيس الثالث عرش مصر حتى بذل جهداً جباراً فى إعادة تكوين وتسليح الجيش المصرى حتى أصبح يضاهى جيش مصر فى عهد رمسيس الثانى ، كما أنشأ أسطولاً حربياً عظيماً أطلق عليه اسم « اللهب » للتعبير عن مدى قوة هذا الاسطول وقدرته الحربية ، ثم تصدى لهجمات تلك الشعوب فدحرها جميعها ، وسحق وأباد جيوش الأعداء التى جاءت من طريق البر ، ودمر سفن الأعداء فى موقعة بحرية مرسومة على جدران مدينة هابو ، مع تقرير عن عدد أيدى الأعداء التى أمر الملك بقطعها وأعداد الأسرى الذين كبلهم بالحبال مذمومين مدحورين ، وأعداد الغنائم الحربية التى استولى عليها الجيش المصرى بعد انتصاراته المبهرة .

● وفى نقوش مدينة هابو أيضا نشاهد مناظر الرفاهية والحياة الناعمة الرغدة التى عاشها الملك فى قصره بعد انتصاراته واطمئنانه إلى قطع دابر جميع الأعداء الذى كانوا يهددون بلده . . ونرى الملك جالساً وسط حريمه الذى كان يتكون من أجمل الحسناوات من المصريات والأجنبيات وهن يعزفن الموسيقى وينشدن الأغانى ويقدمن إليه الزهور والمشروبات .

● وبطريق المصادفة تم العثور ضمن آثار المكتبة التى كانت ملحقة بمعبد مدينة هابو على ملف من البردى يتضمن جميع التفاصيل لمؤامرة دبرتها بعض نساء الحريم للتخلص من الملك وقتله . . وهى مؤامرة كانت واسعة النطاق اشترك فيها مع تلك النسوة مجموعة من الكهنة وضباط الحرس الملكى وكبار موظفى القصر وخدم الملك . . وقد وضع هؤلاء خطة لاثارة القلاقل والاضطرابات الشعبية ضد الملك ، واستعمال السحر لإيقاع الأذى بالملك وبرجاله المخلصين داخل القصر ، كما وضعوا خطة لقتل الملك واعطاء العرش لأحد أبناء الملك واسمه « بنتاور » من زوجة للملك اسمها «تى» .

● ومن واقع نصوص هذا الملف نعرف أن هذه المؤامرة قد اكتشفت أثناء محاولة تنفيذها . . وأن الملك قد أصدر مرسوماً بتكوين محكمة خاصة لمحاكمة جميع المشتركين فى تلك المؤامرة و إدانة الضالعين فيها وتبرئة من تثبت براءته .

● ويتبين لنا من واقع النصوص أن جميع المتهمين فى تلك المؤامره أطلقت عليهم مجموعة من الاسماء والأوصاف لتحقيرهم . كما تدل النصوص أيضا على فضيحة قضائية حيث تسلل الفساد إلى بعض أعضاء هيئة المحكمة ، فقد تم ضبط خمسة من القضاة [وكانوا ثلاثة مستشارين واثنين من ضباط الشرطة] كانوا حاضرين فى حفلة ماجنة اشتركت فيها بعض السيدات المتهمات فى المؤامرة وزوجات بعض الرجال المتهمين . وقد اعتقلوا جميعاً وحوكموا .

● وفى النهاية صدر حكم الإعدام على كثيرين ممن اشتركوا فى تلك المؤامرة ، كما حكم على الأمير « بنتاور » بأن يقتل نفسه بنفسه . أما القضاة الخمسة فقد صدر الحكم ببراءة أحدهم ، وحكم على واحد منهم بأن ينتحر بالطريقة التى يراها ، وحكم على الثلاثة الآخرين بجدع أنوفهم وقطع آذانهم حتى يحملوا وصمة العار والخيانة طوال حياتهم . أما الزوجة الملكية « تى » التى كانت أس المؤامرة فلم يرد لها ذكر فى المحاكمة ، ومن المحتمل أن الملك تولى أمرها بنفسه .

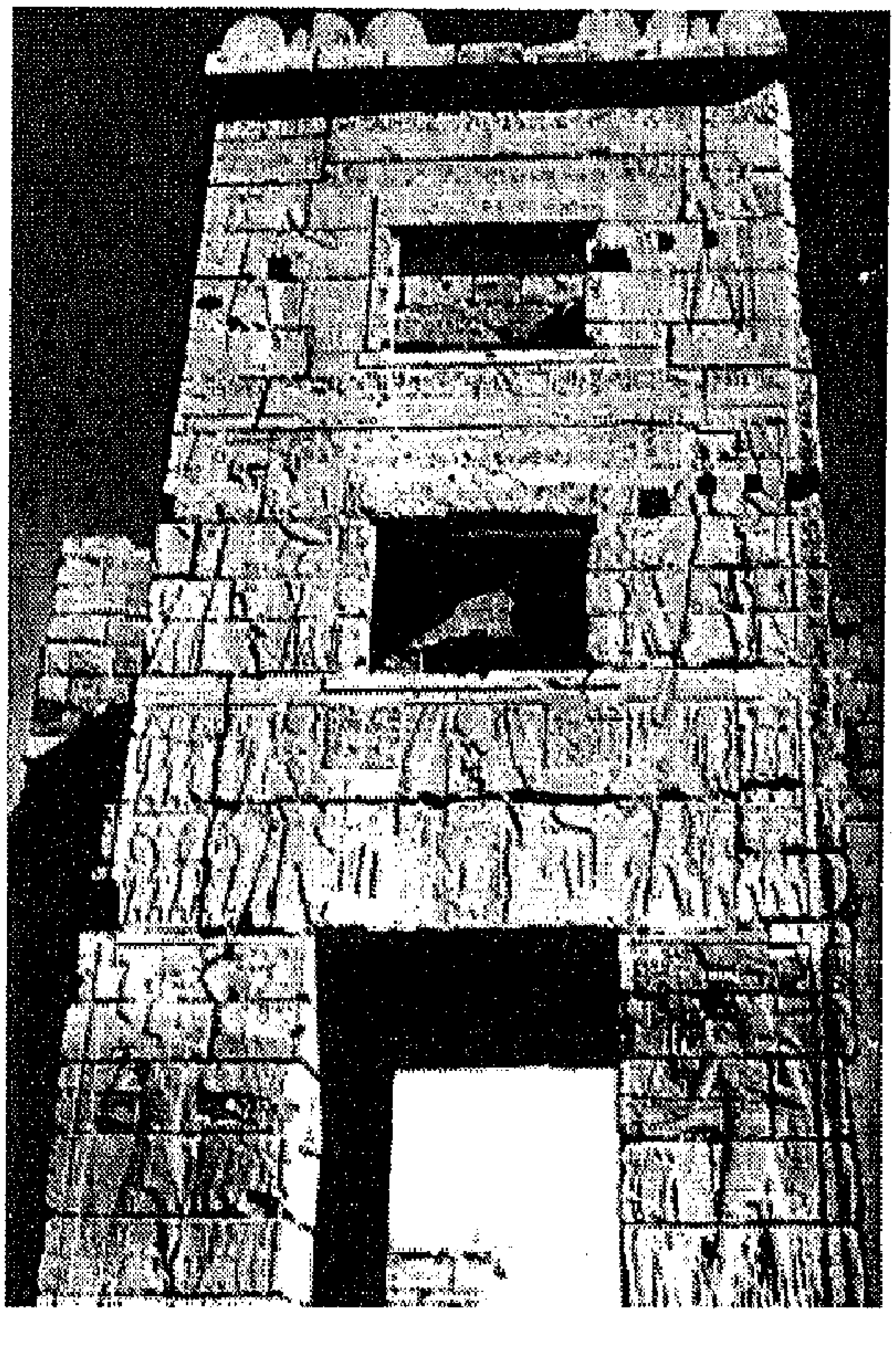

مدخل قصر الملك « رمسيس الثالث » بمدينة هابو
ومن المحتمل أن المؤامرة كانت بداخل هذا القصر

المرأة المصرية القديمة .. وفنون الماكياج

ما من شعب من شعوب العالم القديم كان مولعاً بالنظافة والتجميل مثل المصريين القدماء . . لقد اندهش المؤرخون القدماء من الإغريق والرومان الذين زاروا مصر فى أواخر تاريخها الفرعونى ، وحين كانت شمس الحضارة المصرية القديمة العريقة تميل نحو الغروب ، عندما سجلوا فيما تركوه لنا من كتب ومذكرات ، ذلك الحرص المبالغ فيه على اصرار المصريين على الاستحمام مرتين كل يوم .

● قال هيرودوت مثلا : إن المرأة المصرية تحرص على الاستحمام بمجرد أن تقوم من النوم كل صباح وقبل أن تباشر عملها سواء بداخل البيت أو خارجه . . كما قال ديودور الصقلى : إن المصريين عندما يستحمون . . يحرصون على غسل كل أعضاء الجسم عضواً عضواً وبعناية فائقة ، ويحرصون على دهن أجسامهم بعد الاستحمام بأنواع مختلفة من الزيوت والدهون العطرية ذات الروائح الزكية .

● وإذا تأملنا فى أى أثر ، يتضمن صورة المرأة ، من الآثار التى تركها لنا المصريون القدماء منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى نهاية العصور الفرعونية ، سواء أكان هذا الأثر تمثالاً منحوتا لها أو نقشاً مرسوماً على الجدران أو على صفحات البردى ، لوجدناها امرأة جميلة المحيا تهتم بمظهرها وتبرز مواطن جمالها وملامح وجهها دون إسفاف أو بهرجة ، وإنما بوقار يتناسب مع فكرة الجمال بكل ما تمثله من مشاعر راقية وذوق سليم .

● ومنذ عصور ما قبل التاريخ ابتكرت المرأة المصرية مجموعة من الوسائل التى تساعدها على إبراز جمالها . فقد اكتشفت أهمية تلوين العيون ومحاجرها باللون الأسود

أو الأخضر ، وتلوين الخدود والشفاة باللون الأحمر ، واستخدام بودرة التلك لتفتيح لون البشرة وزيادة ملمسها نعومة ورقة بالاضافة إلى دهان الوجه والصدر والذراعين بالدهون العطرية ، وتسريح الشعر وتصفيفه بأشكال جميلة مختلفة .

● وقد تم العثور على آلاف من القطع الأثرية التى يرجع زمانها إلى مختلف حقب التاريخ المصرى القديم ، والتى كانت تستخدم فى عمل وتجهيز المواد والأدوات اللازمة لزينة المرأة . . فهناك مجموعة كبيرة من الصناديق والأوانى الأثرية التى كانت تستعمل لحفظ العطور والدهانات العطرية . وكانت هذه الأوانى تصنع من الخشب الثمين أو من المرمر أو من العاج أو من الخزف والزجاج الملون . وكانت تصنع بأشكال وتكوينات فنية متعددة لإبراز جمالها من ناحية وإبراز أهمية ما كانت تحتويه هذه الأوانى من مواد ثمينة .

● كما عثر أيضا على مئات من « المصاحن » التى كانت تستخدم فى طحن المواد الملونة التى تستعمل فى التزيين والتجميل ، مثل مادة « الملاخيت » المائلة للخضرة أو الزرقة ، ومادة « المغرة » الحمراء أو الصفراء ، ومادة حجر التلك الشديدة البياض ، ومادة «الجاليت » المستخرجة من خام الرصاص وذات اللون الرمادى . وغير ذلك من المواد الأخرى التى كانت تستخدم كمواد أولية لتحضير الألوان المختلفة اللازمة لعمل الماكياج ، الأمر الذى يؤكد أن المرأة المصرية القديمة لم تترك مادة طبيعية من النبات أو الجماد يمكن أن تستخرج منها الألوان التى تستخدم فى الزينة ، إلا ووجدت الطريقة المناسبة لاستخراج وتحضير تلك الألوان واستخدامها الاستخدام المناسب . وعلى سبيل المثال فقد استخرجت من قشر الرمان اللون الأحمر الوردى ، ومن نبات القرطم اللون الأصفر الزاهى ، واستخدمت اللونين فى صباغة الشعر ثم فى صباغة الخيوط المستخدمة من صنع الأقمشة .

● كذلك فقد تم العثور على أقدم أمشاط الشعر فى تاريخ العالم . وكانت هذه الأمشاط مصنوعة من العظام أو من العاج أو من خشب الأبنوس وذات أسنان طويلة ولها أياد على شكل تكوينات جميلة من الحيوانات أو الزهور . وعثر كذلك على أقدم

دبابيس كانت تستعمل فى تجميع الشعر المسدل أو المضفر ، أو فى تثبيت الباروكات التى كانت شائعة الاستعمال كشعر مستعار . وكانت هذه الدبابيس مصنوعة من البرونز أو من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة وشبه الكريمة .

● وهناك مئات من النقوش تبين لنا نساء الطبقة العليا من المجتمع وهن جالسات تحيط بهن الوصيفات والخادمات المنهمكات فى تزيينهن بالمساحيق والعطور وتصفيف شعورهن بأجمل طرق التسريحات المبتكرة .

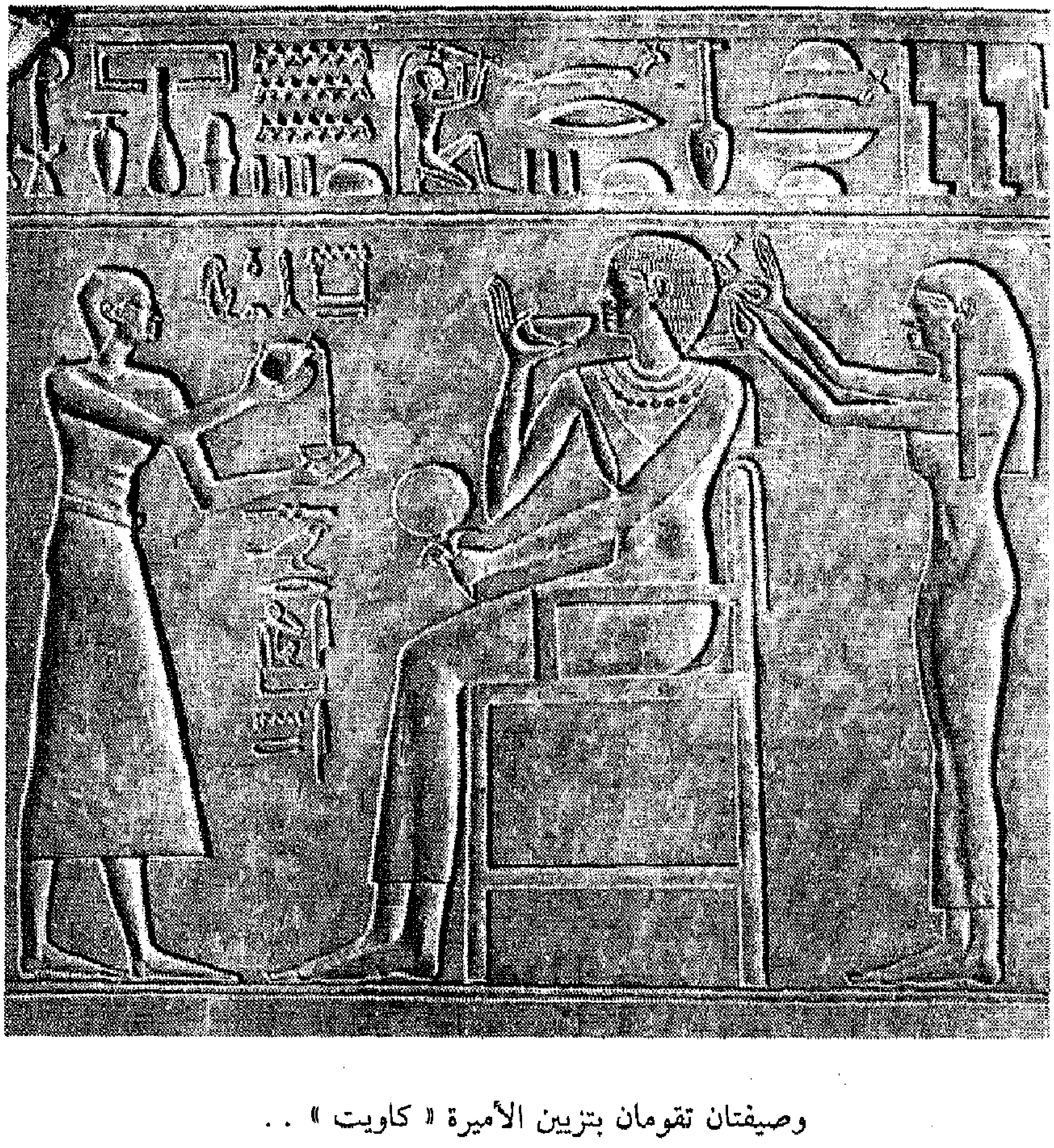

وصيفتان تقومان بتزيين الأميرة « كاويت » ..
وهى من أميرات الدولة الوسطى

المرأة المصرية القديمة ..
صاحبة أول مرآة فى العالم

فى حوالى عام ٢١٥٠ قبل الميلاد قام المصريون القدماء بأول ثورة شعبية فى تاريخ العالم . . وكانت ثورة اجتماعية فى المقام الأول ، حيث هجم الفقراء على قصور الملوك والنبلاء والأغنياء واستولوا على كل ممتلكاتهم ومقتنياتهم وشاعت القلاقل والاضطرابات وانتشرت الجرائم وانهار الأمن العام ، وحدث أول انقلاب طبقى فأصبح الأغنياء والنبلاء من الرجال والنساء يهيمون فى الطرقات يتسولون الطعام ، بينما أصبح الفقراء من الأغنياء المترفين . وجاءت جملة فى أحد النصوص الأثرية التى وصفت تلك الثورة تقول : « . . ومن كانت ترى وجهها فى الماء أصبحت صاحبة مرآة » .

● ومن مفهوم هذا النص ندرك ان المرأة المصرية القديمة كانت تستعمل المرايا للتأكد من اكتمال زينتها . وتدل شواهد أثرية كثيرة على استعمال المرايا فى عصور سابقة على هذا التاريخ . وفى المتحف المصرى مرايا كثيرة من عصور مختلفة وذات أطر من النحاس أو الفضة أو الذهب . وفى المتحف البريطانى بلندن تعرض أيضا مجموعة من المرايا المصرية القديمة منها مرآة رائعة مصنوعة من البرونز ولها سطح شبه دائرى ويد جميلة منحوتة على شكل تمثال دقيق الصنع لامرأة رشيقة القوام .

● وفى كثير من المقابر الملكية ومقابر النبلاء نشاهد نقوشاً جدارية تصور الأميرات ونساء تلك الطبقة وهى جالسات على المقاعد ويمسكن بمرآه يرين فيها وجوههن بينما تقوم الوصيفات والخادمات بمهمات التجميل والزينة . . كما أن ثمة نقوشاً كثيرة تصور لنا النساء وهن ممسكات بالمرايا بينما يصبغن شفاههن بالفرشاة المستعملة فى طلاء

«الروج » أو عند قيامهن بتزجيج الحواجب باستعمال الملاقيط أو عند تلوين الخدود باللون الوردى أو عند تكحيل العيون باستعمال المكاحل والمرواد .

● وتدل الشواهد الأثرية أيضا على أن المرأة المصرية القديمة قد عرفت طرق «المانيكير والبديكير » لتزيين أظافر اليدين والقدمين ، بل وكانت بعض النساء يتفنن فى تلوين الأظافر بألوان مختلفة منها الأبيض والأحمر والوردى والأخضر والأزرق ، بل واستعملن أيضا أظافر صناعية مصاغة من الذهب يثبتنها على أطراف الأصابع .

● أما تصفيف الشعر الطبيعى واستعمال باروكات الشعر المستعار ، فقد برعت المرأة المصرية القديمة فى ابتكار تصميمات وتسريحات رائعة ذات أشكال مختلفة ، لدرجة يمكن القول معها بأن الغالبية العظمى من تسريحات الشعر حسب الموضات الحديثة ، كانت معروفة ف مصر القديمة ، وذلك مثل تسريحات : الكانيش والألاجارسون والشينواه والشعر المضفر والشعر المسدل وعمل القصة المسدلة على الجبين ، بالاضافة إلى تزيين الشعر بالزهور الطبيعية أو بالتيجان أو بالتوكات المصنوعة من الذهب والمجوهرات .

● وبطبيعة الحال فقد عرفت المقصات التى كانت تستعمل فى قص وتهذيب الشعر، كما كانت تستعمل فى قص الأظافر . . كما عرفت الأمواس ذات الحواف الحادة التى كانت تستعمل فى إزالة الشعر الزائد . وتدل الشواهد أيضا على وجود فئة من الرجال والنساء كانوا « كوافيرات » متخصصين فى تصفيف شعر السيدات . وقد اكتشف « إيمرى » عالم الآثار المصرية مقبرة فى جبانة سقارة كانت مخصصة لكوافير شهير من عصر الدولة القديمة اسمه « حتب كا » . كما تم العثور على بعض البرديات تتضمن أسماء مصففى الشعر الذين كانوا فى خدمة كل من الملكة حتشبسوت والملكة نفرتيتى .

● ومنذ عصور ما قبل التاريخ عرفت المرأة المصرية فوائد « الحناء » وكان اسمها فى اللغة المصرية القديمة « بوكر » واستخدمتها فى صباغة وتلوين الشعر والأكف

والأقدام. كما استعملت الحناء أيضا - بإضافة مواد أخرى - كعلاج لبعض الأمراض الجلدية .

●وحتى تكتمل زينة المصرية القديمة كان لابد من استعمال العطور المستخرجة من زهور اللوتس والياسمين والورد والسوسن والتمر حنة وزهور بعض الفواكه ذات الرائحة الزكية . وقد ابتكرت عدة طرق لتقطير وتجهيز هذه العطور على شكل سوائل أو دهانات . ومثلما هو شائع الآن فى العالم الحديث من تسمية أنواع العطور والبرفانات بأسماء جذابة ، كانت أنواع العطور فى مصر القديمة تسمى باسماء جميلة مثل : منعش القلب . . والجنة . . والحياة . . وتاج العطر . كما أطلقت أسماء الإلهات على بعض الأنواع الراقية من العطور مثل : إيزيس وحتحور .

المرآة الخاصة باحدى أميرات الدولة الوسطى ، وهى مصنوعة من الفضة والذهب وحجر الأوبسيديان .
ويد المرآة على شكل الإلهة حتحور .

المرأة المصرية القديمة .. وأرقى موضات الأزياء

عرفت مصر زراعة الكتان منذ عصور ما قبل التاريخ وعرف المصريون فى ذلك الزمن السحيق كيفية تصنيع هذا النبات لاستخدامه كقماش تحاك منه الأردية والثياب ، وذلك من خلال عمليات تعطين هذا النبات وتنسيله وغزل خيوطه ونسجها بالأنوال .

● وكانت هذه المهمات التصنيعية من المهام الكبرى التى ألقيت على عاتق النساء فى مصر القديمة . وتدل النقوش الأثرية على أن النساء المصريات قمن بعمليات تصنيع الكتان خير قيام ، سواء فى ذلك أثناء قيامهن بأعبائهن المنزلية أو بقيامهن بالعمل فى مصانع النسيج التى كانت تمتلىء بجموع من النساء تخصصن فى الغزل أو فى النسج أو فى تفصيل وحياكة الثياب .

● وقد تجلت مهارة المرأة المصرية القديمة فى غزل الكتان فى خيوط رفيعة جداً ، ثم نسج هذه الخيوط على شكل قماش رقيق شفاف يكاد يتماثل مع أرق أقمشة الحرير الطبيعى فى وقتنا الحاضر . وقد اندهش المؤرخون الإغريق القدماء من رقة وشفافية الأقمشة الكتانية المصرية فأطلقوا عليها اسما معناه « نسج الهواء » وذلك تأكيداً لما كانت تتصف به هذه الأقمشة من جودة وإتقان فى نسج خيوط من الغزل الرفيع كما لو كانت مصنوعة من الهواء الشفاف .

● وبصفة عامة فقد كان المصريون القدماء ـ رجالاً ونساءً ـ يفضلون أن تكون ثيابهم مصنوعة من القماش الأبيض الذى يميل إلى درجة « البيج » وهو لون الكتان الطبيعى ، إلا أن النساء كن يفضلن كذلك أن تكون الأقمشة التى تصنع منها ثيابهن مصبوغة بألوان حمراء أو زرقاء أو صفراء أو خضراء . . وأن تكون مزخرفة بأشرطة تتناسب ألوانها

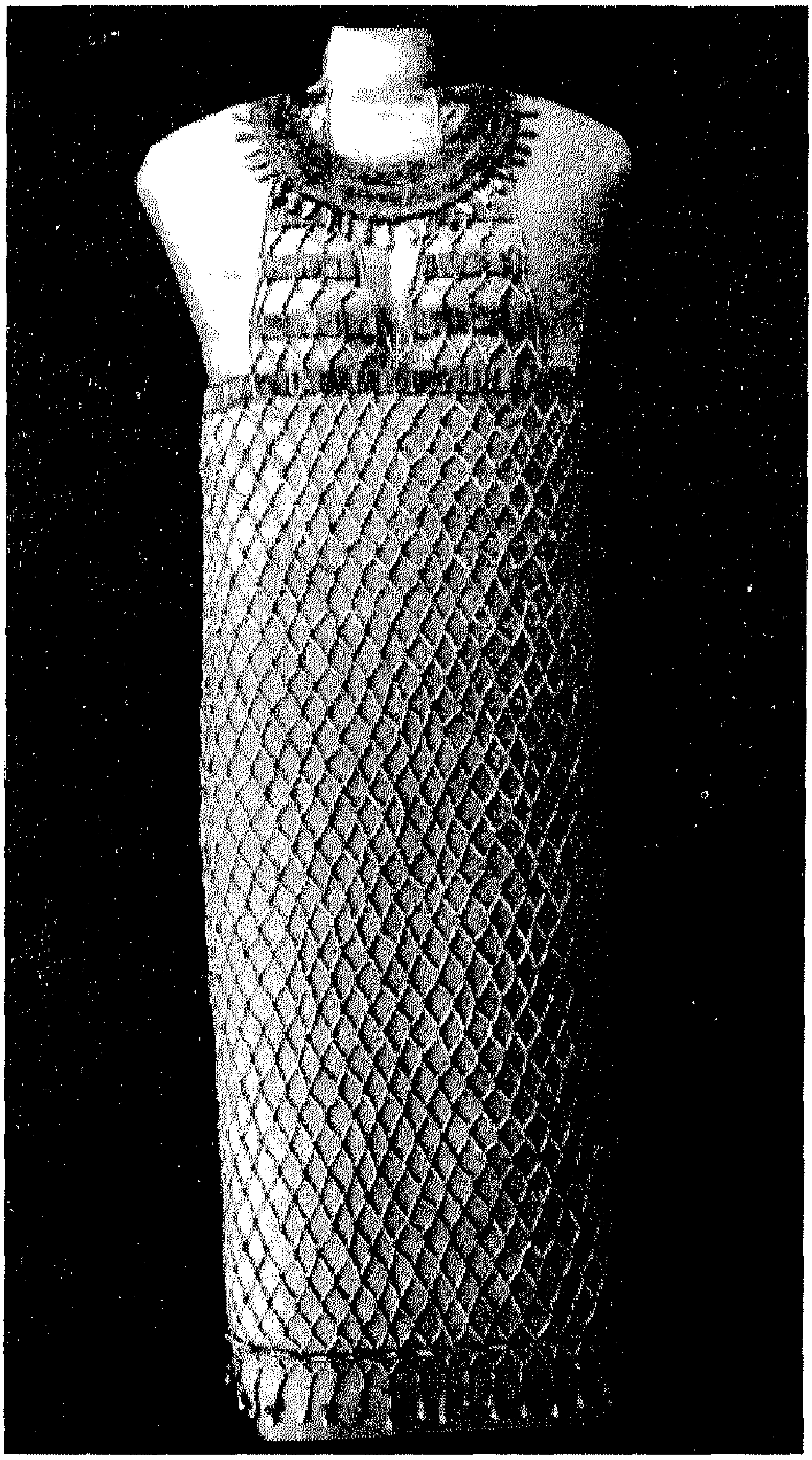

ثوب نسائى للسهرة ، قماشه مجدول على شكل شبكة مزينة بالخرز
يرجع تاريخه إلى عصر الدولة القديمة .
[من معروضات متحف الفنون الجميلة فى بوسطن]

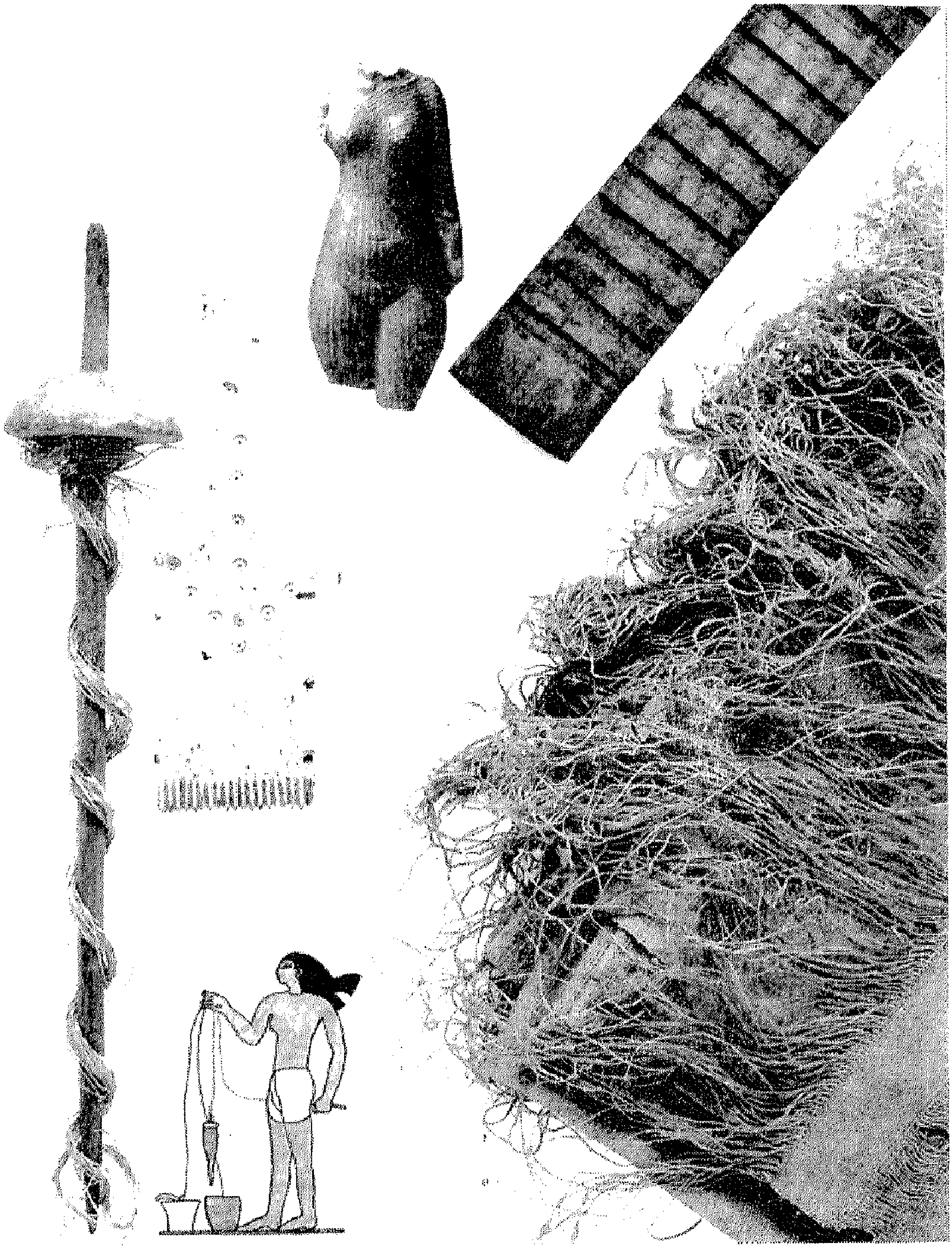

غزل ونسج خيوط الكتان والادوات المستخدمة فى هذه العملية ، وفى أعلى الصورة تمثال لجسم نفرتيتى
{ أوربما لإحدى بناتها وهى ترتدى ثوباً ذا ثنيات متكررة ـ بليسيه } .

مع لون الرداء ، أو تكون مطرزة بالأصداف أو بالخرز الملون أو بخيوط من الذهب والفضة بالنسبة لنساء الطبقة العليا من المجتمع .

● ومنذ أن ألقيت مهمة حياكة ملابس الرجال وملابس النساء على عاتق المرأة المصرية طبقا لقواعد تقسيم العمل التى سادت فى المجتمع المصرى القديم ، قامت المرأة المصرية بابتكار أشكال متعددة لتصميم تلك الملابس ، بدءاً بتلك الأردية النسائية التى سادت فى عصر الدولة القديمة والتى كانت عبارة عن ثوب ضيق طويل كان يشد إلى الكتفين بحمالتين رفيعتين أو عريضتين . ثم قامت المرأة المصرية بعد ذلك بتطوير هذا الطراز إلى أشكال عدة ، فصنعت ثياباً للنهار وثياباً لليل . . وثياباً للاستعمال داخل البيت وأخرى للخروج . . وثياباً فاخرة لحضور الولائم واحتفالات الأعياد والمناسبات الخاصة .

● وقد استلهمت المرأة المصرية للنقوش الجدارية الملونة التى رسمها الفنانون على جدران المعابد والمقابر وصوروا فيها « الإلهات » وهن مرتديات أفخر الثياب ذات الطرز الجميلة المختلفة ، فقامت النساء بتقليد تلك الثياب وتطوير طرزها وتصميماتها ، فظهرت الثياب النسائية الواسعة الفضفاضة ذات الكسرات والثنيات والطيات الكثيرة التى تسمى حديثًا باسم « البليسيه » . كما ظهرت الثياب ذات الصدر المفتوح والتى تسمى حديثاً باسم « الديكولتيه » . . والثياب ذات الحمالات والخالية من الأكمام لإبراز مفاتن الذراعين وأعلى الصدر والرقبة وأعلى الظهر طبقاً لما هو سائد الآن فى موضات ملابس السهرة التى ترتديها بعض نساء الطبقات العليا فى المجتمعات الحديثة .

● أما نساء الطبقة العليا فى المجتمع المصرى القديم فقد بالغن فى تصميم ثيابهن التى كن يرتدينها فى الولائم والاحتفالات والمناسبات الخاصة . وتدل النقوش والشواهد الأثرية على أنهن كن يرتدين ثلاثة أثواب فوق بعضها : أولها قميص داخلى ضيق ، وفوقه ثوب واسع فضفاض يربط برباط أمامى فوق الثديين ، ثم ثوب ثالث يبدو كالمعطف القصير الذى يسمى حديثاً باسم « الكاب » . والغريب فى هذا كله أن جميع هذه الأثواب كانت منسوجة من القماش الرقيق الشفاف ، تكاد تفاصيل جسم المرأة تبدو من خلاله ظاهرة واضحة لابراز أنوثتها وجمال مفاتنها .

أصول « الإتيكيت » ..
والسلوكيات الأخلاقية والاجتماعية الطيبة

ما من شعب من شعوب العالم القديم أجمع المؤرخون القدماء والمحدثون على رقته وحسن طباعه والتزامه بالقواعد الأخلاقية الرفيعة وسلوكياته الاجتماعية الطيبة كالشعب المصرى القديم . . بل ويقول كثير من المؤرخين أن هذا الشعب كان له فضل السبق فى وضع القواعد الأخلاقية وأسس علم الأخلاق بمفهومه الحديث .

● وكان الإنسان المصرى القديم ـ ذكراً كان أم أنثى ـ يحاط منذ طفولته وخلال مراحل عمره بمجموعة لا حصر لها من القيم والمثل العليا والقواعد الأخلاقية تتوارثها الأجيال المتعاقبة جيلاً بعد جيل ، أو تلقن له داخل المعابد أو المدارس ، أو يمليها عليه الآباء والحكماء ومن هم أكبر منه سناً ممن يتمتعون برجاحة العقل وخبرة الحياة . وكان القصد الأول والأخير من ذلك كله هو أن يصبح الإنسان المصرى مواطناً صالحاً يعيش فى مجتمع متحضر تربطه علاقات طيبة مع أسرته وجيرانه وزملائه ورؤسائه وسائر المواطنين الآخرين من أهل بلده .

● وقد يكون من العسير حصر جميع تلك التعاليم والنصائح التى تحدد قواعد السلوكيات الأخلاقية والاجتماعية التى سادت فى المجتمع المصرى القديم . . ويقول بعض المؤرخين أن قدماء المصريين هم أول من وضعوا قواعد « الإتيكيت » التى يجب أن يلتزم بها المدعوون فى الزيارات وحضور الولائم . ومن بين القواعد الخاصة بآداب المائدة نشير إلى ما يلى :

ـ إذا كنت بين المدعوين إلى مائدة رجل أكبر منك مقاماً ، فخذ ما يقدم لك حين يوضع أمامك . . ولا تنظر طويلا إلى الطعام المقدم لك لأن ذلك مما تشمئز منه النفوس .

ـ إذا جلست مع أناس كثيرين للأكل ، فإنظر إلى الطعام بعدم مبالاة حتى وإن كنت تشتهيه . . إن ضبط النفس لا يكلف الانسان أكثر من لحظة . . وكن قنوعاً بطعامك .

● ومن آداب زيارة بيوت الآخرين وضعوا القواعد التالية :

ـ لا تدخل بيت غيرك قبل أن يؤذن لك بالدخول . . ولا تتكلم إلا بعد أن يرحب بك . . وإياك أن تتكلم بكلمات غامضة أو تنطق بكلمات وقحة . . واحفظ لسانك سليما من الألفاظ الشائنة حتى تصبح مقبولاً ومفضلاً عند الآخرين . .

ـ وإياك أن تمعن النظر إلى شيء منتقد فى البيت الذى تدخله ، أو تتحدث عن هذا الشيء إلى آخرين فى الخارج . . ولا تكن ثرثاراً . . وكن مؤدباً حتى لا يرتاب أحد فى سلوكك .

● ومن آداب العلاقات بين الرؤساء والمرؤوسين :

ـ إذا كان رئيسك فيما مضى من أصل وضيع ، فعليك أن تتجاهل وضاعته السابقة واحترامه حسبما وصل إليه .

ـ وإذا أصبحت عظيما بعد أن كنت ضئيل القدر ، وصرت صاحب ثروة بعد أن كنت محتاجاً ، فلا تنسى كيف كانت حالك فى الزمن الماضى ، ولا تتغنى بثروتك التى جاءتك منحة من الإله ، فإنك لست بأحسن من أقرانك الذين حل بهم الفقر . . فلا تكن فظاً لأن الشفقة محبوبة .

● ومن آداب التعامل مع من هم أكبر سنا واحترام أصحاب العاهات :

ـ لا تقعد إذا كان غيرك أكبر سنا واقفا . . ولا تسخر من كلام رجل عجوز . . ولا تشتم أو تلعن من هو أكبر منك سنا . . وإياك أن تسخر من أعمى ، أو تهزأ بقزم أو

برجل أعرج . . واحذر أن تسلب حق انسان ضعيف أو فقير بائس .

● ومن آداب السلوكيات الاجتماعية العامة :

ـ لا تأكل الخبز إذا كان هناك جار لك يتألم جوعاً .

ـ كن بشوشا طلق الوجه مع الآخرين ما دمت حياً .

ـ لا تُعِدْ كلمات حمقاء خرجت من فم غيرك فى ساعة غضب .

ـ لا تجعل نفسك رسولاً فى مهمة ضارة .

ـ لا تتكلم مع انسان كذباً . . ولا تؤدى شهادة زور . . وإياك أن تأخذ رشوة من الآخرين أو تقبل هدية رجل قوى لتغير أقوالك . . إن أكبر شىء يمقته الإله هو النفاق .

ـ لا تبذّر . . ولكن كن محسناً . . وإياك والطمع فإنه مرض عضال والصداقة معه مستحيلة وفيه كل أنواع الشر .

ـ لا تطفف فى الكيل ولا تتلاعب بكفتى الميزان .

● هذه عينات قليلة من قواعد السلوكيات الأخلاقية والاجتماعية التى كانت سائدة بين الشعب المصرى القديم والتى جعلت من مصر منارة حضارية لأخلاقيات العالم القديم والعالم الحديث على حد سواء .

مدخل إلى العلوم الطبية عند قدماء المصريين

منذ أن بدأ الانسان الأول حياته على الأرض ، وهو عرضة لمواجهة أخطار جمة من أشياء أو كائنات قد يراها بعينه أو قد تكون خفية لا تدركها الأبصار .

● كانت هناك فى كل مكان حوله وحوش ضارية وحيوانات كاسرة لا يستطيع برغم قوته أن يتقى أذاها . . وثعابين وعقارب وحشرات تلدغه فتقتله أو تصيبه بالشلل . . بالإضافة إلى كائنات دقيقة أخرى لا يعرف عنها شيئا ، ولا يستطيع أن يراها رؤية العين، ولكنها تصيب جسمه فيمرض أو تنتهى حياته فى أغلب الأحوال .

● كذلك فقد كان هذا الانسان البدائى عرضة للإصابة بالجروح والكسور عندما يمارس الصيد ، أو عندما يتسلق الأشجار لجمع الثمار ، أو حتى وهو يمارس حياته اليومية الشاقة فى تلك الظروف الحياتية الصعبة التى كانت سائدة فى ذلك الزمن السحيق من عصور ما قبل التاريخ .

● وفى المجتمعات البدائية الأولى ـ فى أى مكان على الأرض ظهرت فيه التجمعات الانسانية ـ حين كان أى انسان يصاب بالجروح أو الكسور أو يعتريه أى مرض من أمراض البيئة ، كان يستسلم لقضائه ، ويعجز ـ هو ومن حوله ـ عن اتخاذ أى إجراء من إجراءات العلاج ، على اعتبار أن هذه الاصابة قدر محتوم لا مفر منه ، اللهم إلا إذا كانت أجهزة وخلايا الجسم البشرى تقوم بنفسها بدور العلاج ، سواء بالتئام الجروح ، أو بمقاومة أسباب المرض حتى يتم الشفاء .

● ولكن عندما خطت هذه المجتمعات البدائية خطواتها الأولى نحو التطور ،

ظهرت طبقة « السحرة » الذين جعلوا من أنفسهم طبقة مميزة عن الآخرين ، وأعطوا لأنفسهم حق القيادة والتوجيه باعتبارهم أصحاب الكلمة العليا فى تلك المجتمعات .

● ويقول علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية المحدثون إن « السحر » هو ما دق وخفى من أعمال وحيل يقوم بها الساحر . وهذه الحيل هى فى حقيقة الأمر نوع من التخييل الذى يخدع عيون المشاهدين . وإن السحر ارتبط منذ البداية بالديانات البدائية الأولى . . ويقول علماء آخرون إن السحر كان من الحقائق المسلم بها فى المجتمعات الانسانية البدائية والمجتمعات القديمة بصفة عامة .

● ومن الأمثلة الأولى التى كان السحرة يؤكدون بها قدراتهم السحرية هى السيطرة على الثعابين واصطيادها ، وذلك بأداء نوع من الإيقاعات المتسقة . . بالإضافة إلى العديد من الأمثلة الأخرى التى جعلت المجتمعات الانسانية البدائية تقتنع - بل وتؤمن - بأن للسحرة قدرة على الاتصال بالقوى الخفية التى تمكنهم من التنبؤ بالغيب ، وتمكنهم من شفاء الأمراض ، بل وإحداث هذه الأمراض لتصيب من يغضب عليه الساحر من غير المؤمنين به أو المشككين فى قدراته . ويقول العلماء إن السحرة الذين مارسوا علاج الأمراض بالسحر هم أول من شكلوا طبقة مهنية فى مسيرة تطور المجتمعات الانسانية .

● وكما انبثقت طبقة السحرة من المفاهيم التى كانت سائدة فى الديانات البدائية القديمة ، انبثقت أيضا من تلك الديانات طبقة أخرى هى طبقة « الكهنة » التى ادعت هى أيضا قدرتها على الاتصال بالآلهة والقوى الخفية ، وانها حلقة الوصل بين هؤلاء الآلهة وأفراد الجماعات الإنسانية . . وكان الفرق بين الكهنة والسحرة هو أن الكهنة كانوا يقومون بخدمة الأفراد بإقامة الصلوات وممارسة الشعائر الدينية ومنها تقديم القرابين إلى الآلهة . . أما السحرة فكانوا يقومون بتلك الخدمة باستعمال التعاويذ والتمائم والرقى والأحجبة وغير ذلك من الوسائل التى كانوا يتفننون فى ابتداعها .

● كانت هذه مقدمة أو مدخلاً لموضوع « الطب عند قدماء المصريين » . . وهو موضوع واسع متشعب ، ويعتبر من القمم الحضارية التى تربع عليها المصريون فى تاريخهم المجيد .

أول كتاب فى علم التشريح فى تاريخ العالم

من العسير ، بل من المستحيل ، أن نعرف أية معلومات موثقة عن الكيفية التى كان المصريون القدماء يعالجون بها أمراضهم أو جروحهم فى عصور ما قبل التاريخ . . وذلك لسبب بسيط وهو عدم ظهور الكتابة التى كانت الوسيلة الوحيدة لتسجيل معلوماتهم الطبية .

● ولكن هذا لا يعنى أن هؤلاء المصريين الأوائل فى عصورهم السحيقة لم تكن لهم أية دراية بوسائل العلاج ، فمعظم العلماء الذين كتبوا فى تاريخ الطب يقولون إن الرغبة فى العلاج والشفاء من الأمراض أو الجروح تعتبر من الغرائز الطبيعية بالنسبة للحيوان وأيضا بالنسبة للانسان . . بل ويقولون أيضا إن بعض الحيوانات ربما قامت بدور المعلم للانسان الأول فى هذا المجال . . وذلك حين كان هذا الانسان يرى الحيوان وهو يتمرغ فى التراب ليتخلص من الحشرات التى تؤذيه . . أو حين يلعق الحيوان جروحه ليقتل الجراثيم . . أو حين يميز الحيوان بين الغذاء النافع له والغذاء الضار أو السام .

● ومن المؤكد أن هؤلاء المصريين الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ قد عرفوا بعض المعلومات التشريحية عندما كانوا يذبحون الحيوانات التى تم اصطيادها وإعدادها كطعام . . كما عرفوا تركيبة الهيكل العظمى للإنسان بعد أن تتحلل جثة الميت ولا يبقى منها فى النهاية سوى هذا الهيكل .

● ويقول مؤرخو الطب إن هناك بعض الأدلة والشواهد الأثرية التى تؤكد معرفة

قدماء المصريين الأوائل بفنون وعلوم الطب ، وذلك استناداً إلى كيفية رسم بعض الرموز والعلامات الهيروجليفية التى تصور أجزاءً من جسم الإنسان والتى ظهرت بوضوح فى الكتابة المصرية القديمة ، التى بدأ ظهورها قبيل بداية العصور التاريخية فى مصر القديمة .

● ومن الناحية التاريخية فإن عصر ما قبل الأسرات وعصور ما قبل التاريخ بصفة عامة قد انتهت حين قام الملك « مينا » بتوحيد الوجهين القبلى والبحرى فى دولة واحدة، وقام بتأسيس الأسرة الملكية الأولى فى حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد على وجه التقريب. وبالرغم من ضآلة كم المعلومات المؤكدة عن تاريخ عصر الأسرتين الأولى والثانية ، وهى فترة تاريخية تعرف علمياً باسم « العصر العتيق » ، إلا أن المؤرخين يشيرون إلى الحكايات والمدونات المصرية القديمة الى تؤكد أن ثانى ملوك الأسرة الأولى وهو الملك « دجر » ـ ويقرأ اسمه أحيانا « زر » وأحيانا أخرى « خنت » ـ الذى عثر على مقبرته بمنطقة أبيدوس « العرابة المدفونة بمحافظة سوهاج » قد ألف كتاباً فى « علم التشريح » يعتبر بكافة المقاييس أول كتاب فى هذا العلم فى تاريخ العالم .

● وبالرغم من انه لم يتم العثور على أى أثر لهذا الكتاب ، إلا أن العديد من المؤلفات الطبية التى كتبها الأطباء المصريون القدماء فى عصور لاحقة أشارت إلى بعض التشخيصات والوصفات العلاجية التى وردت فى هذا الكتاب .

● وبطبيعة الحال فإن مجرد الإشارة إلى وجود مثل هذا الكتاب فى ذلك العصر المبكر من التاريخ المصرى القديم يفهم منه أن مؤلف الكتاب قد استند إلى معرفته بمجموعة من التجارب أو التحصيلات العلمية السابقة على فترة التأليف ، الأمر الذى يفهم منه أيضا وجود معلومات طبية سابقة كانت معروفة لدى المصريين الأوائل ، فى عصور ما قبل التاريخ .

طبيب مصرى عبقرى.. اسمه إيمحوتب

وإذا كـان الملك « زر » ثانى ملوك الأسرة الأولى [فى القرن الثانى والثلاثين قبل الميلاد] قد ألف أول كتاب فى « علم التشريح » فى تاريخ العالم . . فقد جاء بعده الوزير « إيمحوتب » وهو أحد الوزراء البارزين فى التاريخ المصرى القديم ووضع الأسس العلمية لتشخيص الأمراض ووصف العلاج المناسب لكل مرض . وقد ظهر هذا الوزير العظيم فى بداية عصر الأسرة الثالثة فى عهد الملك « زوسر » أول ملوك هذه الأسرة وصاحب الهرم المدرج الشهير بسقارة [فى القرن الثلاثين قبل الميلاد] .

● كان الوزير « إيمحوتب » من أبناء الشعب . ومعنى اسمه فى اللغة المصرية القديمة هو « الذى يأتى فى سلام » . وكان أبوه مهندساً بارزا اسمه « كا ـ نفر » . . وكانت أمه « خردو ـ عنخ » سيدة من بنات مدينة « منديس » القديمة التى تقع بالقرب من مدينة السنبلاوين بمحافظة الدقهلية حالياً .

● ويعتبر « إيمحوتب » أحد العبقريات الفذة التى يحفل بها تاريخ الانسان على الأرض . . فقد كان متعدد المواهب التى أهلته لشغل المناصب والمهام العليا فى بداية الفترة التاريخية التى اصطلح على تسميتها « عصر الدولة القديمة » . وهو عصر يشمل تاريخ الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة ويعتبره بعض المؤرخين أزهى عصور الحضارة المصرية القديمة حيث بلغت فيه هذه الحضارة قمماً شامخة خاصة فى مجالات الهندسة والعمارة والطب وإدارة الشئون الحكومية .

● وفى عصر الملك زوسر ، تولى « إيمحوتب » الإشراف على كافة شئون الدولة من القضاء والخزانة والجيش والبحرية والداخلية والزراعة وجميع المكونات والانشطة الأخرى للسلطة التنفيذية . وأطلقت عليه أثناء حياته مجموعة من الألقاب أهمها : الوزير والمهندس المعمارى وكبير الكهنة والحكيم والكاتب والفلكى والطبيب . ويكفى أن نشير هنا إلى معجزته الهندسية والمعمارية وهى إشرافه على وضع التصميم الهندسى وعلى كافة الأعمال التنفيذية لبناء هرم زوسر المدرج بسقارة الذى يعتبر أول معجزة معمارية حققها الإنسان على الأرض باستخدام الحجر فى بناء المنشآت الشاهقة الضخمة .

● أما معجزاته فى مجال الطب فقد وردت إشارات متعددة إلى القواعد التى وضعها وإلى المعلومات الطبية المنسوبة إليه فى معظم « البرديات الطبية » الأثرية التى تم العثور عليها . ومن حسن حظ علم الآثار المصرية أن تم العثور على عدد كبير من هذه البرديات لعل أشهرها إحدى عشرة بردية سميت باسماء العلماء المحدثين الذين عثروا عليها أو اشتروها أو قاموا بترجمتها إلى اللغات الحية .

● وبتحليل وتصنيف الأمراض الى ورد ذكرها سواء فى تلك البرديات أو فى مصادر أثرية أخرى ، ندرك على سبيل اليقين أن قدماء المصريين كانوا يعرفون (١٥) مرضاً محدداً من الأمراض الباطنية . . و (١١) مرضاً من أمراض المثانة . . و (١٠) أمراض من أمراض القولون والمستقيم والشرج . . و (٢٥) مرضاً من أمراض العيون . . و (٦) أمراض من أمراض الأذن . . . و (١٨) مرضاً جلدياً .

● وفى أحدث إحصائية أعلنها بعض علماء ومؤرخى الطب المحدثين ، نرى أن قدماء المصريين قد عرفوا أكثر من (٢٥٠) مرضاً مختلفا . . مع التأكيد على أن الأطباء المصريين القدماء كانوا يشخصون الأمراض بطريقة علمية ، وقادرين على الملاحظة الإكلينيكية الدقيقة ، وعلى التنسيق بين الظواهر والأعراض المرضية وتفسيرها تفسيرا أقرب ما يكون إلى الصواب .

● وإذا كان معظم هذه البرديات الطبية يرجع تاريخه إلى عصر الدولة الحديثة [القرن السادس عشر قبل الميلاد وما بعده] فإن هذا لا يعنى أن جميع المعلومات التى ورد

ذكرها فى هذه البرديات كانت من ابتداع أو من اكتشاف الأطباء القدماء الذين عاشوا فى ذلك العصر ، إذ من المؤكد أن هؤلاء الأطباء قد استقوا معلوماتهم من التراث الطبى المتراكم والذى توارثته أجيال المصريين منذ عصور ما قبل التاريخ .

● ومن الغريب أن تأثير الوزير « إيمحوتب » ظل قائماً حتى بعد وفاته بآلاف السنين حتى وصل الأمر إلى درجة اعتباره إلهاً للطب فى العصر اليونانى الرومانى .

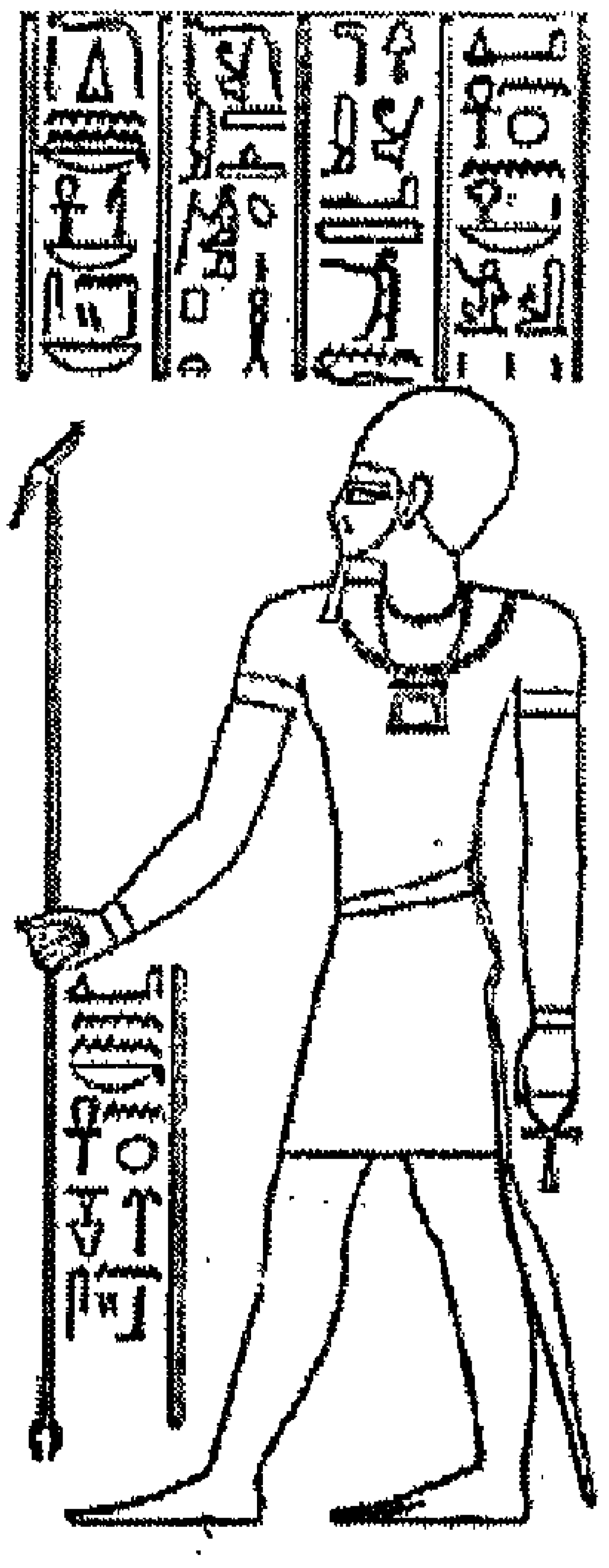

إيمحوتب . . وزير الملك زوسر { الأسرة الثالثة } . .
أول عبقرى فى الطب والهندسة يذكر اسمه فى تاريخ العالم .

أمنحوتب بن حابو ..
من عباقرة الأطباء المصريين القدماء

يحفل التاريخ المصرى القديم بسير مجموعة من العباقرة الأفذاذ الذين أرسوا أسس الحضارة المصرية بمختلف فروعها العلمية والأدبية والعسكرية ، حتى ارتفعت تلك الحضارة إلى قمم شاهقة شامخة لم تبلغها أية حضارة أخرى من حضارات العالم القديم .

● وعلى غرار عبقرية الوزير « إيمحوتب » الذى عاش فى عصر الأسرة الثالثة فى القرن الثلاثين قبل الميلاد ، والذى تجلت عبقريته فى علوم الهندسة والعمارة والفلك والفلسفة والطب ، ظهرت فى عصر الأسرة الثامنة عشرة فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، عبقرية فذة مماثلة فى أحد أبناء الشعب المصرى ، وهو « امنحوتب بن حابو » الذى ولد لأسرة مصرية متواضعة كانت تعيش فى مدينة « إتريب » وهى مدينة « بنها » الحالية بمحافظة القليوبية .

● فى فترة شبابه التحق « امنحوتب بن حابو » كضابط بجيش الفاتح العظيم تحوتمس الثالث الذى أسس الامبراطورية المصرية على امتداد مساحة هائلة من أرض العالم القديم ، تشمل جنوب شرق تركيا وأرض العراق وكل المناطق السورية بما فيها سوريا ولبنان والأردن وفلسطين واسرائيل ، وتمتد جنوباً حتى منطقة الجندل الرابع ببلاد النوبة والسودان .

● وعندما تبدت بوادر عبقريته وثقافته الواسعة عين بوظيفة « الكاتب العسكرى » للجيش المصرى . وهى وظيفة كانت على مكانة رفيعة بين الطبقة العسكرية ، وكان

ينظر إلى من يشغلها نظرة تقدير واحترام باعتباره من حملة كتب التراث المصرى القديم التى تتوارثها الأجيال جيلا بعد جيل .

● وفى عهد الملك « امنحوتب الثالث » كانت عبقرية « امنحوتب بن حابو » قد بلغت أوجها وأعلى ذراها ، خصوصاً فى مجالات الهندسة والعمارة والطب . . ويكفى أن نشير هنا إلى أن هذا العبقرى الذى جاء من مدينة بنها قد أصبح أهم رجال الدولة ـ بعد الملك ـ فى طيبة « الأقصر » عاصمة الديار المصرية والمناطق التابعة لها فى أرجاء العالم القديم . . وهو الذى أشرف على وضع التصميمات الهندسية والمعمارية لمعظم المنشآت الدينية والمدنية التى أقامها الملك امنحوتب الثالث فى معابد الكرنك ومعبد الأقصر والمعبد الجنائزى الضخم بغرب الأقصر ، وهو المعبد الذى اختفت آثارة تماماً ولم يعد باقياً منه سوى تمثالين للملك ذاعت شهرتهما فى العالم القديم والعالم الحديث على السواء ، وهما التمثالان اللذان يعرفان حالياً باسم « تمثالى ممنون » .

● وكان من الواضح أن ابن الشعب « أمنحوتب بن حابو » كان يتوخى خطى سلفه العظيم الوزير « إيمحوتب » الذى عاش قبله بنحو ١٦٠٠ عام . . فقد احترف مهنة الطب وتبحر فى علومه ، واشتهرت فى طول البلاد وعرضها قدرته الأسطورية الفائقة على التطبيب وشفاء كل الأمراض العادية منها والمستعصية . . ولذلك فقد كانت أفواج المرضى تأتى إليه من كل فج عميق قاصدة الشفاء على يديه المباركتين .

● ومما لا شك فيه انه اعتمد على تراث العلوم الطبية التى دونها الأطباء المصريون الذين عاشوا فى عصور سابقة على عصره ، والتى وصفوا فيها قواعد تشخيص الأمراض وقواعد الصيدلة وتركيب أدوية العلاج من أملاح ومواد كيماوية ونباتات وأعشاب طبية ، بالإضافة إلى ما ابتكره بنفسه من وصفات وتركيبات دوائية جديدة .

● وإلى جانب هذا التشخيص والعلاج المعتمد على العلوم التجريبية المتوارثة والمبتكرة ، قام « امنحوتب بن حابو » بترسيخ الفكرة القائلة بأن « الشفاء من الأمراض أمر بيد الإله ، ولا يمكن أن يتم إلا بارادة ومشيئة إلهية » . ومن المعروف عن الشعب المصرى انه شعب متدين يؤمن بأن كل شىء يكون أو لا يكون بأمر الله وبإذنه . .

ولذلك فلم يكن من المستغرب أن يتخذ المصريون القدماء « امنحوتب بن حابو » ـ سواء فى حياته أو بعد مماته ـ وسيلة للتقرب إلى الإله ، تماماً مثلما يفعل الكثيرون من المحدثين باتخاذ أضرحة بعض أولياء الله الصالحين وسيلة للشفاعة وطلب الشفاء من الله .

● ولم يكن من الغريب أيضا أن أفواج المرضى القادرين كانت تأتى من خارج الديار المصرية من أثينا وروما ومن كافة أنحاء الامبراطورية الرومانية لتحج إلى المعابد المصرية التى توجد بها تماثيل لأمنحوتب بن حابو لتؤدى الصلوات وتقدم القرابين طلباً للشفاء مما كانوا يعانونه من أمراض .

أمنحوتب بن حابو فى شيخوخته

أمنحوتب بن حابو فى شبابه

أول من اكتشفوا العلاج بالإيحاء النفسى

هناك العديد من الشواهد يستدل منها على الطبيعة السيكولوجية للشعب المصرى فى تاريخه القديم وتاريخه الحديث على حد سواء . . فهو شعب طيب وعاطفى تستهويه الروحانيات كما تستهويه الماديات . . ولكنه يمزج بين هذين الاتجاهين بطريقة مصرية خالصة مستوحاة من طبيعة البيئة الاجتماعية مهما اختلفت ظروف هذه البيئة على مدى التاريخ وعصوره المختلفة المتباينة ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى تميز الشعب المصرى فى سلوكياته عن معظم شعوب العالم الأخرى .

● أليس من الغريب أن نجد الكثيرين من أهالى الريف والمدن المصرية فى الوجهين البحرى والقبلى مازالوا يلجأون إلى زيارة أضرحة أولياء الله الصالحين طلبا للشفاعة من أجل الشفاء من الأمراض التى قد تستعصى على العلاج بالأدوية التى يصفها الأطباء ؟ . . وأليس من الغريب أيضا أن بعض هذه الأمراض المستعصية يتم شفاؤها أو تزول أعراضها بعد زيارة هذه الأضرحة ، وهو ما يؤكده قيام هؤلاء المرضى وذويهم بتقديم النذور كثمن بخس لتلك الشفاعة التى حققت الشفاء بعد طول عناء . . كما يؤكده أيضا إصرار من مرّوا بتلك التجارب على إرشاد المرضى الآخرين إلى القيام بزيارة هذه الأضرحة كطريقة للشفاء الأكيد . . ؟

● يقول بعض علماء النفس إن تحقيق الشفاء أو زوال أعراض بعض الأمراض النفسية أو العصبية أو حتى الأمراض البدنية الناجمة عن اضطرابات نفسية أو عصبية بعد زيارة تلك الأضرحة ، يعتبر أمراً محتمل الحدوث نتيجة « الإيحاء النفسى » الذى يجعل المريض فى حالة استهواء تساعده على تجاوز المرض وتجاوز أعراضه .

● هذه الطريقة فى « العلاج الإيحائى » تعتبر ميراثاً ورثه المصريون المحدثون عن أجدادهم من المصريين القدماء الذين ابتدعوا طريقة لعلاج الأمراض النفسية أو العصبية المستعصية أطلقوا عليها اسم « العلاج بالنوم الشفائى » أو « النوم العلاجى». وهى طريقة يطلق عليها علماء النفس المحدثون اسمINCUBATION حيث تؤدى قوة الإيحاء مع الشعور القوى بقداسة المكان إلى شفاء المريض عصبيا ، فيتمكن من الرؤية أو السمع أو الحركة بعد الشلل . . فمثل هذا الاحساس الزائد يهيىء ذهن المريض إلى أنه فى الطريق إلى الشفاء من المرض الذى تسبب فى تلك الأعراض .

● وقد شاعت هذه الطريقة المصرية القديمة فى المعابد التى كانت توجد بها تماثيل لكل من « إيمحوتب » و « أمنحوتب بن حابو » سواء فى منف أو فى الأقصر أو فى معبد جزيرة « فيله » بأسوان . . حيث يلجأ إلى تلك المعابد المرضى الذين عز دواؤهم فرادى وجماعات ، منجذبين بشهرة هذين الطبيبين الراحلين وقدرتهما على تحقيق الشفاء من الأمراض . . فيستقبلهم الكهنة الذين يستثيرون مخيلاتهم القابلة للاستهواء بقصص معجزات الشفاء التى حدثت فى الماضى فى ذلك المكان المقدس ، وما ينتظرهم من شفاء أكيد . وبعد تلاوة بعض التعاويذ التى تساعد على تهيئة ذهن المريض لحالة الاستقبال ، كان يطلب من المريض أن يقضى الليل نائماً فى ساحة المعبد ، وسوف تأتيه إشارة الشفاء على شكل حلم فى منامه ، وعلى المريض أن يقص هذا الحلم على الكاهن عندما يستيقظ فى الصباح .

● ويطلب الكاهن من المريض أن يؤدى صلاة خاشعة للإله ، ويلقنه النصيحة المصرية العظيمة فى طريقة العبادة والصلاة ونصها : « عندما تؤدى صلاتك . . إفعل ذلك بهدوء وبدون تباه . . فالإله لا يحب الجلبة ولا الضجيج . . صلّى له بقلب مشتاق . . صلاة تختفى فيها الكلمات . . من أجل أن يستجيب لدعائك ويسمع شكواك » .

● وأياً كان الحلم الذى يخطر فى منام المريض ، فإن الكاهن يفسره بطريقة موحية بتمام الشفاء أو موحية للمريض بأنه فى طريقه إلى الشفاء العاجل القريب . . وكلما كان

المريض عاطفيا أو قابلاً للإيحاء ، أصبح احتمال شفائه مؤكداً . . وحتى فى حالة الأمراض الميئوس من شفائها ، فإن المرضى يشعرون بقدر كبير من الارتياح . . وتنتابهم حالة من البهجة والفرح ، فيؤثر مرآهم هذا فى القادمين من المرضى الجدد ، ويجعلهم أكثر استعداداً لقبول الإيحاء .

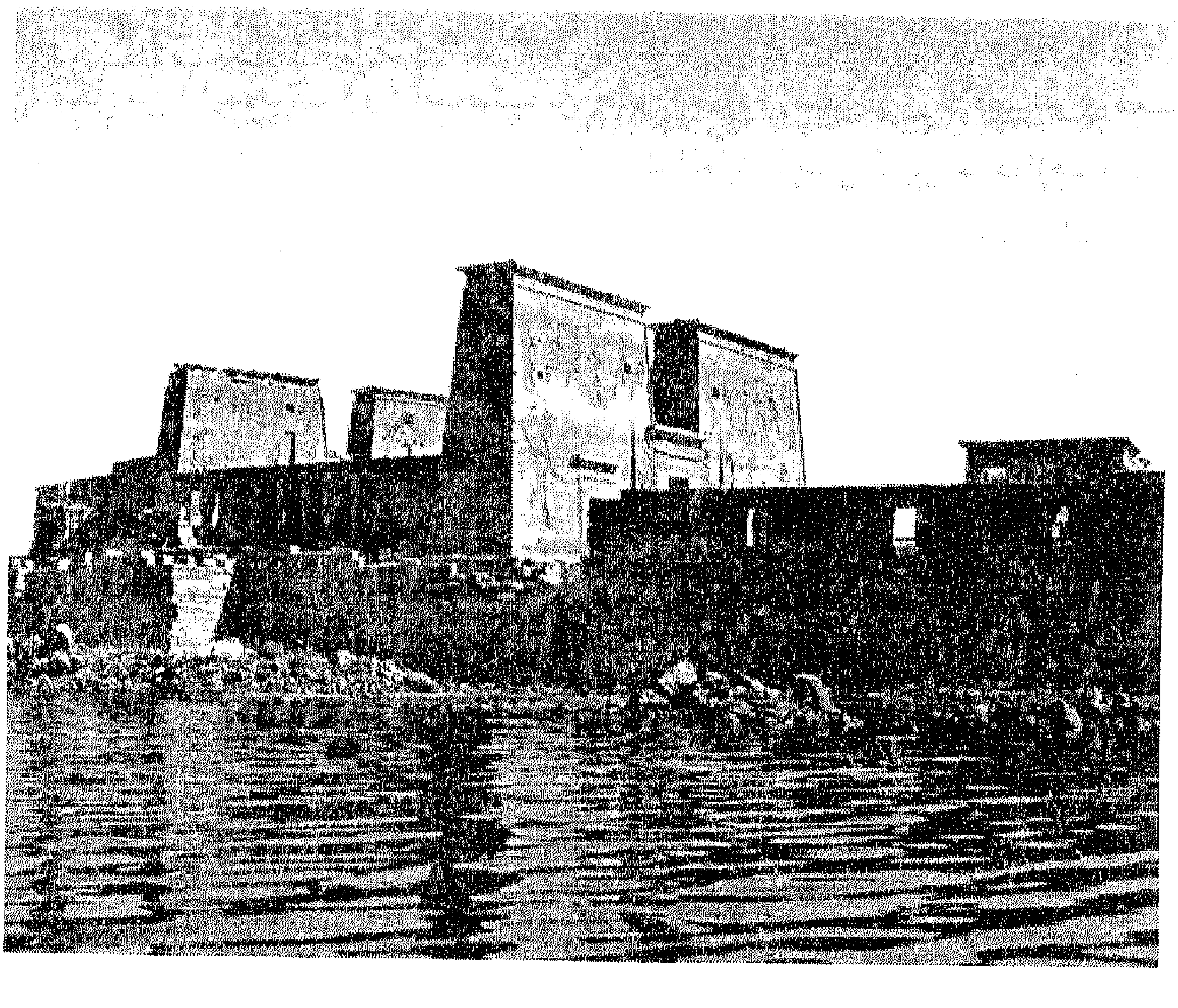

معبد إيزيس بجزيرة فيله كما يبدو من النيل

في هذه الساحات الداخلية بمعبد إيزيس بجزيرة فيله كانت تتم عمليات العلاج بالإيحاء النفسي .

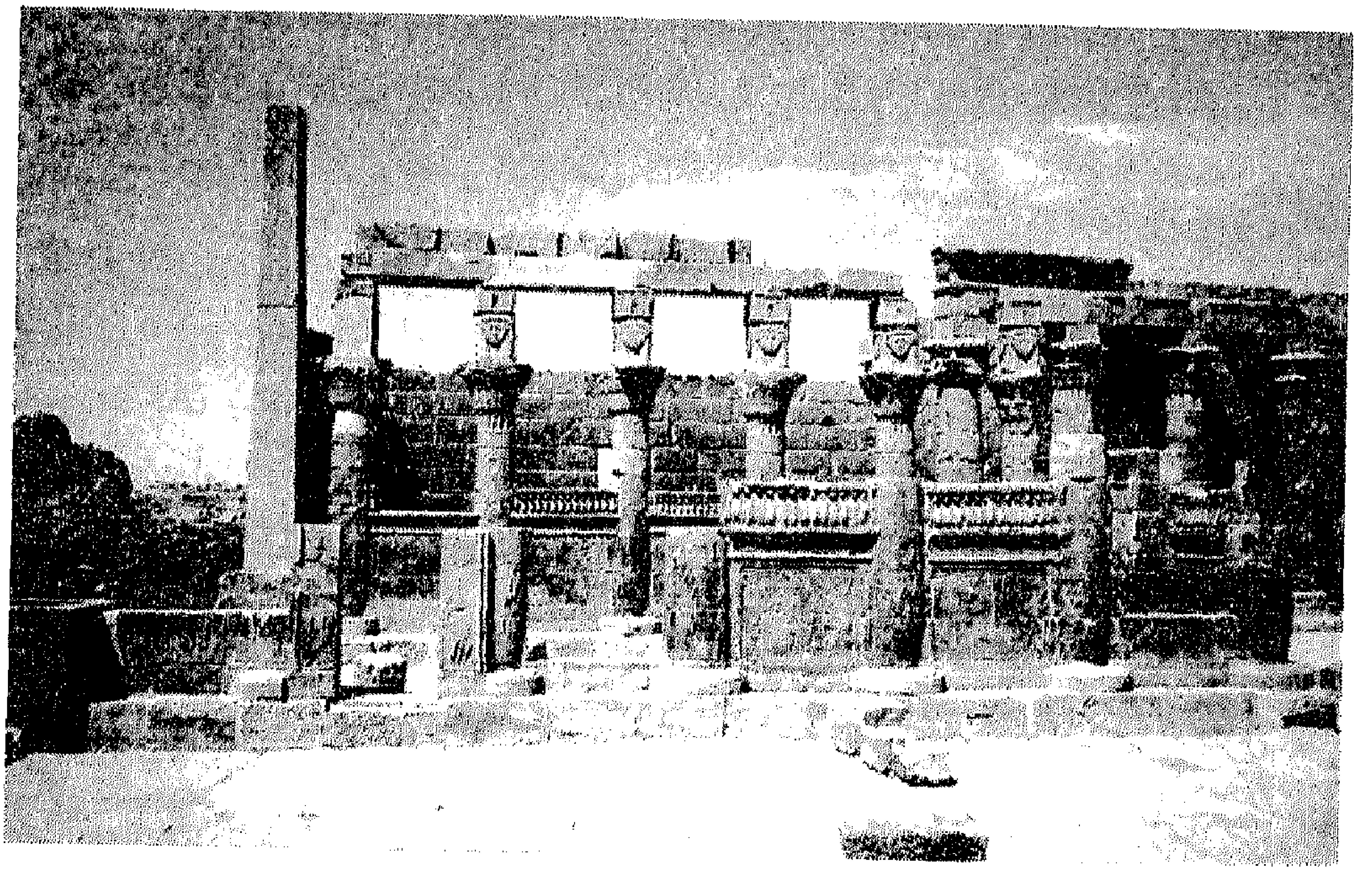

المراجع الطبية فى مكتبات المعابد

حرص المصريون القدماء منذ أقدم عصور التاريخ على تدوين خبراتهم ومعلوماتهم الطبية ، سواء على صفحات من الرق أو من ورق البردى . . وقد شاع التدوين على لفائف البردى التى كانت تعتبر كتباً مرجعية يلجأ إليها الأطباء الذين يمارسون مهنة تشخيص وعلاج الأمراض ، كما يلجأ إليها الطلاب الذين تقرر اختيارهم لممارسة هذه المهنة فى المستقبل .

● وكان كل معبد من المعابد الكبيرة والهامة فى مصر القديمة مزوداً بمكتبة شاملة تحتوى على مئات ـ وأحيانا آلاف ـ من الكتب والمراجع ذات التخصصات المختلفة ، منها الكتب الدينية وكتب العلوم الرياضية والكيماوية ، وكتب السجلات الحسابية الخاصة بالممتلكات ، إلى جانب الكتب الخاصة بالعلوم الطبية ، والكتب الخاصة بالسحر المستخدم فى علاج بعض الأمراض .

● ولم يكن من الغريب فى المجتمع المصرى القديم أن يستخدم السحر بتعاويذه ورقياته فى علاج بعض الأمراض ، خصوصاً الأمراض العصبية والنفسية ، وذلك على أساس ما كان شائعاً من أن السحر كان العلاج الذى تستخدمه الآلهة فى شفاء الأمراض . . أما الأمراض البدنية والجروح والرضوض وكسور العظام فقد كانت لها علاجات تعتمد أساساً على تركيبات دوائية تستخدم فيها المواد الكيماوية والنباتات والأعشاب الطبية وبعض المستخرجات الحيوانية .

● وكان هناك قانون صارم وملزم لجميع الممارسين لمهنة الطب بضرورة استخدام طرق ووسائل تشخيص الأمراض ووصف أدوية العلاج طبقا لما جاء فى تلك الكتب المرجعية

المدونة فى البرديات . . وكان هناك عقاب مقرر يقع على كل طبيب لم يلتزم باستخدام الوصفات الطبية المعتمدة والمدونة فى تلك الكتب .

● وخلال العصر اليونانى الرومانــى الـذى استمر نحو ألف سنة [من سنة ٣٣٢ ق م إلى سنة ٦٤٠ م] ترجمت مئات البرديات الطبية المصرية القديمة ، وانتفع بها الأطباء الإغريق الأقدمون الذين طوروا ما جاء بتلك البرديات ووضعوا أسس العلوم الطبية التى انتشرت فى أوربا . وقال العديد من المؤرخين الإغريق والرومان إن أطباء الإغريق المشهورين مثل « ثيوفراستوس » و « جالينوس » و « ديوسكوريدس » وغيرهم ، ذكروا فى كتبهم وفى المراجع الطبية التى تركوها مجموعة كبيرة من العقاقير الطبية المستخدمة فى علاج الأمراض ، وكذلك وسائل وطرق التشخيص الإكلينيكى للأمراض ، بعد أن تلقوا العلوم الطبية فى معابد مدينة « منف » . كما أكد هؤلاء المؤرخون أن العديد من العقاقير والوصفات المصرية نقلها الأطباء الإغريق وأصبحت مع مرور الزمن أساساً لعلم الأقرباذين « الصيدلة » ليس فى اليونان أو فى الإمبراطورية الرومانية وحسب ، بل وانتقلت كذلك إلى العلوم الطبية والصيدلية فى حضارات أخرى مثل الحضارة الفارسية والسيريانية والأوربية بصفة عامة .

● ويعترف المؤرخون الإغريق والرومان القدماء بأن الطب المصرى حاز شهرة واسعة فى العالم القديم بأكمله . وعلى سبيل المثال فقد قال « هيرودوت » : إن ملوك الفرس الذين غزوا مصر كانوا يستهدفون البحث عن الأطباء المصريين المهرة لنقل علومهم الطبية إلى بلاد فارس . . وقال المؤرخ الرومانى « بللينى » : إن المصريين كانوا يفتخرون بأنهم أول من وضعوا أسس العلوم الطبية . . وقال الشاعر اليونانى « هوميروس » فى الأوديسة : إن مصر بلد خصبة تخرج أرضها العقاقير الطبية الكثيرة التى لا يمكن إحصاؤها ، وبها أطباء يمتازون عن غيرهم بعلومهم ومعارفهم الواسعة .

●ولذلك فلم يكن من الغريب أن نعرف أن كلمة « كيمياء » مأخوذة عن أصل مصرى هو كلمة « كيمى » أو كلمة « شيما » . . كما أن كلمة « فارماسى» PHARMACY مأخوذة من كلمة «فارما ـ كا » التى اكتشفت منقوشة على تمثال للإله «تحوت » إله الحكمة ، وهى كلمة مصرية قديمة معناها : « الذى يمنح الصفاء » .

مدارس تعليم الطب فى مصر القديمة

ويمكن القول بصفة عامة إن المناهج التعليمية فى مصر القديمة كانت منقسمة إلى مرحلتين : مرحلة التعليم فى « بيت الحياة » وهى مرحلة تكاد تتساوى مع المراحل الأولية والابتدائية والاعدادية والثانوية فى التعليم الحديث ، حيث يتعلم فيها الطلاب أسس وقواعد الكتابة والحساب والهندسة والعلوم العامة . . ومرحلة الدراسة العليا التى تعادل مستوى التعليم الجامعى والدراسات العليا . ويلتحق الطلاب النابهون بهذه المرحلة حين يتبين للمسئولين عن التعليم مدى مواهب هؤلاء الطلاب وقدراتهم على التحصيل العلمى .

● وكانت معظم « بيوت الحياة » والمدارس العليا ملحقة بمبانى المعابد الكبرى والمعابد الهامة فى كافة المدن والأقاليم المصرية . . ويتولى التدريس فيها أعداد من الكهنة والضباط والمهندسين والأطباء المتخصصين وغيرهم من ذوى المقدرة على نقل العلوم والمعارف والخبرات إلى الطلاب والدارسين .

● وكان تعليم الطب يقوم على منهجين : المنهج الأول يتم بتلقين الطلاب بالجانب النظرى للمعلومات الطبية سواء بتدريس الطرق الخاصة بكيفية تشخيص الأمراض على نحو سليم ودقيق ، لمعرفة نوعية المرض وأعراضه الظاهرة ، وبالتالى وصف كيفية علاج هذا المرض ، سواء بالمواد الكيميائية أو بالأعشاب الدوائية أو بالدهون أو التدليك [العلاج الطبيعى] أو بغير ذلك من سبل العلاج الأخرى .

● ونكتفى بتقديم المثال التالى المأخوذ من أحد الكتب الطبية القديمة المعروف الآن

بإسم « بردية إيبرس » لنرى نموذجاً للكيفية التى كان يتم بها تدريس مبادىء التشخيص والعلاج والتكهن بسير المرض وتطوراته . . يقول النص :

ـ « عندما تفحص شخصاً يعانى من الإمساك ، ستجده يشكو من الإحساس بالامتلاء عندما يتناول طعاماً . . وستجد بطنه منتفخاً ، وقلبه يدق بضعف . . وهو يمشى مثل شخص يشكو من التهاب فى مؤخرته » .

ـ « إجعل مريضك ينام ممدداً وابدأ فى فحصه . . فإذا وجدت أن جلده ساخن وبطنه جامد ، قل له : « إن كبدك لا يعمل جيداً » .

ـ « وعليك عندئذ أن تعد له « الدواء المذكور » الذى سيريح أمعاءه . . وإذا فحصته مرة أخرى ووجدت أن الجانب الأيمن من جسده ساخن والجانب الأيسر بارد ، قل له : سوف تشفى من هذا المرض » .

ـ « وإذا زرت مريضك بعد ذلك ووجدت أن جسمه كله صار بارداً ـ بدون سخونة ـ قل له : إن كبدك أصبح يعمل مرة أخرى بطريقة جيدة وأصبح نظيفا الآن . . وإن الدواء قد فعل مفعوله » .

● ومن هذا النموذج ، وبقية النماذج الأخرى الخاصة بالأمراض الباطنية التى ذكرت فى « بردية إيبرس » نلاحظ على الفور أن الإرشادات الخاصة بتشخيص الأمراض تكاد أن تكون هى نفسها الوسائل الأساسية للتشخيص المستخدمة فى عيادات الأطباء فى عالمنا الحديث . . مثل فحص الجسم وحرارته وجس مواضع الوجع والتسمع على الصدر لمعرفة دقات القلب والفحص العام لاكتشاف أية تغيرات تكون قد طرأت على شكل أو لون أو وضع الأجزاء الظاهرة من جسم المريض مثل الجلد والشعر والأظافر والبول والبراز . . الخ .

● وإلى جانب هذا المنهج النظرى فى تعليم الطب ، كان هناك منهج عملى تطبيقى ، حيث يصحب الأطباء الكبار معهم ـ حين يمارسون فحص المرضى ـ واحداً أو أكثر من دارسى الطب أو من الأطباء الشبان الذين يتعلمون من أساتذتهم أصول ممارسة هذه المهنة .

● وكذلك الحال عندما يقوم الأطباء الكبار بالعمليات الجراحية وعمليات جبر العظام ، فيقوم بعض الطلاب أو الأطباء الشبان بعمليات المعاونة والمساعدة ، ويتعلمون فى الوقت نفسه كيفية القيام بالعمليات الجراحية بطريقة سليمة .

فى معبد الأقصر وغيره من المعابد الكبرى فى مصر ، كانت توجد إلى جانب ساحات وقاعات العبادة ، ساحات وأماكن أخرى كانت تستخدم كمدارس عليا لتعليم الطب .

أقدم كتب تعليم الطب فى تاريخ العالم

كان الأطباء المصريون القدماء حريصين على تعليم أبنائهم مهنة الطب حتى يتخرجوا أطباء وارثين حق ممارسة المهنة أباً عن جد ، تماماً مثلما يفعل الكثيرون من أساتذة الطب فى مصر الحديثة . هذا طبعا بالإضافة إلى قيام الأطباء القدامى بتعليم أصول المهنة للتلاميذ والدارسين النابهين الذين كانوا يصلون إلى مستوى التعليم العالى .

● وكما ذكرنا من قبل فإن منهج تعليم الطب كان نظرياً وعملياً . . وكان يتم فى الغالب عن طريق التلقين الشفوى للمبادىء والأسس الطبية المذكورة فى الكتب والمراجع العلمية المحفوظة فى مكتبات المعابد أو الموجودة فى حيازة كبار الأطباء . . وكانت تلك الكتب والمراجع مكتوبة فى « لفائف البَردى » . وكان أغلب الأطباء يحفظون ما دّون فيها من معلومات عن ظهر قلب . ومع ذلك فقد كان من اللازم الرجوع إليها والالتزام بتعاليمها باعتبارها الدستور المقدس لممارسة المهنة .

● وبطبيعة الحال فقد كانت هناك مئات من تلك الكتب المرجعية ، وكان كل كتاب أو مرجع منها منسوخاً فى عدة نسخ طبق الأصل ، يتم تداولها بين الأطباء والدراسين فى مختلف الأقاليم المصرية . ولسوء الحظ فقد ضاعت تلك النسخ ضحايا لعوادى الزمن ومرور آلاف السنين . . ومع ذلك فقد تم العثور على بعض تلك الكتب المدونة فى لفائف البردى ، وكان أغلبها ممزقاً ومشوهاً فيما عدا ثمانية من تلك الكتب يطلق عليها المؤرخون اسم « البرديات الطبية » . وقد سميت كل بردية منها بإسم

مكتشفها أو ناشرها أو مترجمها أو مشتريها أو اسم المدينة أو المتحف المحفوظة فيه أو اسم القرية أو المنطقة المصرية التى عثر فيها على البردية .

● ومن المدهش حقاً أن المؤرخين الإغريق والرومان القدماء أقروا بأن فطاحل الأطباء الإغريق الذين وضعوا أسس وقواعد علوم الطب فى اليونان القديمة قد تعلموا مهنة الطب فى مصر على أيدى أطباء مصريين ودرسوا البرديات الطبية المصرية التى كانت متداولة فى عصرهم ، وأن الغالبية العظمى من المعلومات الطبية التى توصلوا إليها مأخوذة ومنقولة من البرديات الطبية المصرية نقلاً مباشراً ، وأن جميع الأسس والقواعد الطبية التى توصل إليها الأطباء الإغريق القدامى قد انتقلت بدورها إلى أطباء القرون الوسطى فى أوربا وأصبحت دستوراً لممارسة مهنة الطب وتعاليمه حتى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

● وبالنظر إلى الأهمية العلمية والتاريخية والأثرية لتلك الكتب الطبية الثمانية ، نشير فيما يلى إلى توثيق مختصر غاية الاختصار عن كل بردية من هذه البرديات الطبية :

- بردية « إيبرس » : عثر عليها بالاقصر عام ١٨٦٢م واشتراها عالم الآثار الألمانى إيبرس . ومحفوظة حالياً بمتحف لايبزج . ويرجع تاريخها إلى عام ١٥٥٠ ق م ، وبها نص مكتوب يؤكد أن الأصل المنقولة عنه يرجع تاريخه إلى عصر الأسرة الأولى حوالى عام ٣١٠٠ ق م . وتحتوى البردية على ٨٧٧ وصفة طبية .

- بردية « هيرست » : عثر عليها بدير البلاص بالصعيد عام ١٨٩٩م واشتراها الدكتور ريزنر عام ١٩٠١ وأهداها إلى جامعة كاليفورنيا ، ويرجع تاريخها أيضا إلى عام ١٥٥٠ ق م وتحتوى على ٢٦٠ وصفة طبية .

- بردية « برلين » : عثر عليها فى أواخر القرن ١٩ ، ويرجع تاريخها إلى عام ١٣٥٠ ق م ، وتحتوى على ٢٤٠ وصفة طبية .

- بردية « إدوين سميث » : وتعتبر أهم كتب الطب المصرية القديمة ، ويبلغ طولها نحو خمسة أمتار بعرض ٣٣ سم . وعثر عليها بإحدى مقابر الأقصر عام ١٨٦٢م واشتراها إدوين سميث وأهدتها ابنته إلى الجمعية التاريخية بنيويورك . وتتضمن معلومات هامة عن عديد من الأمراض والعلاج بالعمليات الجراحية .

ـ بردية « لندن » : وتتضمن وصفات طبية منقولة عن بردية إيبرس ، ويرجع تاريخها إلى عام ١٣٥٠ ق م .

ـ بردية « كاهون » : عثر عليها عالم الآثار « بترى » بمنطقة اللاهون بالفيوم عام ١٨٨٩م ويرجع تاريخها إلى عام ١٩٠٠ ق م وبها وصفات طبية لمعالجة أمراض النساء والولادة . وبها أيضا قسم بيطرى لعلاج الحيوانات .

ـ بردية « إرمان » : ويرجع تاريخها إلى حوالى عام ١٥٥٠ ق م وتتضمن قائمة بأسماء أعضاء الجسم البشرى وأحشائه الداخلية .

ـ بردية « شستر بيتى » : ويرجع تاريخها إلى حوالى عام ١٢٠٠ ق م وتتضمن وصفات طبية للعلاج الجراحى لأمراض الشرج .

جزء من بردية إيبرس

مصر القديمة .. رائدة التخصص فى الطب

قال « هيرودوت » فى حديثه عن مصر : « إن فن الطب موزع بين المصريين توزيعاً مبنياً على الحكمة ، فلا يمارس الطبيب إلا فرعاً واحداً فقط من فروع الطب . والأطباء فى مصر كثيرون جداً . . منهم أطباء للعيون وأطباء للرأس وأطباء للأسنان . . ومنهم أطباء لعلاج أمراض البطن وما يجاورها من أعضاء الجسم ، ومنهم أطباء لعلاج الأمراض الداخلية » .

● هذا الذى قاله هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد كان تحصيل حاصل لواقع مصرى يرجع تاريخه إلى آلاف سابقة من السنين على عصر هيرودوت . . فهناك الكثير من الشواهد الأثرية التى يرجع تاريخها إلى عصر بناة الأهرام [الأسرات من الثالثة إلى السادسة ـ ٢٨٠٠ ق م وما بعدها] تؤكد بصفة قاطعة أن التخصص فى ممارسة فروع الطب المختلفة كان الطابع العام لممارسة مهنة الطب فى ذلك العصر .

● وكان السبب فى ذلك التخصص هو التقدم الهائل الذى حققه المصريون القدماء فى المعارف والعلوم الطبية ، الأمر الذى كان يتعذر معه أن يقوم طبيب واحد بممارسة العلاج من كافة أنواع الأمراض وأشكالها . وقد أدت هذه المعرفة الواسعة إلى حتمية التخصص . . تماماً مثلما حدث فى وقتنا الحاضر عندما كثرت المعلومات الطبية ووسائل الفحص الإكلينيكى من تحاليل وأشعات ، الأمر الذى استوجب ضرورة التخصص بين الأطباء المحدثين على النحو الذى نعرفه الآن .

● وتماماً مثلما يحدث اليوم من تقسيم الأطباء إلى درجات متفاوتة حسب أقدمياتهم

وتخصصاتهم وما حققوه من خبرات . . كأن يكون هناك أطباء عموميون أى ممارسون عموميون ، وأطباء متخصصون فى علاج أنواع معينة من الأمراض ، وأطباء استشاريون ورؤساء أقسام بكليات الطب ومديرو مستشفيات ووزير للصحة إلى غير ذلك من مختلف الدرجات الطبية ، كان الأطباء فى مصر القديمة مقسمين أيضا إلى درجات مماثلة لكادر الموظفين العموميين ، أو كادر كهنة المعابد ، أو كادر الرتب العسكرية لضباط الجيش . . وتدل الشواهد الأثرية على وجود أربع درجات واضحة لتقييم درجات من كانوا يمارسون مهنة الطب فى مصر القديمة . كانت أولى هذه الدرجات هى درجة الطبيب العام أو الممارس العام الذى لم يكن متخصصاً فى فرع معين من فروع الطب . . تليها درجة الطبيب المتخصص ، ثم درجة كبير الأطباء ، ثم درجة رئيس الأطباء أو الرئيس الأعلى لأطباء الوجهين القبلى والبحرى .

● وكان النابغون من هؤلاء الأطباء يعينون عادة فى القصر الملكى . . وقد عثر على نقوش فى بعض مقابرهم تدل على حرصهم على ذكر وظيفتهم العليا ولقبهم الشرفى بأنهم كانوا « رؤساء الأطباء بالقصر الملكى » . الأمر الذى نفهم منه أن الأمل الأكبر للطبيب المصرى القديم هو الوصول إلى لقب « طبيب السراى » . . كذلك الحال بالنسبة لحكام الأقاليم المصرية فى الوجهين القبلى والبحرى ، حيث كانت حاشية كل حاكم من هؤلاء الحكام تضم مجموعة من الأطباء بدرجاتهم المختلفة ليقوموا بعلاج الحاكم أو الأمير وأفراد أسرته وبقية أعضاء حاشيته بالإضافة إلى علاج الأتباع والخدم وعمال المصانع وفلاحى الحقول الزراعية .

● كما كان من المعروف أن مجموعات العمال الذين كانوا يكلفون ببناء المنشآت المعمارية الضخمة ، وبعثات عمال المناجم فى سيناء والصحراء الشرقية كانت تضم عدداً مناسباً من الأطباء المتخصصين فى مختلف فروع الطب لمعالجة ما قد يطرأ على العمال من أمراض أو إصابات بالجروح . . كما كان هناك أطباء ملحقون بالمعابد لمعالجة الجمهور بالمجان ، بالاضافة إلى الأطباء الذين كانوا يلحقون بالوحدات والثكنات العسكرية ويصاحبون الحملات الحربية أينما توجهت .

● ومن المدهش أن بعض علماء التاريخ المصرى القديم الذين كتبوا دراسات

مستفيضة عن تاريخ الطب فى مصر القديمة ، ومن أشهرهم « الدكتور يونكهير » ، الذى استطاع اعداد قائمة بأسماء اثنين وثمانين طبيبا من أطباء مصر القديمة الذين عاشوا فى العصور التاريخية المختلفة وذكرت أسماؤهم فى الآثار . . وكانوا مقسمين إلى أربع طوائف هى : طائفة الأطباء العموميين ، وطائفة الأطباء المتخصصين ، وطائفة رؤساء الأطباء ، وطائفة أطباء القصور الملكية .

المؤرخ الإغريقى « هيرودوت » .

أول من عرفوا علم التشريح ..
ومكونات الهيكل العظمى لجسم الانسان

يقول علماء اللغات الذين درسوا اللغة المصرية القديمة والطرق الثلاث لكتابتها [الهيروجليفية والهيراطيقية والديموطيقية] كما يقول علماء ومؤرخو الطب المحدثون إن لغة قدماء المصريين كانت تحتوى على مئات من الأسماء التشريحية لأعضاء الجسم البشرى الداخلية والخارجية .

● ومما لا شك فيه أن حرص المصريين القدماء على تحنيط الموتى طبقا لعقيدة الخلود التى كانوا يؤمنون بها قد أتاح لهم معرفة طبية واسعة النطاق . وكان هذا التحنيط الوسيلة العلمية والعملية لمعرفة الأعضاء والأجهزة الداخلية للجسم البشرى ، حيث كان الأمر يقتضى فتح جسم الميت وإخراج أحشائه البطنية والصدرية وإخراج المخ من الجمجمة عن طريق الأنف .

● ولا شك أيضا فى أن ممارسة هذه العمليات التشريحية أهلتهم لمعرفة وظائف الأعضاء الداخلية للجسم البشرى ، فقد عرفوا الوظيفة الأساسية للقلب وما يتصل به من أوعية تتفرع إلى سائر أنحاء الجسم . . وعرفوا أن نبض القلب هو « كلامه الداخلى » وأن النبض هو دليل وجود هذه الأوعية فى سائر أنحاء الجسم . . ولذلك فقد اعتبروا القلب أهم أعضاء الجسم ، وذكروا أنه مركز الانفعال . . ومن الجائز أن كل هذه الاعتبارات هى التى منعت المحنطين من فصل وإخراج القلب من جسم الميت أثناء التحنيط .

● ونتيجة للمعارف الطبية المتراكمة على مدى مئات السنين والتى حصل عليها الأطباء المصريون القدماء نتيجة لقيامهم بعمليات التشريح وعمليات الفحص الإكلنيكى للعديد من الأمراض ، عرفوا أن الجسم البشرى يتكون من الهيكل العظمى ، والجهاز الهضمى ، والجهاز التنفسى ، والجهاز الدموى [الدورة الدموية والأوعية الدموية من شرايين وأوردة] ، والجهاز البولى ، والجهاز التناسلى للذكور والجهاز التناسلى للاناث ، والجهاز العضلى ، والجهاز الغددى ، والجهاز العصبى ، والجهاز البصرى ، والجهاز السمعى والتوازنى ، وجهاز الشم .

● ولكى نتعرف على مدى المعارف الطبية التشريحية الواسعة التى كانت متاحة لدى أطباء مصر القديمة والتى مارسوا العلاج الطبى على أساسها ، نذكر فيما يلى ما ذكره علماء ومؤرخو الطب المحدثون عن بعض أسماء ومكونات « الهيكل العظمى » كما وردت بالبرديات الطبية المصرية القديمة مع ذكر مسمياتها العلمية الحديثة :

● « باقت » العظم الجدارى . . « جما » العظم الصدغى . . « أوجيت » الفك السفلى . . « ببو » الترقوة . . « مشعقت » اللوح الكتفى . . « تس ن بسد » العمود الفقرى الظهرى . . « جاب » عظمة العضد . . « نبحو » العمود الفقرى العجزى . . « منت » عظمة الفخذ . . « سوت » عظمة القصبة . . « تس ن نحبت » العمود الفقرى العنقى . . «حن» الأضلاع . . « زازا » الرأس . . « زننت » الجمجمة . . «هنن تب » صندوق الجمجمة . . « دهنت » عظمة الجبهة . . « مكحا » مؤخرة الرأس .

● ويقول علماء ومؤرخو الطب المحدثون إن من المؤكد أن الأطباء المصريين القدماء قد عرفوا بقية أجزاء ومكونات الهيكل العظمى للانسان التى يعرفها الطب الحديث ، ولكن للأسف لم يتم العثور حتى الآن على برديات طبية مصرية أثرية كتبت فيها الأسماء القديمة لعظام « العصعص » و « العظم الوركى » و « عظمة الشظية » و « عظمة العقب » و « عظمة الزند » و « عظمة الكعبرة » و « رسغ اليد » و « سلاميات اليد » .

● وبطبيعة الحال فلم يطلق أطباء مصر القديمة كل تلك الأسماء على أجزاء

ومكونات الهيكل العظمى لجسم الانسان عبثا أو لمجرد وصف هذا الهيكل ، ولكنهم ذكروا تلك الأسماء فى البرديات الطبية بسبب ما كان يعرض عليهم من حوادث أو إصابات تتعلق بهذه الأجزاء العظمية وواجبهم فى معالجة المرضى أو المصابين إما بعمليات تجبير العظام أو بالتدخل الجراحى إذا اقتضى الأمر .

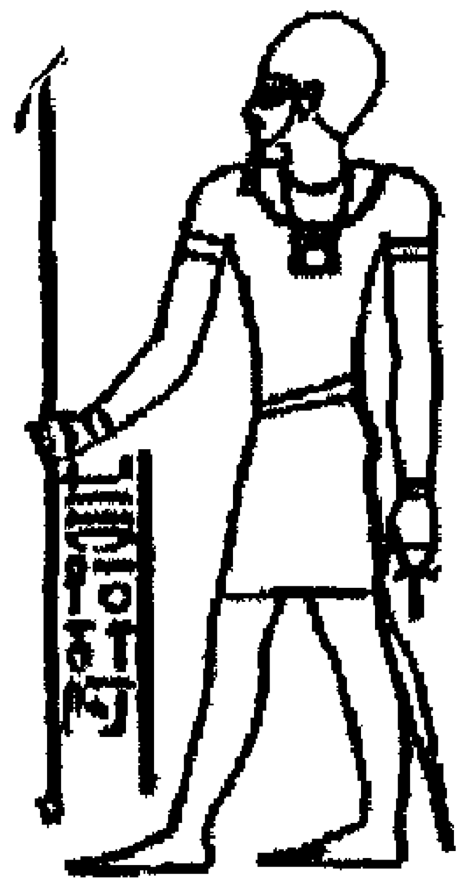

أقدم كتاب جراحة فى العالم

وتدل الشواهد الأثرية التى يرجع تاريخها إلى عصر الدولة القديمة [فى القرن الثلاثين قبل الميلاد] على أن عملية ختان الذكور هى أقدم العمليات الجراحية التى صورها المصريون القدماء فى النقوش الجدارية التى زينوا بها جدران بعض المقابر التى يرجع تاريخها إلى ذلك العصر .

● ويقول بعض العلماء ومؤرخى الطب إن من المؤكد أن المصريين قد عرفوا يقيناً كيفية إجراء بعض العمليات الجراحية قبل عصر الدولة القديمة بمئات السنين ، والدليل على ذلك مالاحظوه فى بعض المومياوات من آثار لعمليات جراحية أجريت لها أثناء حياة أصحابها ، خصوصاً بالنسبة لعمليات التربنة وعمليات جراحة العظام .

● وفى عام ١٨٦٢ م عثر فى إحدى مقابر الأقصر على بردية طبية مصرية عرفت عالمياً باسم « بردية إدوين سميث » نسبة إلى من اشتراها . وبعد موت هذا المشترى قامت ابنته « ليونورا » بإهداء هذه البردية إلى الجمعية التاريخية بنيويورك حيث رممت وترجمت نصوصها إلى عديد من اللغات الحية ، فأحدثت دوياً هائلاً لدى كل المهتمين بتاريخ الطب فى العالم ، حيث تبين لهم بصفة قاطعة أن الطب المصرى القديم قد عرف طرقاً للعلاج باجراء العمليات الجراحية المستندة على أساس علمى سليم .

● كانت الحالات المرضية المدونة فى تلك البردية ، وكلها حالات كانت تعالج باجراء عمليات جراحية موصوفة وصفاً علمياً دقيقا ، الأمر الذى دعا عالم المصريات الشهير «بريستيد » إلى القول بأن هذه البردية تعتبر « أقدم كتاب جراحة فى تاريخ العالم»، وبالرغم من أن تاريخ تدوين هذه البردية يرجع إلى بداية عصر الدولة الحديثة

[عام ١٥٥٠ق م] إلا أنه من المؤكد أن المعلومات التى وردت بها كانت ـ دون شك ـ معروفة بالتوارث لدى الأطباء المصريين القدماء منذ عصور أقدم بكثير من هذا التاريخ .

● وتتضمن هذه البردية أوصافاً طبية لثمانى وأربعين حالة لجراحة العظام وجراحة التجميل والجراحة العامة . وقد بلغت الدقة فى تبويب وترتيب هذه الحالات الجراحية درجة عالية من حسن التنظيم ، حيث رتبت الحالات حسب ترتيب أعضاء جسم الانسان ، بدءاً من جراحات الرأس وتدرجاً إلى جراحات الأنف والفم والفكين وفقرات الرقبة وفقرات الظهر والأضلاع والترقوة والكتف وهكذا . . كما تتضمن أيضا كيفية علاج الدمامل والبثور والخراريج وإعطاء التعليمات الإرشادية اللازمة لكيفية استئصال هذه الأورام وكيفية تصفية محتوياتها الضارة وكيفية علاج الجروح الناشئة عنها .

● ويقول العلماء ومؤرخو الطب المحدثون إن أوصاف وتشخيص الحالات المرضية التى دونت فى هذه البردية مكتوبة بلغة سهلة تتجنب التعقيدات حتى تكون فى متناول فهم الأطباء وطلاب الطب ، وذلك بالرغم من صياغتها بدقة علمية لا تختلف كثيراً عن المعلومات والقواعد المعروفة فى علوم الطب الحديثة . . مثل حالات الشلل والتبول اللاإرادى نتيجة لإصابة العمود الفقرى ، وحالات الإصابة بالصمم نتيجة لكسر فى عظمة الصدغ . . الخ .

● وتتضمن البردية منهجاً علمياً وأخلاقياً فى كيفية تنفيذ التعليمات التى يجب أن يتبعها الطبيب الجراح فى كل حالة تعرض عليه . . فهى تبدأ بعنوان الحالة فتقول : تعليمات بشأن حالة «كذا» . . وبعد ذلك تذكر وصف الحالة وكيفية تشخيصها فتقول: إذا فحصت مريضاً به «كذا» . . ثم تذكر بعد ذلك القرار الذى يصل إليه الطبيب بعد هذا الوصف والفحص والتشخيص ، وهو قرار لا يخرج عن احتمالات ثلاثة . فإذا رأى الطبيب انه يعرف تماماً أن الجرح أو الإصابة يمكن شفاؤها فيجب عليه أن يقول: هذا المرض سأعالجه . . أما إذا كانت الحالة مشكوك فى نجاح علاجها فيجب على الطبيب أن يقول : هذا المرض سأكافحه . . وإذا كانت الحالة صعبة وميئوس من شفائها فيجب على الطبيب عندئذ أن يقول بصدق : هذا المرض لا علاج له عندى .

أمراض الجهاز الهضمى .. فى الطب المصرى القديم

منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى الآن ، قام الكثيرون من علماء المصريات بترجمات دقيقة لكل البرديات الطبية المصرية التى تم العثور عليها . . وانكب علماء ومؤرخو الطب على هذه الترجمات وقاموا بتحليل ودراسة وتصنيف المعلومات الطبية التى وردت فى هذه البرديات ، فخرجوا بنتائج لم تكن فى الحسبان ، وعرفوا بالتأكيد أن العلوم الطبية التى كانت سائدة فى مصر القديمة لا تختلف كثيرا عما وصلت إليه هذه العلوم فى العصر الحديث ، بل وتكاد تقترب من المفاهيم الطبية الحديثة فى كثير من الحالات .

● وبالتالى فقد ظهرت كتب وبحوث علمية تناولت كيفية فحص وتشخيص وعلاج جميع الأمراض التى وردت أسماؤها وأوصافها فى البرديات المصرية القديمة ، وقسموها طبقا للتصنيف العلمى الحديث إلى : الأمراض الوبائية أو المعدية . . وأمراض الجهاز الهضمى . . والجهاز التنفسى . . والجهاز الدموى . . والجهاز البولى . . والأمراض الجلدية . . والعصبية . . وأمراض العيون . . والأنف . . والأذن . . والأسنان . . والغدد . . وأمراض سوء التغذية . . وأمراض المفاصل والعظام . . والكسور والخلوع . . وأمراض النساء . . والأطفال . . والأمراض الجراحية . . والأمراض الناتجة من تأثير الحشرات المنزلية والحشرات السامة كالعقارب والثعابين .

● ونتيجة لكثرة الدراسات والبحوث العلمية التى أجراها مؤرخو الطب على البرديات الطبية المصرية القديمة ، فقد استطاع هؤلاء العلماء والمؤرخون تحديد جميع

أنواع الحالات المرضية التى ذكرها الأطباء المصريون القدماء فى البرديات الطبية التى تم العثور عليها .

● وعلى سبيل المثال بالنسبة لأمراض الجهاز الهضمى ، فقد وردت بالبرديات أوصاف وتشخصيات لعدد من أمراض هذا الجهاز منها : الإمساك والإسهال . . والقىء وعسر الهضم . . والنزلة المعوية . . وتمدد المعدة ونزيف المعدة وسرطان المعدة . . والتهاب الزائدة الدودية والتواء الأمعاء . . والديدان المعوية وثعبان البطن والدودة الشريطية والانكلستوما . . وجرح الشفة العليا .

● وتدل البرديات الطبية أيضاً على أن الأطباء المصريين القدماء قد عرفوا ووصفوا الغالبية العظمى من أجزاء وأعضاء ومكونات الجهاز الهضمى للإنسان ، وأطلقوا على كل عضو إسماً محدداً . . فالأحشاء مثلاً اسمها «إيس» و « إمى خت » . . والفم اسمه « رو» . . والمرىء اسمه «حنجج» . . واللعاب اسمه « مويت رو » . . والأسنان القواطع والانياب والضروس اسمها «إبحو» و « تست» و « نحزوت » . . واللسان اسمه « نس » والشفة اسمها « سبت » والمعدة اسمها « را ـ إب» . . والبلعوم اسمه «خخ» والحجاب الحاجز اسمه « نت نت » . . والأمعاء الدقيقة والغليظة اسمها «مختو» و «قاب» والمستقيم اسمه « قاب معا » . . وفتحة الشرج اسمها « بحويت» .

● ومن نماذج وصف وتشخيص بعض أمراض الجهاز الهضمى التى وردت بالبرديات الطبية المصرية وصف لتشخيص حالة «تلبك معدى» على النحو التالى: «أعراض هذا المرض الإمساك والغازات وكركرة المعدة . . فإذا فحصت مريضاً يشكو من ألم بِفُم معدته وكل أعضائه ثقيلة . . فضع يدك على فم معدته ، فإذا وجدتها تطبل ـ أى منفوخة ـ أو تروح وتجىء تحت أصابعك ، فقل عن هذه الحالة إنها تلبك معدى . . وعندئذ اجعله يفرغ أمعاءه » .

● كذلك فقد وردت تشخيصات أخرى عن «النزلة المعوية » منها أن يشكو المريض بثقل فى جسمه وألم فى معدته وشعوره بالبرد ويعانى من الظمأ ليلاً . . ويشعر بالتعب كمن سار كثيراً . . وإذا جلس ليتبرّز ثقل شرجه ولا يخرج برازه . . إلى آخر ما ورد

بالبرديات من تشخيصات أخرى لكافة الأمراض التى يمكن أن تصيب الجهاز الهضمى للإنسان . . وبطبيعة الحال فقد نصت البرديات على كيفية علاج كل مرض من هذه الأمراض باستعمال أدوية معينة على شكل شراب أو لبوس أو حبوب . . وهى أدوية قد تكون مركبة من مواد كيماوية أو من أعشاب أو نباتات طبية . . كما نصت البرديات أيضاً على تحديد عدد المرات أو عدد الأيام التى يجب أن يستمر فيها المريض ويداوم على تعاطى الدواء حتى يتم الشفاء .

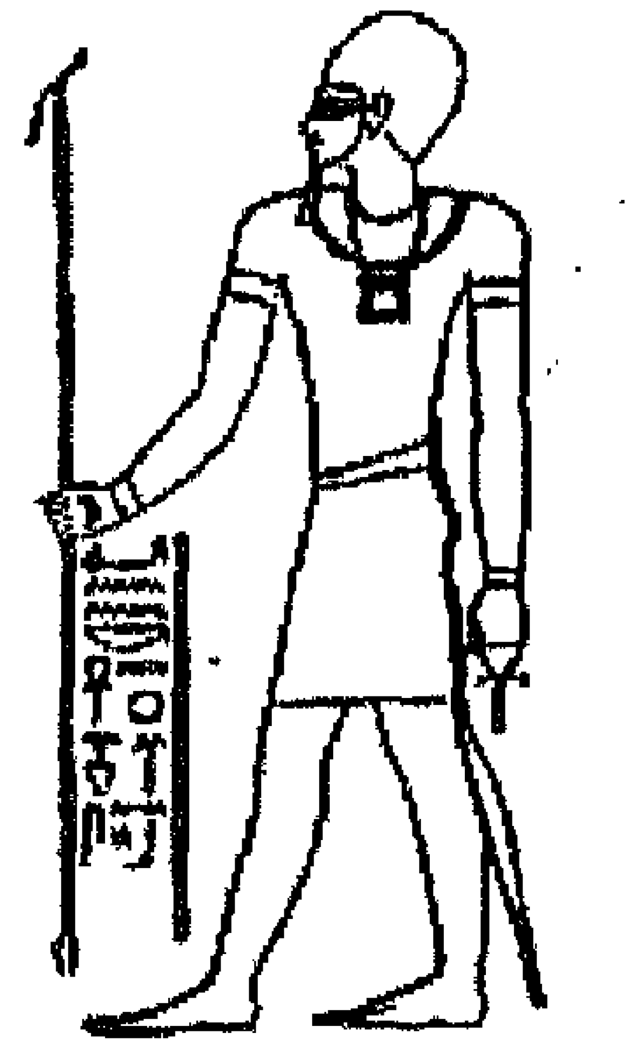

وأمراض القلب والجهاز الدموى

فى عام ٣٠٠ قبل الميلاد ولد الطبيب الإغريقى السكندرى «هيروفيلوس» الذى عاش فى مصر وتعلم فيها أصول الطب . ويقول مؤرخو الطب أن «هيروفيلوس» هو أول طبيب فى العالم نسبت إليه عملية « عد نبض القلب » اعتماداً على الساعة المائية التى ابتكرها المصريون القدماء لقياس الزمن منذ مئات من السنين سابقة على عهده .

● ويقول المؤرخون إن البحوث الطبية التى أجراها وكتبها هذا الطبيب الإغريقى تدل على أنه أوشك أن يكتشف الدورة الدموية ، بل ويؤكد بعض المؤرخين انه اكتشفها فعلاً ولكنه لم يستطع وصفها بطريقة واضحة .

● غير أن بعض المؤرخين المنصفين الذين درسوا نصوص البرديات الطبية المصرية دراسة تحليلية متأنية ـ ومنهم بريستيد فى كتابه عن «بردية إدوين سميث » ـ يرون أن من المحتمل ومن غير المستبعد أن الأطباء المصريين القدماء الذين توصلوا إلى معرفة نبض القلب وأطلقوا عليه اسم « كلام القلب» وذلك عند قيامهم بفحص المرضى وتشخيص ما يعانونه من أمراض ، لم يكونوا عاجزين عن معرفة مدى سرعة أو بطء نبضات القلب باستخدام آلة قياس الزمن . . كما أثبت هؤلاء المؤرخون أن البرديات الطبية المصرية ورد ببعضها [خصوصاً بردية إدوين سميث] ما يدل بصفة قاطعة على أن أطباء مصر القديمة كانوا يعتبرون القلب صاحب القوة المركزية بجسم الإنسان ، وأن حركته فى انقباضه وانبساطه هى التى تقوم بتغذية جميع أطراف وأعضاء وأجزاء الجسم وتزويدها بالدم .

● وفى البردية الطبية المصرية المعروفة عالمياً باسم « بردية إيبرس» نجد تفصيلاً علمياً دقيقاً عن جميع الأوعية الدموية « الشرايين والأوردة» التى تصل بين القلب وجميع أعضاء الجسم مثل الرأس والذراعين والساقين والمعدة والرئتين والكبد والأنف والأذنين والعينين والخصيتين وكافة الأعضاء الداخلية الأخرى مثل الطحال والمرارة والمثانة . . الخ .

● ومن المعلوم فى علوم الطب الحديثة أن القلب عضو خفى بداخل القفص الصدرى ، ولذلك فهو يستعصى على الفحص بالجس أو بالعين المجردة ، الأمر الذى جعل التعرف على الأمراض التى تعتريه يكون عادة بطريق غير مباشر . . أو باستعمال الأجهزة التكنولوجية الحديثة كالأشعة السينية أو بأجهزة رسم القلب. ولذلك يمكن القول بأن معرفة أطباء مصر القديمة بأمراض القلب كانت معرفة محدودة إلى حد كبير .

● ومع ذلك يقول مؤرخو الطب إن الأطباء المصريين القدماء استطاعوا معرفة وتشخيص الكثير من أمراض القلب والجهاز الدموى ، ووصفوا أعراضها وطرق علاجها ، وعلى سبيل المثال فقد عرفوا الأمراض التالية :

● الذبحة الصدرية : ورد بالبرديات الطبية وصف وتشخيص لها ، وأطلقوا عليها اسم « مرض واز» وأعراضه هى شعور المريض بضيق فى منطقة فم المعدة وبآلام فى ذراعه وصدره . وعندئذ يجب أن يقول الطبيب أن المريض مهدد بالموت ، ويجب أن يبذل أقصى سرعة فى علاجه .

● وبالنسبة لبعض أمراض القلب الأخرى وأمراض الأوعية الدموية وردت فى بعض البرديات الطبية القديمة أوصاف وتشخيصات لبعض هذه الأمراض مع التوصيات الخاصة بكيفية علاجها سواء بالأدوية أو بالجراحة . . ومنها مرض « الارتشاح المتنقل» الذى يعتبر من أهم أعراض فشل القلب ، وعرفوا أن هذا الارتشاح يمكن أن يزول إذا لزم المريض الراحة التامة دون أى حركة وانه يعود مرة أخرى إذا بذل المريض أى مجهود . . كما نصت البرديات أيضاً على كيفية إيقاف النزيف الدموى . . ونصت أيضاً على وصف أعراض «تخثر الدم» الذى يؤدى إلى سد الوعاء الدموى وتورم العضو المصاب به

من أعضاء الجسم . . وكذلك وصف مرض « تصلب الشرايين» . . و«فتق الوعاء الدموى» . . وأمراض الأوردة الأخرى كدوالى الساقين والبواسير . . وتيبّس الأوعية الدموية المتصلة بالمخ والتى قد تؤدى إلى ضعف الذاكرة وتعرض المريض إلى الإصابة بالجلطة المخية .

آنية من الألبستر كانت تستخدم كساعة مائية لقياس الزمن ولقياس ضربات القلب .

العيون الصناعية .. وأمراض العيون الطبيعية

فى عام ١٩٢٦ م انعقد فى نيوزيلاندا المؤتمر الخامس لجمعية العيون الدولية ، وفى هذا المؤتمر قدم الدكتور «رولاند ولسون» بحثاً علمياً مستفيضاً عن «العيون الصناعية فى مصر القديمة» . وجاء فى هذا البحث شرح تفصيلى عن الجهود التى كان يبذلها العالم الحديث فى العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين لجعل « العيون الصناعية» مطابقة فى مظهرها للعيون الطبيعية ، وذلك للوفاء بحاجة بعض الذين فقدوا عيونهم لسبب من الأسباب ويرغبون فى تركيب عيون صناعية للمحافظة على مظهرهم العام . وأشار الباحث إلى أنه بالرغم من التقدم التكنولوجى الهائل فى صناعة هذه العيون الصناعية ، إلا أن هذه العيون لم تبلغ درجة الاتقان التى وصل إليها قدماء المصريين فى تصنيع العيون .

● وأشار الباحث إلى أن المصريين القدماء فى مختلف عصور وحقبات التاريخ المصرى القديم تفننوا فى صناعة العيون الصناعية لتركيبها فى مكان العيون الطبيعية بالمومياوات أثناء التحنيط أو لتركيبها فى الأقنعة الكرتونية التى كانت توضع على وجوه المومياوات أو لتركيبها فى التوابيت أو فى التماثيل المنحوتة من مختلف أنواع الأحجار . . ولم يشر الباحث إلى أى دليل قاطع على أن المصريين القدماء قد قاموا بتركيب مثل هذه العيون الصناعية لأشخاص من الأحياء .

● ومع ذلك فقد أشار الدكتور رولاند ولسون إلى وجود عين صناعية من آثار مصر القديمة معروضة فى متحف جامعة لندن ، وأن هذه العين قد تناولتها الدكتورة م .

ماري ـ وهى إحدى أساتذة طب العيون بالجامعة ـ بالدراسة من حيث الشكل والحجم ودوران الحافة ، وانتهت إلى القول باحتمال أن تكون هذه العين الصناعية كانت مستعملة فى إنسان حى .

● ويدل التركيب الصناعى لعديد من العيون الصناعية الأثرية المعروضة فى المتحف المصرى بالقاهرة وفى عديد من المتاحف العالمية على أن قدماء المصريين لم يتمكنوا من صنع هذه العيون بهذا المستوى من الدقة إلا بعد أن عرفوا تماماً تشريح العين وجميع الأجزاء التى تتكون منها كالجفون والأهداب والصلبة والقرنية وإنسان العين والحدقة والقزحية وحليمة المآقى الداخلية والخارجية والثنيات النصف هلالية وهى نفسها الأجزاء التى توصل إليها تشريح العين فى الطب الحديث .

● وفى ضوء هذا التشريح الطبى الدقيق للعيون الطبيعية الذى استرشد به قدماء المصريين فى تصنيع العيون الصناعية ، يقول مؤرخو الطب المحدثون الذين ترجموا البرديات الطبية المصرية إن أطباء مصر القديمة قد صنفوا عدداً كبيراً من الأمراض التى تصيب العيون الطبيعية وشخّصوها تشخيصاً دقيقاً ، ووصفوا لكل مرض العلاج المناسب له .

● وعلى سبيل المثال فقد وصفوا مرضاً أطلقوا عليه اسم « نحات» وهو المرض المعروف فى الطب الحديث باسم « التراخوما» أى الرمد الحبيبى ، ووصفوا بدقة حالته الخفيفة حين يحس المريض بما يشبه دخول الرمل إلى عينيه ، وحالته الشديدة التى يصحبها ألم وإفراز واحتقان وإحساس بفزع من الضوء ، وهى الحالة التى تؤدى إلى تعتيم القرنية . وهو المرض الذى يقول عنه عوام المصريين «نزلت على عينه نقطة » .

● كما ورد فى البرديات الطبية المصرية أيضاً تشخيص لمرض «تقرح الجفون» . . ومرض «الشطرة الخارجة والشطرة الداخلة » الذى يؤدى إلى انقلاب الجفن إلى الخارج وحدوث حكة شديدة بأهداب العين . . ومرض «ضعف الإبصار» و«العشى الليلى» . . ومرض «الكتاركتا» أى سقوط الماء فى العين الذى يؤدى إلى عتامة العدسة ، وعرفوا أنه يعتبر من أمراض الشيخوخة أو كعارض من أعراض مرض البول السكرى ، أو انه

يحدث بسبب إصابة عدسة العين نفسها . . كذلك ورد وصف وتشخيص لمرض «خضرة العين» المعروف حديثاً باسم « الاجليكوما» وهو مرض يؤدى إلى العمى إذا أهمل علاجه .

● ونصت البرديات المصرية أيضاً على الكيفية الخاصة بعلاج كل مرض من هذه الأمراض، سواء بالجراحة أو باستعمال الأدهنة والمراهم أو بوصف أكلات معينة للمرضى مثل نصحهم بأكل «كبد الثور المشوى » وهى نصيحة صحيحة فمن المعروف الآن أن الكبد غنى بفتامين « أ » الضرورى لعلاج بعض أمراض العيون . . كذلك فقد نصحوا باستعمال أنواع من القطرة السائلة لقطرها بداخل العيون المريضة بقطارة طبيعية هى ريشة مجوفة من ريش النسر .

رأس تمثال الأميرة نفرت وقد استخدمت فيه عيون صناعية .

أمراض الجهاز البولى

تولى العلماء ومؤرخو الطب الأجانب - فى الكتب والمراجع التى نشروها عن تاريخ الطب عند قدماء المصريين - ترجمة جميع البرديات الطبية المصرية التى عثر عليها حتى الآن . وقام علماء آخرون بدراسة تلك الترجمات دراسة علمية صنفوا فيها جميع أنواع الأمراض التى وردت قواعد تشخيصها وطرق علاجها مدونة فى تلك البرديات . ومن المدهش أن هذا التصنيف يدل على مدى ما بلغه أطباء مصر القديمة من دقة وخبرة عالية فى تحديد وتشخيص الأمراض التى يمكن أن تصيب أجهزة الجسم البشرى بشكل يكاد يقترب من تحديد وتشخيص هذه الأمراض كما تنص عليه علوم الطب الحديث .

ونعرض فيما يلى موجزاً لأنواع الأمراض التى تصيب الجهاز البولى والتى ورد ذكرها فى البرديات الطبية الأثرية .

● نتيجة لعملية إخراج الأحشاء الداخلية من جسم المتوفى عند القيام بعملية التحنيط ، عرف قدماء المصريين أن الجهاز البولى جهاز متكامل ويتكون من كليتين يمنى ويسرى ، وحالب يخرج من كل كلية يقوم بتوصيل البول الذى تفرزه الكلية إلى المثانة ، وهى العضو الذى يتجمع فيه البول توطئة لاخراجه عن طريق المجرى البولى .

● وتدل التشخيصات الطبية التى وردت بالبرديات على أن أطباء مصر القديمة عرفوا الارتباط بين إفراز البول وإفراز العرق من جسم الإنسان ، وعرفوا أن غزارة العرق بشكل غير طبيعى يدل على إصابة الجسم بنوع من أنواع الحميات يؤدى فى الوقت نفسه إلى التقليل من إفراز البول أو قد يؤدى إلى احتباسه .

● وعرفوا أن احتباس البول يعتبر عارضاً لأنواع من الأمراض التى تصيب الكليتين أو المثانة ، أو بسبب وجود بعض الأورام التى تسبب هذا الاحتباس . وأطلقوا على مرض احتباس البول إسما هو مرض «حدبو» الذى يؤدى إلى شعور المريض بألم شديد فى المثانة نتيجة لالتهابها إما بسبب الإصابة بالبلهارسيا أو السيلان أو بسبب وجود حصوات .

● كذلك فقد شخصوا مرض «سلس البول » وهو التبول اللاإرادى تشخيصاً دقيقاً. وأرجعوا سببه إلى وجود علاقة بين هذا المرض وإصابة إحدى فقرات العنق أو إصابة فقرة أو أكثر من حلقات العمود الفقرى التى تحمى النخاع الشوكى ، وهو تشخيص سليم .

● وعرفوا أيضاً مرض «البول السكرى» وذكروا أن من أهم أعراضه كثرة شعور المريض بالظمأ ورغبته المتكررة فى شرب جرعات كبيرة من الماء لإطفاء هذا الظمأ، وذكروا أن هذا المرض مرتبط بالتحلل الداخلى الذى يصيب غدة البنكرياس .

● كما نصت إحدى البرديات الطبية على تشخيص سليم لمرض «السيلان» حيث ذكرت أن من أعراضه شعور المريض بضيق وحرقان شديد فى الأعضاء التناسلية للرجل أو المرأة بصفة مستمرة وإزدياد هذا الحرقان عند التبول . ووصفوا علاجاً له بالحقن الشرجية التى تحتوى على مواد علاجية مثل الحنظل وبراذة النحاس وزيت الإهليلج ومادة كيميائية تبين انها كبريتيد الأنتيمون .

● وورد ببردية «إيبرس» الطبية وصف لمرض الإصابة بديدان البلهارسيا التى أطلقوا عليها اسم ديدان «حرو» وعرفوا أن هذه الديدان تعيش فى المياه الراكدة . وأن من أعراض هذا المرض الخطير إصابة المريض بالبول الدموى الذى أطلقوا عليه اسم «عاعا». وورد بالبردية أيضاً أن ديدان «حرو» هذه «لا يقتلها علاج» . وفى ذلك دليل على أن أطباء مصر القديمة لم يعرفوا علاجاً نوعياً لهذا المرض الخطير .

● وتنص البرديات الطبية أيضاً على عدد من الأمراض الأخرى التى تصيب الجهاز البولى منها «التسمم البولى» المصحوب بالارتشاح ، ومن أعراضه شعور المريض

بتقلصات شديدة وضيق بمنطقة فم معدته التى تكون فى العادة منتفخة جدا . ووصف علاج لهذه الحالة بإعطاء المريض بعض الأدوية التى تؤدى إلى تخفيض الضغط الدموى وتقليل التشنجات وإحداث الإسهال مع بعض المسكنات . . كما أشارت البرديات أيضاً إلى حالات ضمور الكلى أو تقيحها أو إصابتها بالخراريج أو بتكوين الحصوات .

والأمراض الجلدية

طبقاً للتصنيفات التى أجراها مؤرخو الطب المحدثون بعد دراستهم للبرديات الطبية المصرية القديمة و تحليلهم لما ورد بها من أنواع الأمراض التى عرفها قدماء المصريين ، ووصفها أطباء مصر القديمة وصفاً طبياً دقيقاً وأوصوا بعلاجها بمختلف العقاقير . . لاحظ هؤلاء المؤرخون أن بعض «الأمراض الجلدية» قد وردت فى عدد من البرديات بأوصاف وبطرق للعلاج لاتختلف كثيراً عن أوصافها وطرق علاجها فى الطب الحديث .

● قسم أطباء مصر القديمة الأورام التى قد تصيب جلد الإنسان إلى « أورام دهنية » و « أورام ليفية » وأوصوا بعلاج هذه الأورام بالجراحة ، وكتبوا فى بردياتهم الطبية وصفات لتحسين الجلد وتجديده وتجميله .

● ولأن وجه الإنسان يعتبر عنوانا لشخصيته ، لذلك فقد كان من الطبيعى لأى إنسان مصرى قديم ينتمى لشعب يحب النظافة اليومية ويعتبرها من مظاهر الإيمان بالطقوس الدينية ، أن يعتنى ببشرة وجهه وغسلها وتنظيفها باستمرار طبقا لما جبل عليه من سليقة وفطرة طبيعية . ولكن بشرة الوجه كانت ـ ومازالت ـ تصاب بالتجاعيد نتيجة للتقدم فى العمر ، أو نتيجة لبعض الأمراض العضوية التى قد تصيب أجهزة الجسم الداخلية أو تصيب بشرة الوجه نفسها .

● ووردت فى البرديات الطبية ، وخصوصاً البردية المعروفة ببردية « إدوين سميث » ـ وقد سبق الكلام عنها ـ وصفات طبية لإرجاع الشباب وإزالة تجاعيد الوجه ، وتتضمن هذه الوصفات كيفية إعداد العقاقير التى تستخدم لعلاج التجاعيد ، منها وصفات لتحضير ومزج زيت الحلبة وزيت الإهليلج ، ومسحوق الصمغ ، ومرارة

الثور ، وزيت التربنتينا ، ومسحوق المر ، والعسل . ومن الغريب أن المصريين القدماء قد أدركوا منذ قديم الزمان فائدة الحلبة فى تجديد الخلايا وتقوية الجسم وتحسين قدرته على المقاومة ، لذلك فقد كانوا يخلطون الحلبة بدقيق الذرة عند صناعة الخبز وظلت هذه الطريقة سائدة فى مناطق الريف المصرى حتى الآن .

● وهناك العديد من الشواهد الأثرية تدل على مدى عناية المصريين القدماء بالشعر باعتباره من معايير الصحة ومن وسائل المظهر الجمالى للإنسان ، لذلك فقد ابتكروا منذ عصور ما قبل التاريخ أنواعاً من الأمشاط ، صنعوها من العاج أو من عظام الحيوان ، لتمشيط الشعر وتدليك فروة الرأس وتنشيط الدورة الدموية بجلد الرأس ، ولإزالة الحشرات والصئبان التى قد تصيب الشعر .

● ونظراً لأن الشعر قد يتغير لونه بالشيب إما بسبب كبر العمر والتقدم فى السن ، أو بسبب الصدمات أو الاضطرابات العصبية ، فقد وردت بالبرديات الطبية المصرية وصفات لتأخير تعرض الشعر للمشيب ، سواء بالنسبة لشعر الرأس أو شعر الحواجب . كما وردت وصفات أخرى لتقوية منابت الشعر ، ووصفات أخرى لإزالة الشعر غير المرغوب فيه ، والتوصية بالطرق السليمة لاستخدام الدهانات وطرق تصفيف الشعر أو حلاقته .

● أما « سقوط الشعر » فقد عالجوه بعقاقير مختلفة تساعد على تنمية الشعر وتقويته منها « زيت الخروع » وهى طريقة صحيحة مازالت مستخدمة حتى الآن ، ومنها «زيت الصنوبر » الذى ثبت بالتحليل الحديث أنه يحتوى على الراتينجات والقطران النباتى وبعض العناصر المفيدة الأخرى . كذلك وصفوا استخدام « زيت حب العزيز» باعتباره من الزيوت الملطفة ، كما وصفوا « الخلة » وبعض أنواع الزيوت والدهانات الأخرى .

● ووردت بالبرديات الطبية أيضا تشخيصات لأمراض جلدية أخرى وطرق علاجها منها حالات الالتهابات الجلدية مثل الأكزيما الجافة والأكزيما الرطبة المصحوبة بالحك والهرش . وأوصى أطباء مصر القديمة علاجاً لمثل هذه الحالات باستخدام أنواع من

المطهرات كنبيذ البلح ونبيذ العنب ، وأنواع من المسكنات مثل النشا والنطرون ولبخة الردة ولبخة الفول ودقيق الخبز والملح وزيت حب العزيز ، وأنواع من المجففات مثل مسحوق الشعير المعجون بسائل كحولى ، والعرعر ، والمر الجاف .

● ومن أغرب ما ورد فى البرديات الطبية المصرية من طرق علاج بعض الأمراض الجلدية ، التوصية باستخدام « لبخة الخبز الحامض » بصفة يومية وقد أثبت العلم الحديث أن عفن الخبز أو الخبز الحامض يحتوى على مادة من « المضادات الحيوية » مثل البنسلين . . فهل كان المصريون القدماء يعرفون هذا السر ؟! .

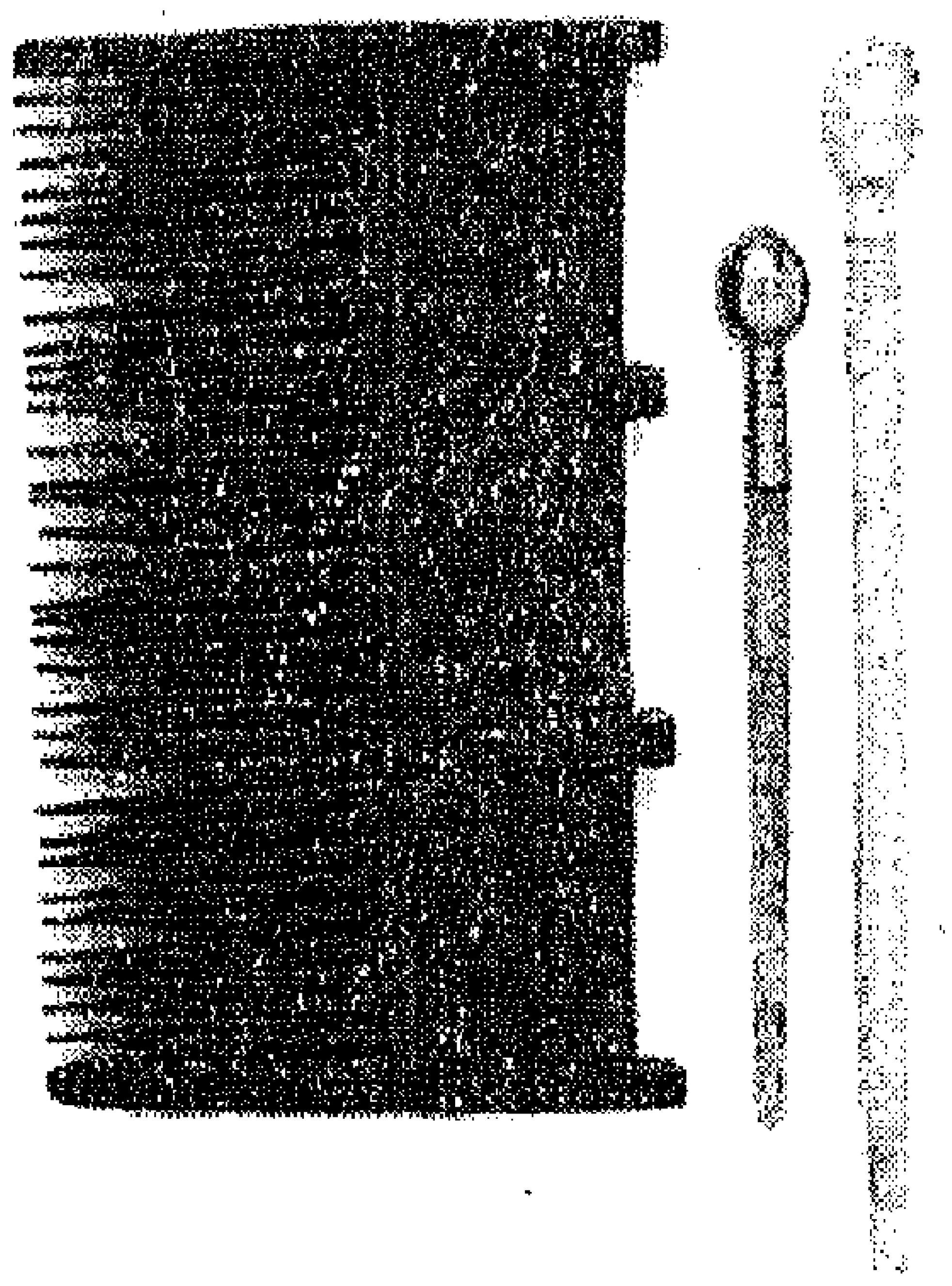

مشط ودبابيس للشعر

.. والشلل وأمراض الجهاز العصبى

ونواصل فيما يلى عرضاً للأمراض التى تصيب الجهاز العصبى كما وردت فى البرديات الطبية المصرية القديمة .

● شَخّصَ الأطباء المصريون القدماء « الشلل النصفى بالوجه » ووصفوه بأنه قد يكون نتيجة للتعرض لتيار الهواء أو نتيجة لورم أو كدم يصيب الوجه ، فيجعل المريض عاجزا عن تحريك عضلات وجهه أو تغميض عينه بالجانب الذى أصابه الشلل سواء من جهة اليمين أو من الجهة اليسرى . وفى «بردية برلين» جاء وصف لأعراض هذا المرض بظهور اعوجاج بفم المريض وانقباض فى إحدى ناحيتى الوجه .

● وورد فى «بردية إدوين سميث» تشخيص طبى دقيق للإصابة «بشلل الأطراف الأربعة» نتيجة لسقوط المصاب على رأسه ، مما يؤدى إلى تهشم فقرة عنقية أو لتدخل إحدى الفقرات العنقية فى فقرة عنقية أخرى ، فيصاب المريض عندئذ بفقد الصوت ويصبح غير قادر على الكلام ، ولا يشعر بوجود ذراعيه ورجليه .

● وورد فى «بردية إيبرس» وصف للإصابة «بالشلل النصفى لجسم الإنسان» ووصف لطريقة علاجه التى تعتمد على عمل ضمادات على الجزء الذى أصابه الشلل، تستخدم فيها مواد متعددة تشمل الخردل والزعفران والخلة والسيكران والكرفس وقطران الصنوبر والعسل .

● وورد ذكر مرض «الصرع» الذى كانوا يسمونه مرض «نسى» فى معظم البرديات

الطبية المصرية . ولكن الأطباء القدماء اعتبروه نوعاً من غضب الآلهة على الشخص المصاب به . ووصفوا أعراضه ونوباته الشديدة والخفيفة ، سواء تلك التى يصحبها صراخ يصدر من المريض حين تنتابه النوبة ، أو نوبات الصرع الأخرى التى لا يصحبها صراخ . كما وصفوا حالات الصرع العنيفة التى تصحبها التقلصات وصعوبة التنفس وتوتر عضلات الجسم واهتزازه بشدة ، والتى قد تجعل المريض يعض لسانه فيقطعه أو يصيبه بجرح بالغ .

● ونصت البرديات على عدد من الوصفات العلاجية لحالات الصرع بمختلف درجاتها مثل استعمال العصارات المسهلة والكرفس ـ الذى ثبت انه يحتوى على عصارة منبهة ومدرة للبول ـ والعرعر وعصير السنط والنبيذ ، بالإضافة إلى عدد من المواد المسكنة والمهدئة .

● وفى «بردية إيبرس» و«بردية هيرست» ورد وصف وتشخيص لمرض «الرجفة» الذى يؤدى إلى رعشة بعض عضلات الجسم وخصوصاً رعشة اليد أو الأصابع ، أو الرعشة التى تصيب عضلات الوجه أو اللسان أو القدمين ، ووصفت بأنها قد تكون رعشة شديدة أو خفيفة ، وأرجعوا أسبابها إلى الشيخوخة أو كعارض من أعراض إدمان الخمر.

● وقد تنبه الأطباء المصريون القدامى إلى أن مرض «العنة» أو «ضعف عضو التذكير» قد يرجع إلى الإصابة بعارض من أعراض الأمراض العصبية . ووصفوا لهذه الحالة علاجًا يتكون من سبعة وثلاثين عقاراً أهمها الحنظل والصنوبر والعرعر والسيكران والصفصاف والسنط والنبق والمر والملح والمغرة الحمراء والمغرة الصفراء والنطرون .

● ومن أغرب ما ورد فى البرديات الطبية المصرية محاولات أطباء مصر القديمة فى التعريف ببعض الأمراض «العقلية» . وتعتبر هذه المحاولات الاجتهادية ـ بالرغم من بدائيتها ـ أول محاولات للتعريف بمثل هذه الأمراض فى تاريخ الطب سواء فى مصر أو فى غيرها من الحضارات القديمة .

● وقد وردت إشارات فى بعض البرديات الطبية المصرية إلى مرض «النسيان»

باعتباره عارضاً من أعراض الأمراض العقلية . وقد وصف أطباء مصر القديمة المريض بالنسيان بأن «عقله غرق» وبأن «ذاكرته تركع » وبأن «عقله مظلم» وبأن « ذاكرته ماتت» . كما حددوا بعض الأعراض المرضية التى تظهر على المريض بالنسيان مثل سرعة الغضب ، وقلة رغبته فى تناول الطعام ، وإذا أكل فلا يأكل إلا أقل القليل .

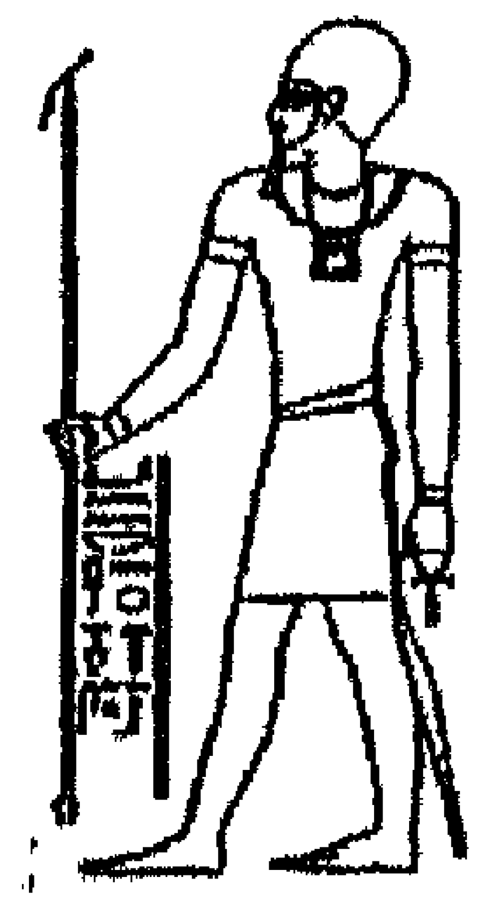

وأمراض النساء

كانت الخيرات وفيرة فى مصر القديمة . وكان انتاجها الزراعى والحيوانى يوفر الطعام لكل المصريين . وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على أن مصر لم تتعرض للمجاعة سوى مرتين طوال تاريخها القديم الذى استمر آلاف السنين ، وكان ذلك بسبب سوء حالة الفيضان فى كل حالة من هاتين الحالتين ، ولم تشكو مصر أبداً من زيادة النسل ، بل كان الحال على العكس من ذلك ، حيث كانت الدعوة إلى زيادة النسل من الأمور المطلوبة والمرغوبة .

● وكانت القوانين الاجتماعية فى مصر القديمة تحرم «الاجهاض» تحريماً قاطعاً ، إلا إذا قرر الأطباء إجراء عمليات الإجهاض لأسباب علاجية لابد من توفيرها للمرأة الحامل . وورد فى بعض البرديات الطبية المصرية القديمة ذكر عدة وصفات لعمليات الإجهاض تحت عناوين مثل : «وصفة لإفراغ الرحم» أو «وصفات لجعل مافى بطن المرأة ينزل» أو «وصفة لجعل الطفل ينفصل عن أمه» . وتتراوح هذه الوصفات ما بين استعمال الحقن المهبلية ، أو تناول بعض العقاقير التى تؤدى إلى إجهاض المرأة الحامل . كما وردت وصفات أخرى باستعمال أنواع من اللبوس المهبلى .

● كذلك فقد كانت القوانين الاجتماعية فى مصر القديمة تحرم عمليات تحديد النسل أو استخدام وسائل منع الحمل إلا إذا قرر الأطباء ذلك حفاظاً على صحة الأم . وجاءت فى البرديات عدة وصفات طبية لمنع الحمل لمدة محددة تتراوح ما بين سنة واحدة وثلاث سنوات .

● وتنص البردية الطبية المعروفة باسم «بردية برلين» على وصف أول وأقدم محاولة لمعرفة ما إذا كانت المرأة قد حملت أم لم تحمل . . ولمعرفة ما إذا كانت المرأة الحامل ستلد ذكراً أم أنثى . ويقول نص البردية : « وصفة لطريقة إثبات المرأة التى تلد والتى لا تلد» . . يستخدم شعير وقمح ترويهما المرأة ببولها كل يوم . . فإذا نبت الاثنان فإن المرأة تكون حاملاً وستلد . . وإذا نبت الشعير أولاً فإنها ستلد ذكراً . . وإذا نبت القمح أولاً فإنها ستلد أنثى . . وإذا لم ينبت هذا أو ذاك فالمرأة ليست حاملاً ولن تلد » . وبالرغم من الطابع البدائى لهذه التجربة ، إلا أن بعض الأطباء المحدثين المتخصصين فى أمراض النساء والولادة أجروا بعض التجارب المعملية حول هذه التجربة ، وأثبتوا فاعليتها فى معظم الأحوال فى معرفة حدوث الحمل أو عدم حدوثه .

● وفى بردية «إيبرس» الطبية وردت أوصاف وتشخيصات لظواهر وأعراض بعض أمراض النساء مثل : «انقطاع الحيض» و«عدم انتظام الدورة الشهرية» . ويقول نص البردية فى ذلك : « إذا فحصت امرأة تشكو من ألم بأحد جانبى بطنها من أسفل ، فقل إن ذلك نتيجة لعدم انتظام الدورة الشهرية » . . والعادة الشهرية إذا كانت مؤلمة للمرأة فإن ذلك يكون بسبب تجلط الدم فى عنق رحمها» . ووردت فى البردية أيضاً وصفة علاجية «لمنع النزيف الرحمى عند المرأة» .

● ووردت فى البرديات الطبية الأخرى عدة وصفات علاجية للأمراض التى تصيب رحم المرأة بعد تشخيصها تشخيصا دقيقا . . فقد عرف أطباء مصر القديمة مرض «سقوط الرحم» وشَخّصوه بدقة وذكروه فى البرديات الطبية تحت عناوين مثل : « انتقال الرحم من مكانه الطبيعى» و « علاج لرد الرحم إلى وضعه الطبيعى» و «علاج لجعل الرحم يعود إلى وضعه» . . و «إذا فحصت امرأة تشكو من ألم فى رجليها وفى أحد جانبيها فقل إن هذا هو مرض ـ قاهو ـ أى انثناء الرحم » .

● وقد اندهش مؤرخو الطب المحدثون من تلك الدقة التى شخّص بها أطباء مصر القديمة مجموعة كبيرة من أمراض النساء مثل : « التهاب الثدى» بجميع درجاته من تشقق الحلمة إلى الأورام التى تصيب أحد ثديى المرأة أو ثدييها معًا . . و«التهاب المهبل

وافرازاته الضارة» . . و «التهاب المثانة» خصوصاً أثناء الحمل . . و«التهاب الرحم وتقرحه» . . كما وصفوا أحد أمراض الرحم بأنه «المرض الأَكَّال للرحم» وهو وصف دقيق لمرض «سرطان الرحم» المعروف فى الطب الحديث . وبناء على تلك الوصفات والتشخيصات الدقيقة يقول مؤرخو الطب المحدثون إن أطباء مصر القديمة لابد أنهم شاهدوا الرحم وجسوه وإلا لما استطاعوا وصف وتشخيص تلك المجموعة من أمراضه .

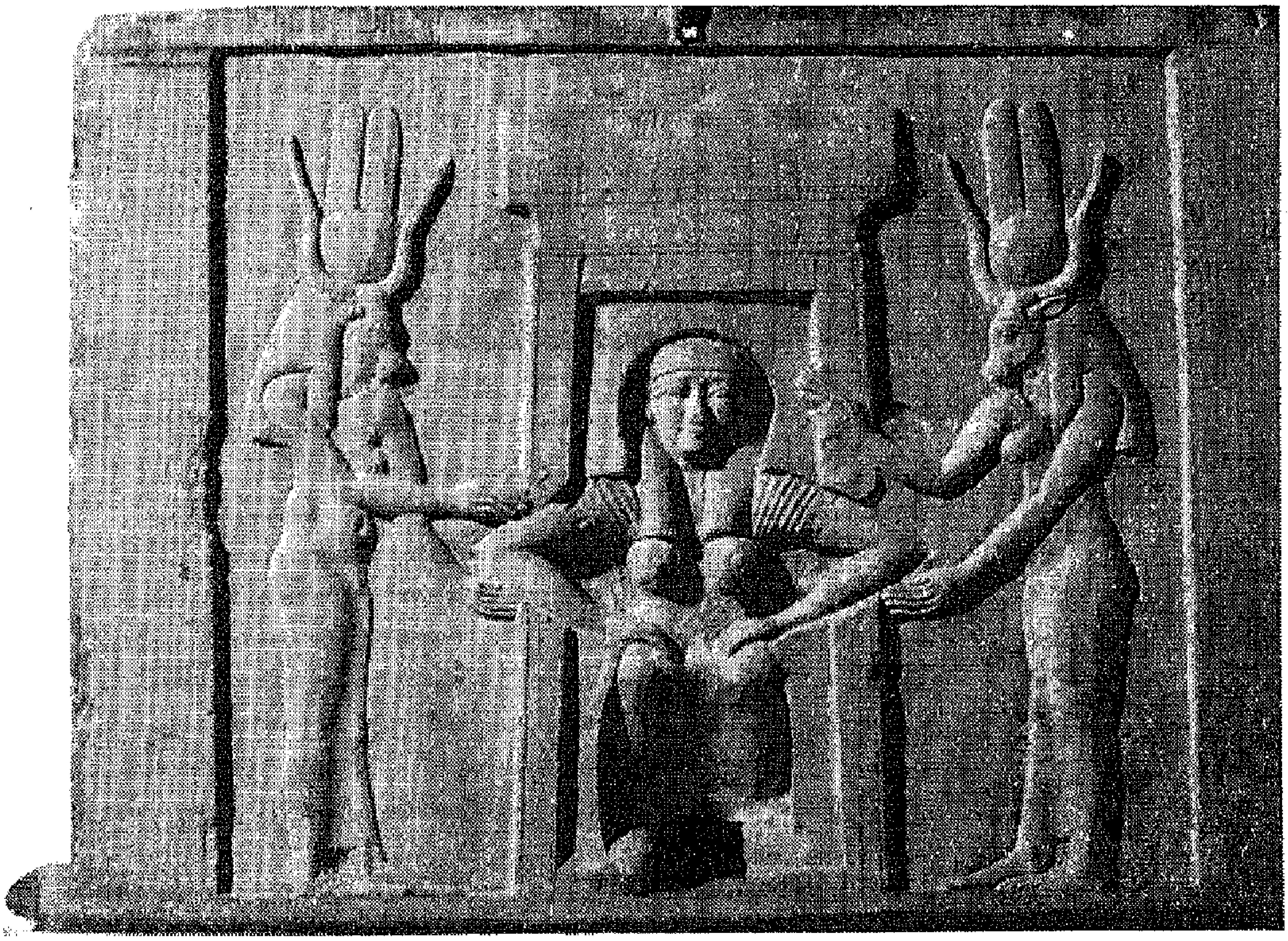

نقش رمزى على أحد جدران معبد دندرة يصور امرأة فى حالة وضع جالسة على كرسى الولادة وتساعدها الإلهة حتحور .

وأمراض الأطفال

ما من شعب من شعوب العالم القديم اهتم بالأطفال قدر اهتمام شعب مصر القديمة بما كان ينجبه من أطفال ذكور أو اناث . . فالأطفال هم نتاج النظام الأسرى المقدس الذى كان الأساس الراسخ لبناء المجتمع المصرى القديم على أعلى المستويات الحضارية التى كانت سائدة فى جميع المجتمعات الإنسانية التى عاصرته منذ آلاف السنين .

● كان الشعب المصرى القديم يقدس الطفولة ويعتبرها خيرًا وبركة ، ويبذل كل مافى وسعه لرعاية الأطفال وتنشئتهم والمحافظة عليهم من كل سوء . وقد لفتت هذه الخاصية أنظار المؤرخين القدماء الذين زاروا مصر فى أواخر عصور حضارتها القديمة . . فقد قال « ديودور الصقلى» الذى زار مصر فى القرن الأول قبل الميلاد : « إن أهم ما يميز حياة المصريين أن الطفل عندهم يلقى حظه الكامل من التربية والرعاية الصحية» . . وقال «سترابون» الذى زار مصر فى نفس الفترة تقريباً : « من التقاليد التى كان يرعاها المصريون حرصهم الشديد على تهذيب أطفالهم والحرص على علاج ما قد يصيب هؤلاء الأطفال من أمراض » .

● وتدل الشواهد الأثرية المنقوشة على الجدران والمكتوبة على أوراق البردى ، بالإضافة إلى تقارير وكتابات المؤرخين القدماء الأجانب ، على أن رعاية الأطفال صحياً كانت من الواجبات المقررة على جميع طبقات الشعب المصرى القديم بدءاً من أسر الملوك والنبلاء والطبقة الوسطى حتى أسر الفلاحين والعمال وكافة طبقات الشعب الأخرى .

بل وكانت هذه الرعاية الصحية للأطفال تبدأ منذ فترات الحمل وقبل نزول هؤلاء الأطفال من بطون أمهاتهم . وتنص معظم البرديات الطبية المصرية على الكثير من وصفات العناية بالأم الحامل ، وتسهيل عملية الولادة وتأمينها من كل خطر ، ووصفات أخرى لوقاية الجنين أثناء ولادته ، وبعد ولادته مباشرة ، وكيفية قطع الحبل السرى ، وكيفية غسل الوليد بطريقة سليمة .

● ووردت فى البرديات أيضاً وصفات طبية كثيرة للمحافظة على حياة الطفل أثناء فترة الرضاعة التى كانت تستمر عادة إلى نحو ثلاث سنوات ، والمحافظة على سلامة ثدى الأم باعتباره مصدر الغذاء الضرورى للطفل ، والاهتمام بجودة وصلاحية لبن الأم واستمرار إدراره والتأكد من كفاية كمياته للوفاء باحتياجات الطفل ، بالإضافة إلى التوصية بإبعاد الطفل عن الحشرات المؤذية التى تسبب له بعض الأمراض كالذباب والبعوض .

● وتدل الشواهد الأثرية أيضاً على أن الأسر الملكية وأسر النبلاء والطبقات القادرة كانت تستعين بمرضعات وحاضنات سليمات الأبدان ويتمتعن بلياقة صحية واضحة لإرضاع أبناء تلك الأسر والإشراف على تربيتهم ورعايتهم رعاية كاملة أثناء فترات أعمارهم المبكرة . وهناك شواهد أثرية تدل على وجود سيدات كن يحملن لقب «رئيسة المرضعات» أو « المرضعة الأولى» بالقصر الملكى ، وكانت المرضعات بصفة عامة تتمتعن بحقوق الأمهات على من أرضعنهم من أولاد وبنات .

● ووردت فى البرديات الطبية عدة تشخيصات دقيقة للنزلات المعوية التى تصيب الأطفال ، وعدة وصفات لعلاج حالات الإسهال ونوبات التبرز المؤلم التى تظهر أعراضها على الأطفال . كما وردت أيضاً وصفات لعلاج احتباس البول وتنظيمه عند الأطفال .

● ومما يثير الدهشة أن أطباء مصر القديمة قد فطنوا إلى كيفية علاج بعض الأمراض التى تصيب الأطفال الرضع عن طريق لبن الأم ، فوصفوا عدداً من الأدوية والعقاقير التى يجب أن تتناولها الأم لكى يتأثر بها اللبن الذى ترضعه لطفلها ، فيصبح هذا اللبن علاجاً لبعض الأعراض المرضية التى تصيب الطفل .

● وإلى جانب هذه التشخيصات الطبية والوصفات العلاجية كانت الأسر المصرية ـ في كافة مستوياتها الاجتماعية ـ تحرص منذ القدم على الاستعانة بالعديد من التمائم ، وتتوسل إلى الآلهة بالصلوات والدعوات الصالحة لتوفير السلامة للأطفال وإبعاد ما قد يلحق بهم من شرور . ومن الغريب أن هذه العادة مازالت سائدة حتى الآن في معظم القرى والمدن في مصر الحديثة .

رعاية الأطفال رعاية تامة كانت من أوجب واجبات الأسرة المصرية .

التخصص فى طب الأسنان

إذا كان أطباء مصر القديمة قد عرفوا التخصص فى ممارسة مهنة الطب ، بمعنى وجود أطباء معينين متخصصين فى علاج أمراض معينة مثل أمراض العيون وأمراض العظام وأمراض الجهاز الهضمى . . إلى آخر تلك التخصصات التى أوردناها فيما سبق ، فلم يكن من الغريب إذن أن تظهر مجموعة من الشواهد الأثرية تدل على وجود أطباء متخصصين فى طب الأسنان .

● وتدل أقدم تلك الشواهد الأثرية على أن التخصص فى طب الأسنان بدا واضحاً منذ عصر الدولة القديمة الذى يبدأ بالأسرة الثالثة وينتهى بالأسرة السادسة حيث تم العثور على ما يؤكد أن بعض المقابر التى يرجع تاريخها إلى ذلك العصر كانت لأطباء متخصصين فى هذا الفرع من فروع الطب . وكان بعضهم يحمل لقب « جرّاح الأسنان بالقصر الملكى» مثل الطبيب «حسى رع» الذى كان يحمل لقب «كبير الأطباء وجراحى الأسنان بقصر الملك زوسر » [من ملوك الأسرة الثالثة وصاحب الهرم المدرج بسقارة] . . ومثل طبيب الأسنان « نى عنخ سخمت » الذى عاش فى عصر الأسرة الخامسة ، وطبيب الأسنان «خوى» الذى عاش فى عصر الأسرة السادسة .

● ونتيجة للأبحاث التشريحية التى قام بها عدد من علماء ومؤرخى الطب المحدثين لعديد من المومياوات والهياكل العظمية التى يرجع تاريخها إلى مختلف عصور وحقبات التاريخ المصرى القديم ، فقد لاحظ هؤلاء الأطباء أن أسنان قدماء المصريين الذين عاشوا فى العصور الأولى من التاريخ المصرى كانت سليمة وتكاد تكون خالية من

أعراض التسوس أو الالتهابات وغيرهما من أمراض الأسنان واللثة . وأوعز العلماء هذه الظاهرة إلى أن قدماء المصريين الذى عاشوا فى تلك العصور الأولى كانوا يعتمدون فى طعامهم على تناول أغذية أغلبها نباتية ، ولكن عندما تقدمت الحضارة وبدأ التفنن فى طبخ الطعام واستخدام اللحوم الحيوانية وإضافة التوابل والسكريات بدأت أمراض الأسنان مثل التسوس وتقيحات اللثة فى الانتشار .

● وقال المؤرخ الطبى الألمانى «فاينبرجر» : « إن مهنة طب الأسنان ظهرت فى مصر منذ أقدم العصور ، فقد اكتشفت عدة برديات طبية نصت على كيفية علاج الكثير من أمراض الاسنان واللثة ، كما وجدت عدة مومياوات بها أسنان مريضة وتالفة ومنزوعة أو تم علاجها بالجراحة ، الأمر الذى يؤكد وجود جراحة أسنان فى تلك العصور القديمة» .

● وقال «برستيد» : « إن الدكتور هوتن ـ وهو من مؤرخى الطب ـ قام بدراسة وتحليل الفك السفلى لمومياء رجل متوسط العمر عاش فى عصر الأسرة الرابعة ، فاكتشف أثراً لوجود عدة جراحات أجراها أطباء مصر القديمة الذين قاموا بعمل ثقبين لتيسير خروج الصديد من خراج أصيب به هذا الرجل أسفل أحد ضروسه» . وتعتبر هذه الحالة شاهداً على أقدم عملية جراحة أسنان أجريت فى التاريخ .

● وفى خلال القرن الخامس قبل الميلاد حين قام «هيرودوت» بزيارة مصر وألّف كتابه الشهير عنها ، ذكر فى هذا الكتاب : « إن فى مصر أطباء متخصصين فى علاج أمراض الأسنان دون غيرها من الأمراض الأخرى» .

● وفى بردية «إيبرس» وبردية «كاهون» ورد تشخيص وعلاج تقرحات اللثة السرطانية وتخلخل الأسنان . ويقول مؤرخو الطب المحدثون إن أطباء مصر القديمة المتخصصين فى علاج أمراض الأسنان كان لهم الفضل فى إجراء أقدم عملية لترقيع وتثبيت الأسنان ، وذلك بربط الأسنان السليمة بالأسنان أو الضروس المخلخلة بسلك ذهبى ملفوف حولها . وكان لهم الفضل أيضاً فى اكتشاف علاج بعض أمراض الأسنان واللثة بعمل محاليل للمضمضة ، وفى اكتشاف أن بعض أمراض الأسنان تؤدى إلى بعض أمراض

المعدة والعينين والمفاصل ، كما اكتشفوا أيضاً العلاقة بين ظهور الأسنان اللبنية عند الأطفال قد يؤدى إلى إصابة هؤلاء الأطفال بالإسهال أو السعال أو إصابتهم بالتشنجات أو بالحمى فى بعض الأحيان .

فك مستخرج من إحدى المومياوات به أسنان مريضة
من الواضح أنها عولجت .

جبر العظام .. علاج مصرى قديم

انتشرت إصابات العظام بالكسر أو بالخلع بين قدماء المصريين بسبب اضطلاعهم بإقامة المنشآت المعمارية الضخمة من أهرام ومعابد ومقابر فقد كانت هذه الأعمال المرهقة بما فيها من عمليات الحمل والجر والصعود إلى مرتفعات عالية من أهم الأسباب التى تؤدى إلى وقوع إصابات كثيرة بين العمال ، خصوصاً الإصابات التى تصيب العظام بالكسور أو الشروخ أو الخلع .

● وبطبيعة الحال يمكننا أن نتصور عمليات الإسعاف السريعة التى كانت تعالج المصابين من العاملين فى تلك المنشآت ، ونتصور أيضاً وجود أطباء متخصصين فى علاج إصابات العظام وأمراضها . . وهو ما أكدته البرديات الطبية المصرية بما جاء فيها من تشخيصات طبية لعشرات الأنواع من إصابات العظام وعشرات الوصفات العلاجية لمداواة هذه الإصابات بالطرق التى تضمن التئام الكسور ورد الخلوع إلى ما كانت عليه مع ضمان الشفاء فى أكثر الأحوال .

● ويقول علماء المصريات ومؤرخو الطب المحدثون إن ما ورد فى البرديات الطبية المصرية يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن أطباء مصر القديمة كانوا قد اكتسبوا خبرة واسعة فى أفضل الطرق الخاصة بعلاج الكسور والتئام العظام وعمل الجبائر وابتكار الأدهنة والمراهم التى تساعد على تخفيف الآلام التى تصاحب هذه الإصابات، كما تساعد على شفاء الأورام التى قد تحدث نتيجة لتلك الإصابات ، بل والتى تساعد أيضاً على التئام وتضميد الجروح وشفاء الجلد فى موضع تلك الإصابات .

● وعلى سبيل المثال فقد وردت فى بردية «هيرست» خمس وصفات علاجية لعمليات التئام العظام المكسورة ، كما وردت إحدى عشرة وصفة لكيفية عمل الجبائر المناسبة حسب نوع الإصابة بعد تشخيصها تشخيصاً دقيقاً .

● وورد ببردية «إدوين سميث» إثنان وعشرون تشخيصاً وعلاجاً لحالات إصابة عظام الجمجمة والأنف والفكين العلوى والسفلى ، وعظام الوجنات والصدغ والفقرات العنقية ، وعظمتى الترقوة وعظمة العضد وعظام ضلوع القفص الصدرى . وتشير جميع هذه التشخيصات الطبية والوصفات العلاجية إلى كيفية إجراء عمليات إرجاع الكسور إلى وضعها الطبيعى والاهتمام الذى يلزم استمراره بعد إجراء هذه العمليات حتى يكتمل الشفاء تماماً .

● وقد ابتكر أطباء مصر القديمة المتخصصون فى علاج العظام فكرة عمل الجبائر التى تساعد على التئام الكسور وشفاء الشروخ ، وذلك بعمل لفائف وأربطة من القماش المغموس فى دقيق الفول أو الشعير مع خلطة باللبن والعسل وإضافة « الغراء» حتى يكتسب الرباط صلابة بعد جفافه . ويقول عالم المصريات «لوكاس» فى كتابه «المواد والصناعات فى مصر القديمة» إن قدماء المصريين منذ عصر بناة الأهرام ابتكروا صناعة «الغراء» واستخرجوه من عظام الحيوانات وجلودها وغضاريفها بعد غليها فى الماء الساخن حتى تذوب وتتركز وبعد ذلك كانوا يصبون هذا السائل المركز اللزج فى قوالب خاصة ، ويتركونه حتى يتجمد ، ثم يعيدون إسالته مرة أخرى عند اللزوم .

● وتظهر عبقرية أطباء مصر القديمة المتخصصين فى علاج العظام فى استطاعتهم التفرقة بين أنواع الكسور التى تصيب العظام ، فقسموها إلى كسور بسيطة وكسور مضاعفة حيث يتمزق الجلد الذى يكسو العظمة المكسورة . كما فرقوا بين الكسر الكامل حيث يكون الجزءان المكسوران منفصلين تماماً عن بعضهما ، والكسر غير الكامل ، كما وصفوا الشروخ التى قد تصيب العظام بأن العظمة المشروخة تظل فى موضعها الطبيعى . كما أشاروا إلى احتمال حدوث التئام معيب للعظام المكسورة ، حيث تلتئم هذه العظام على غير وضعها الطبيعى . كذلك فقد ميزوا الكسور عن إصابة العظام بالخلع الذى وصفوه بأنه تغير فى الوضع الطبيعى لعظام المفاصل ، ووصفوا العلاج اللازم لكل حالة من هذه الحالات .

التحنيط .. معجزة قدماء المصريين

بالرغم من التقدم العلمى والتكنولوجى الهائل الذى توصل إليه العالم الحديث ، فلم يستطع الكيميائيون ولا علماء الطب أن يمنعوا تعفن جثث الموتى إلا لأيام قليلة ، سواء بالتبريد فى الثلج العادى أو فى ثلج ثانى أوكسيد الكربون أو فى الثلاجات الكهربائية . . ثم استطاعوا بعد ذلك المحافظة على شكل الجثث بالحقن المستمر لسنوات معدودات . أما قدماء المصريين فقد حققوا معجزة المحافظة على جثث الموتى لآلاف السنين بعد أن ابتكروا فكرة عملية التحنيط .

● ويقال فى اللغة العربية : حنَّط الميت بمعنى عالج جثته وحشاها بالحنوط حتى لا يدركها الفساد . . والحنوط هو كل طيب ذى رائحة عطرة يمنع التعفن أو الفساد .

● وقبل أن يبزغ للتاريخ فجر ، آمن المصريون القدماء بأن الموت ليس نهاية للمطاف بالفناء ، بل هو انتقال ورحلة من الحياة الدنيا إلى حياة أخرى أبدية . . سواء فى الجحيم الذى كانوا يسمونه « سقر » أو فى النعيم الذى كانوا يسمونه « حقول إيارو » . . وحتى يضمن الميت حياته فى العالم الآخر كان لابد من سلامة جسده بعد الموت ضمانًا لعودة الروح إليه ، فكان لابد إذن من ابتكار طريقة لتحنيط الجسد للمحافظة عليه من التحلل والفساد ، وذلك باستخدام الجراحة والعقاقير والمواد الكيميائية ، بل وبالاستعانة بالتمائم والرقيات السحرية أو ذات الطابع الدينى المتعلق بالعقائد القديمة .

● وكان من الواجب أن يقوم الأحياء بمساعدة الميت فى أن يبدأ رحلته فى العالم

الآخر وهو فى أبهى زينة ، فكانوا يزينون جثته بالمصوغات والمجوهرات من الذهب والفضة والأحجار الكريمة وبكافة أشكال الحلى المناسبة لقدر الميت فى الحياة الاجتماعية ، ومركزه من الغنى والثراء أومن الفقر وقلة الحيلة . . حتى أفقر الفقراء كانوا يزينون جثته بأى شىء من الحلى حتى ولو كان سوارًا من الدوبارة نُضِمَت فيه بعض الخرزات الرخيصة .

● وفى هذا الشأن ذكر المؤرخون القدماء ومنهم هيرودت وديودور الصقلى أن المصريين لديهم ثلاث طرق ودرجات من التحنيط : غالية ومتوسطة ورخيصة . وقد توصل العلم الحديث إلى معرفة وتحديد هذه الطرق الثلاث فى المومياوات التى تم العثور عليها ، ومعرفة معظم المواد التى استخدمت فى التحنيط . ومع ذلك فلم يتم التوصل إلى سر طريقة التحنيط التى اكتشفها قدماء المصريين والتى جعلت المومياوات تحتفظ بأشكالها التقريبية عبر آلاف السنين .

● ومن أهم المواد التى استخدمها قدماء المصريين والتى تمت معرفتها وتحديدها حديثًا مادة النطرون وهى كربونات الصوديوم الطبيعية . . والقار أو القطران الذى انتشر استخدامه فى العصور المتأخرة . . والقرفة [ومن المعلوم أن القرفة كانت تستورد قديماً من الهند أو من بلاد بونت] . . والحناء التى كانت تستعمل كمادة حافظة ولخضاب أصابع وأظافر وشعر الجثة . . ونبات العرعر . . ونبات الحزاز وهو شبيه بالعجور . . وزيت يسمى زيت القادروس وهو غير معروف الهوية ، فقيل انه زيت التربنتينا أو خل الخشب . . والراتينج الذى كانوا يستوردونه من الخارج . . ومجموعة من الأحماض الدهنية بعضها لم تعرف نسب تركيبه .

● أما عملية التحنيط نفسها فقد ذكرها المؤرخون القدماء ، كما تدل عليها أيضا بعض النقوش والكتابات القديمة ، بالإضافة إلى ما ذكره بعض كبار الدارسين لعلم التشريح الطبى الحديث . . وكان أول إجراء فى عملية التحنيط بعد وصول جثة الميت إلى حجرة التحنيط التى كان يسميها القدماء « البيت الجميل » أو « بيت الطهارة » هو استخراج المخ من فتحتى الأنف ، لأن المخ هو أول ما يتعرض للعفن من أنسجة الجسم . . ثم تستخرج الأحشاء الداخلية بشق البطن من الجهة اليسرى لاستخراج

المعدة والكبد والطحال والأمعاء والرئتين وبقية الأعضاء الأخرى مع الاحتفاظ بالقلب والكليتين فى أماكنهم الطبيعية . وتوضع هذه الأحشاء بعد غسلها وتطهيرها وإضافة المحاليل والمواد الحافظة فى أربعة من الأوانى تسمى « الأوانى الكانونية » لكل منها غطاء على شكل ابن من أبناء حورس .

● وبعد ذلك يتم غسل تجويف البطن والصدر بنبيذ البلح وبعض محاليل التوابل والأعشاب الطبية ، ثم يتم حشو التجويف بالعقاقير والمواد الكيميائية الحافظة والمواد العطرية ، كما يتم حشو تجويف الجمجمة بمادة الراتينج ومواد أخرى . . ولا تستخرج العينان ، بل يتم الضغط عليهما إلى داخل تجويفهما ، ثم حشوهما بلفائف صغيرة من الكتان الغموس فى الراتينج . وكانت تستعمل فى بعض الأحيان عيون صناعية للمحافظة على الشكل الظاهرى للجثة التى تنقع بعد ذلك فى النطرون لمدة (٧٠) يومًا. ثم يتم تجفيف الجثة وتزيينها وتكفينها بلفائف الكتان التى يصل طولها إلى مئات الأمتار فى كثير من الأحيان .

● وكثيراً ما كانت الجثة تزود بالتمائم والرقيات الخاصة بالاستعانة بالآلهة لحماية الميت ورد البصر إلى عينيه ، والسمع إلى أذنيه ، والنطق إلى لسانه ، والمضغ إلى فمه ، والحركة إلى جميع أطرافه . . وتميمة رئيسية لتلقين الميت تقول كلماتها : سوف تحيا فى العالم الآخر . وسوف ترد إلى الصبا والشباب إلى أبد الآبدين .

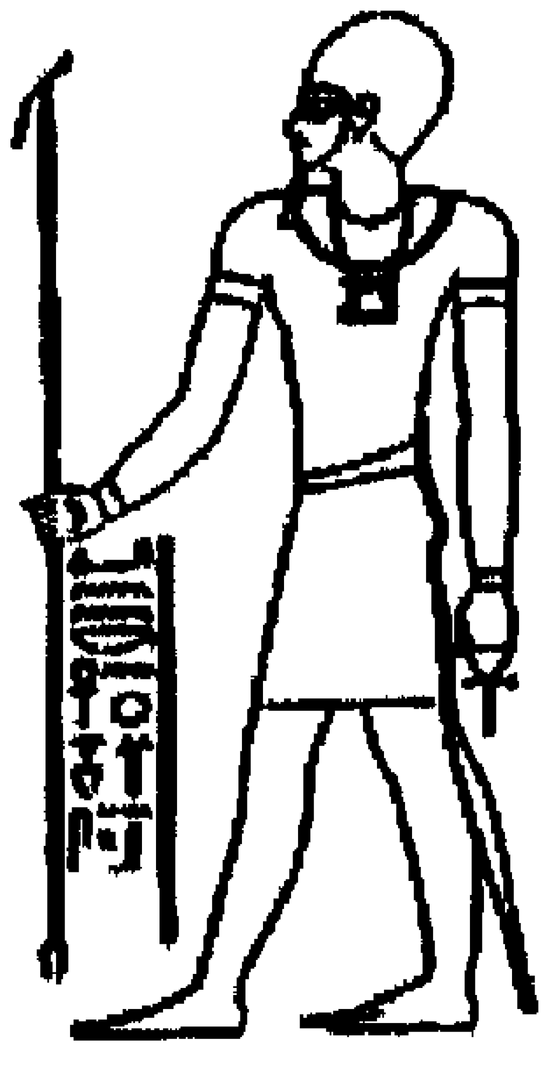

الطب المصرى القديم .. كتب ومراجع

اتصل بى أطباء كثيرون وبعض أساتذة الجامعات ممن تربطنى بهم صداقات حميمة، وممن لاأعرفهم على الإطلاق ، يسألوننى عن أسماء الكتب والمراجع العلمية التى استعنت بها فى كتابة الدراسات السابقة والتى تناولت فيها موضوع « الطب عند قدماء المصريين » (*) . كما اتصل بى أيضا مجموعة كبيرة من السادة القراء الذين اندهشوا من هذا التقدم العلمى الهائل الذى وصل إليه أطباء مصر القديمة بتخصصاتهم المختلفة التى عرضتها فى الحلقات السابقة، ويسألون بدورهم عما إذا كانت هناك كتب أو مراجع عربية فيها المزيد من المعلومات عن تاريخ الطب عندقدماء المصريين .

● ولاشك فى أن الباحث فى تاريخ الطب عند قدماء المصريين تصيبه دهشة شديدة عند اطلاعه على الكتب والمراجع وماورد فى الموسوعات العلمية التى تتناول هذا الموضوع بالتفصيل والشرح الموسع . وقد ترجع تلك الدهشة إلى المفاجآت المتتالية فيما يجده من معلومات غاية فى الدقة عن الكيفية التى توصل إليها أطباء مصر القديمة فى تشخيص معظم الأمراض التى تصيب أو تتعرض لها أجهزة الجسم البشرى والتى نعرفها الآن فى الطب الحديث .

● وهناك العديد من المراجع الأجنبية ما زالت مكتوبة بلغاتها الأصلية ، وقليل منها ترجم إلى اللغة العربية ، أو وردت مقتطفات منها وإشارات إليها ضمن الكتب

(*) يلاحظ أن هذه الدراسات قد نشرت تباعاً فى العدد الأسبوعى لجريدة الوفد الذى يصدر كل يوم خميس .

والمراجع العربية القليلة جدا التى تناولت موضوع الطب والصيدلة عند قدماء المصريين .

● وأشهر هذه الكتب العربية ذلك الكتاب الفذ الذى ألفه الاستاذ الدكتور حسن كمال ـ وهو ابن أحمد كمال باشا أول عالم آثار مصرى ـ بعنوان « الطب المصرى القديم » . ويعتبر هذا الكتاب أهم مرجع عربى فى هذا الموضوع الدقيق . وقد صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٢٣ ، وصدرت طبعته الثانية والأخيرة عام ١٩٦٤ . والكتاب مكون من جزءين ويقع فى نحو ستمائة صفحة من القطع الكبير .

● كما أن هناك كتاباً صغير الحجم كبير الأهمية صدر عام ١٩٦٠ ضمن كتب المكتبة الثقافية التى كانت تصدرها الادارة العامة للثقافة فى ذلك الوقت ، وهو من تأليف الدكتور بول غليونجى وعنوانه « طب وسحر » .

● كذلك فقد وردت موضوعات متناثرة ، بعضها مفصل وبعضها مختصر ، ضمن الموسوعة التاريخية العظيمة « مصر القديمة » التى ألفها وأصدرها الاستاذ الدكتور سليم حسن فى ستة عشر جزءاً . . وكذلك فى « الموسوعة العربية الميسرة » التى أصدرتها دار القلم بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر عام ١٩٦٥ ، وموسوعة « تاريخ الحضارة المصرية » التى أصدرتها مكتبة النهضة المصرية بالاشتراك مع الادارة العامة للثقافة بوزارة الثقافة والارشاد القومى خلال فترة الستينيات ، وكذلك « الموسوعة الثقافية » التى أصدرتها دار الشعب عام ١٩٧٢ . وكتاب « تاريخ الصيدلة والعقاقير فى العهد القديم والعصر الوسيط » من تأليف الدكتور الأب جورج شحاته قنواتى ومن إصدار دار المعارف عام ١٩٥٩ . وكتاب « هيرودوت يتحدث عن مصر » الذى ترجمه الاستاذ الدكتور محمد صقر خفاجه وصدر عن دار القلم عام ١٩٦٦ . بالإضافة إلى كتب ومراجع أخرى كثيرة وردت بها بعض الإشارات إلى تاريخ الطب فى مصر القديمة ضمن الموضوعات التى تناولتها .

● أما بالنسبة للكتب والمراجع والبحوث والدراسات الأجنبية التى تناولت علوم الطب والصيدلة عند قدماء المصريين فهى لا تقع تحت حصر لكثرتها وتنوعها .

وللأسف الشديد لم يترجم من هذه الكتب إلى اللغة العربية سوى كتابين اثنين ـ على قدر علمي ـ هما : « إيمحوتب إله الطب والهندسة » من تأليف جيميسون هارى وترجمة محمد العزب موسى وأصدرته هيئة الآثار المصرية عام ١٩٨٨ ، وكتاب «التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة » من تأليف ليز مانكه وترجمة الدكتور أحمد زهير أمين وأصدرته مكتبة مدبولى عام ١٩٩٣ .

● أما الكتب والمراجع الأجنبية التى لم تترجم وما زالت بلغاتها الأصلية فهى كثيرة جدا ، وكتبها مجموعة من أشهر العلماء والمؤرخين ومؤرخى الطب بصفة عامة وأساتذة الكيمياء والصيدلة . وقد صدرت أغلبية هذه الكتب باللغتين الانجليزية والفرنسية بالاضافة إلى لغات أوربية أخرى كالألمانية والإيطالية والأسبانية . ويمكن للراغبين فى الاطلاع على هذه الكتب والمراجع النفسية أن يطلعوا عليها فى مكتبة جامعة القاهرة ، والمكتبة الملحقة بالمتحف المصرى بالقاهرة .

● كما أود أن أشير أيضا إلى ما ورد عن موضوع الطب عند قدماء المصريين فى الموسوعة البريطانية « إنسيكلوبيديا بريتانيكا » والموسوعة الأمريكية « إنسيكلوبيديا أمريكانا » .

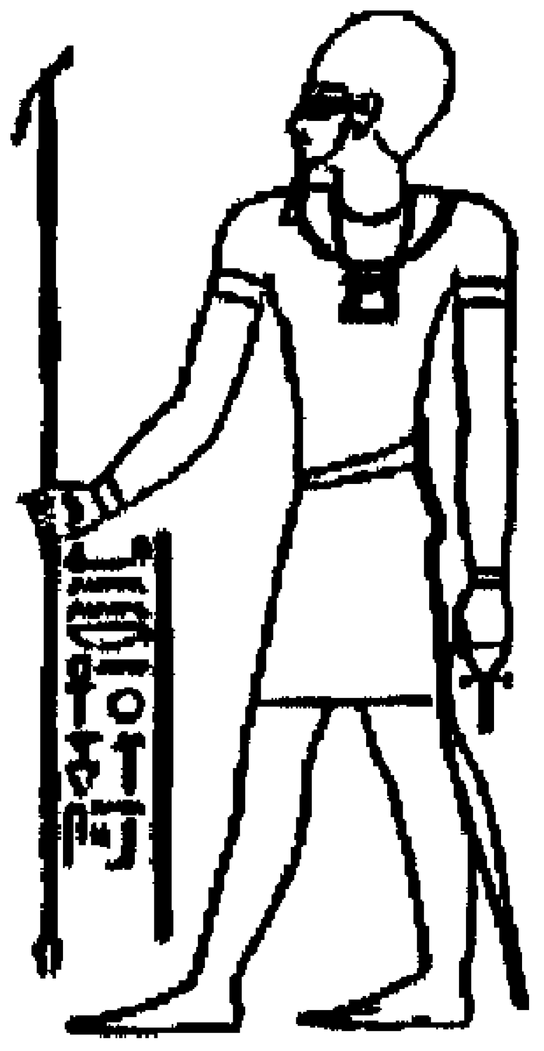

الذين ابتدعوا الصيدلة .. وفن تركيب الدواء

لم يكن الطب المصرى القديم قاصراً على عمليات تشخيص الأمراض وتحديد أعراضها ، وإنما كان مرتبطا بالوصفات العلاجية التى تكفل القضاء على أسباب المرض كطريق للشفاء . ولهذا يقول مؤرخو الطب المحدثون إن منهج تعليم الطب فى مصر القديمة كان مرتبطا بمنهج تعليم الصيدلة وفن تركيب الدواء . وإن كان بعض هؤلاء المؤرخين يقولون إن علم الصيدلة فى مصر القديمة كان سابقا فى ظهوره على علم الطب، خصوصاً وقد ثبت من الدلائل التاريخية والشواهد الأثرية أن المصريين القدماء قد توصلوا إلى معرفة الخصائص العلاجية للعديد من النباتات والأعشاب واستخدموها فى علاج بعض الأمراض منذ عصور ما قبل التاريخ .

● ويقول فلاسفة وأطباء الإغريق القدماء الذين درسوا علومهم فى مصر إن مكتبات المدارس الطبية التى تعلموا فيها والتى كانت منشرة فى طيبة ومنف وأون [هليوبوليس] وسايس [صا الحجر حاليًا] كانت تتضمن مئات من الكتب الطبية وكتب الأقرباذين [الصيدلة] . وقالوا أيضا إنهم درسوا فى تلك المدارس إلى جانب علوم الطب علوم النبات والحيوان والكيمياء والصيدلة . كما ورد فى « الأوديسة » التى كتبها « هوميروس » شاعر الإغريق الشهير : « إن مصر بلد خصبة تعطى أرضها القمح كما تعطى أعشاباً كثيرة لا يمكن حصرها ، منها النافع الذى تستخرج منه العقاقير وأدوية الأمراض » .

● ومنذ أن بدأ أطباء مصر القديمة فى تدوين كتبهم ومؤلفاتهم فى البرديات ، حرصوا على ذكر الوصفات العلاجية الخاصة بكل مرض تم تشخيصه وتحديد أعراضه .

وعلى سبيل المثال فقد ورد فى بردية « إيبرس » فصل عنوانه : « هنا يبدأ كتاب تحضير الأدوية لكل أجزاء الجسم وأمراضها » . ويتضمن هذا الفصل جميع التفصيلات الخاصة بكيفية تحضير الدواء وتركيبه سواء من المواد المعدنية أو الكيمائية أو من النباتات والأعشاب الطبية .

● وإلى جانب قواعد التحضير والتركيب كانت الوصفات تتضمن كيفية استعمال الأدوية المستحضرة أو التى يتم تركيبها سواء بالتوصية بالاستعمال الظاهرى فقط أو بالبلع أو بالغرغرة أو المضمضة أو بتناول الحبوب أو بدهان المراهم أو بالاستنشاق أو الشم أو بالتبخير ، أو باللبوس أو الحقن الشرجية أو باستخدام الكمّادات أو اللبخات أو الأربطة .

● كما تتضمن الإرشادات الطبية الخاصة بكيفية استعمال الأدوية عدد المرات التى يجب على المريض أن يتناول فيها الدواء الموصوف ، والوقت المناسب لتناول هذا الدواء سواء أكان على الريق فى الصباح الباكر أو قبل أوبعد تناول الطعام أو فى المساء قبل النوم .

● وقد قام مؤرخو الطب المحدثون بعمل حصر تقريبى لأنواع الأدوية التى ورد ذكرها فى البرديات المصرية القديمة ، فشمل هذا الحصر : المهدئات والمنبهات والمنومات ، ومضادات التشنج ، والقابضات والملينات ، وأدوية طرد البلغم من الصدر والمقيئات التى تستخدم للتخلص من الأطعمة الضارة التى يكون قد تناولها المريض ، والمقويات العامة لأنشطة الجسم أو الأنشطة الذهنية ، والأدوية المطهرة ، وطوارد الريح ، وطوارد دود البطن ، وأدوية موانع النزيف وإيقافه ، ومدرّات البول ، ومضادات السموم ، ومبيدات الجراثيم ، وأدوية أمراض النساء كمدرات الطمث وأدوية الحوامل ومعجلات الولادة ، ومدرات لبن الأمهات . بالإضافة إلى تركيبات دوائية أخرى كمرطبات البشرة ودهانات التجميل .

● ومن الغريب أن مؤرخى الطب المحدثين ذكروا أيضا أن قواعد وأسس كثير من الأدوية التى وصفها أطباء وصيادلة مصر القديمة تشبه قواعد وأسس تركيب الأدوية

المستعملة فى الطب الحديث إلى حد كبير . فالغالبية العظمى من الأدوية المصرية القديمة مكونة من « عنصر رئيسى » معدنى أو كيميائى أونباتى أو حيوانى ، مضافة إليه « مـادة مساعـدة » لجعله أقوى أو أسرع تأثيراً ، كما تضاف إليه ـ فى كثير من الأحيان ـ مادة أخرى ذات طعم طيب تجعله سائغ المذاق أو قليل المرارة فيسهل تناوله دون أن يشعر المريض بأى امتعاض .

● وطبقا للقوانين التى كانت سائدة فى مصر القديمة ، كانت وصفات العلاج المعتمدة لعلاج الأمراض تعتبر من التعاليم المقدسة التى يجب على جميع ممارسى مهنة الطب والصيدلة اتباعها بمنتهى الدقة ، وإذا لم يلتزم بها الأطباء والصيادلة ولم يعالجوا المريض طبقا لهذه الوصفات ، أو تسببوا باهمالهم فى موت المريض فإنهم يتعرضون للعقاب .

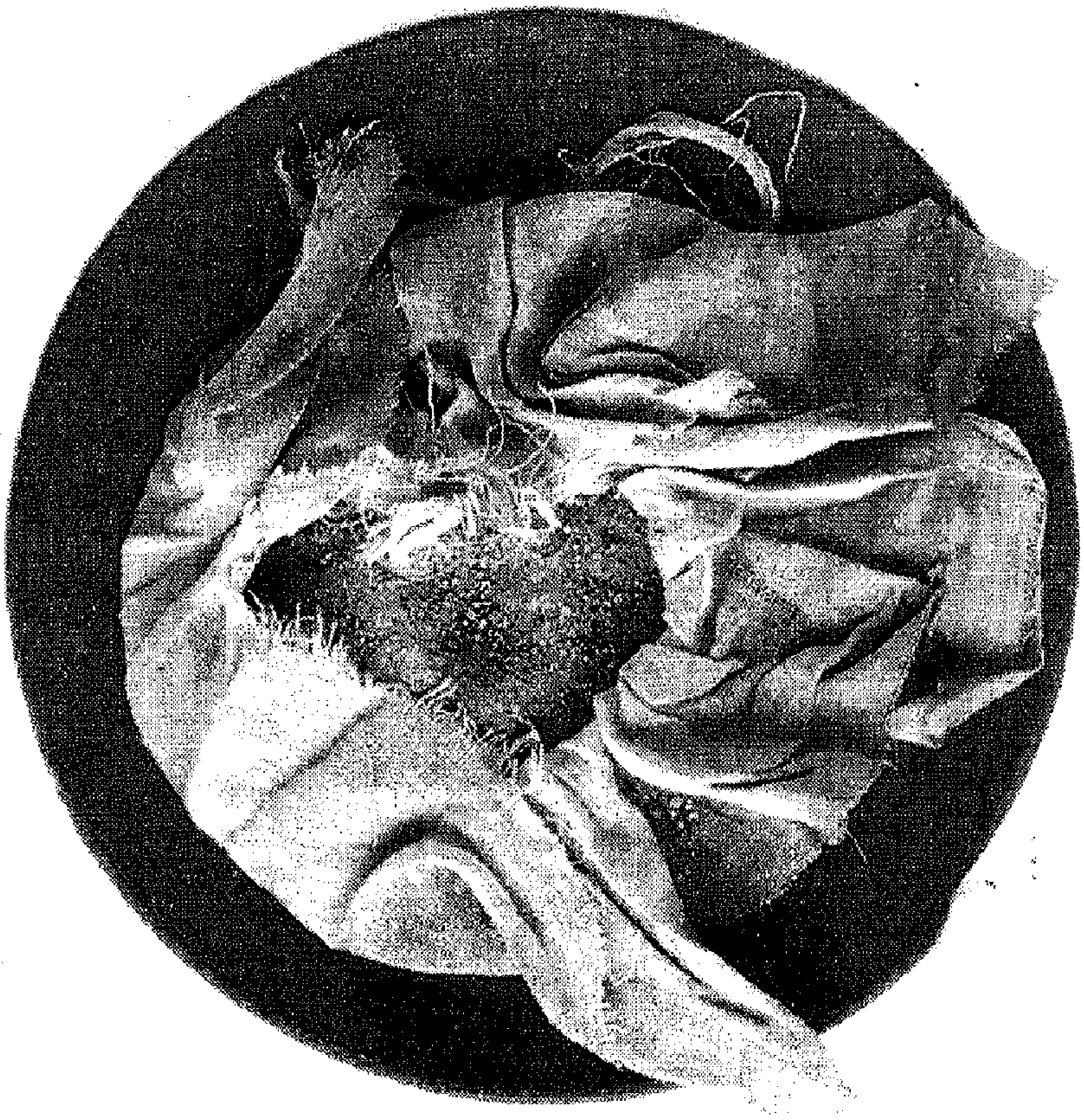

كيس أثرى وجدت به كميات من كربونات وبيكربونات الصوديوم وهى أملاح كانت تستخدم فى العلاج وفى التحنيط .

الصيدلة المصرية القديمة .. وأسس الصيدلة الحديثة

وصف الطبيب الإغريقى القديم « هيراس » لزقة لتخفيف آلام الظهر وآلام العظام بصفة عامة ، تتكون من أول أوكسيد الرصاص معجوناً بزيت الزيتون ، ومضافة إليه بعض المواد الكيماوية الأخرى . . وقال ليؤكد فائدة هذه اللزقة وجدواها فى مكافحة الألم ، إنه استقى أساسها من بردية مصرية قديمة ، وإنه جربها على كثيرين من مرضاه فخففت آلامهم .

● ومن الحقائق المعروفة فى تاريخ الطب أن معظم أطباء الإغريق القدامى الذين تعلموا فى مصر ، ومن أشهرهم « ثيوفراستوس » و « جالين » و « ديوسكوريدس » ذكروا فى مؤلفاتهم ان الوصفات العلاجية والتركيبات الدوائية التى تعلموها من كتب الطب المصرية القديمة والتى لقنهم إياها أساتذة الطب المصريون وكهنة المعابد المصرية الذين كانوا يمارسون أعمال الطب والصيدلة ، كانت وصفات قائمة على العلم وأعطت نتائج حسنة فى شفاء الأمراض ، لأنها جربت على مدى قرون طويلة وأثبتت نجاحها فى القضاء على الألم والقضاء على أسباب المرض .

● ومن المعروف أن جميع هذه الوصفات العلاجية والتركيبات الدوائية التى قامت عليها العلوم الطبية التى وضعها أطباء الإغريق القدماء قد شاعت شيوعاً عظيماً فى كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية فيما بعد ، ثم أصبحت الأساس الذى قامت عليه المعارف والعلوم الطبية فى أوربا أثناء العصور الوسطى وما بعدها ، وما زال الكثير منها قائماً ومتبعاً ـ بتطور ـ حتى الآن . ولهذا فإن مؤرخى الطب المحدثين يقولون إن آثار كل من

الطبيب والصيدلي المصرى القديم يمكن تتبعها واكتشافها فى موروثات الطب الإغريقى واللاتينى والعربى والفارسى والسيريانى والأوربى . ويعترف هؤلاء المؤرخون بأن المصريين القدماء هم أول شعب فى الدنيا مارس مهنتى الطب والصيدلة على أسس علمية قائمة على التجربة .

● وهناك شواهد أثرية كثيرة تدل على أن بعضاً من كبار كهنة المعابد المصرية كانوا على درجة كبيرة من العلم بخصائص المواد الكيميائية التى تسمح لهم بتجهيز الكثير من العقاقير والأدوية .

● وبطبيعة الحال فلم تكن هذه المواد الكيميائية معروفة لدى قدماء المصريين بأسمائها المعروفة به الآن فى اللغات الحديثة ، بل كانت مسماة بأسماء مشتقة من اللغة المصرية القديمة التى تكتب بالهيروجليفية أو بالهيراطيقية أو بالديموطيقية . وقد استطاع العلماء المحدثون تحديد الكثير من تلك المواد الكيميائية التى كانت تستخدم فى التركيبات الدوائية فى مصر القديمة ، ومنها : أوكسيد الرصاص الأحمر ، وأوكسيد الحديديك الأحمر ، وحجر الشب ، والنطرون ، والملح ، وكربونات الصودا . . الخ . والزائر للمتحف المصرى بالقاهرة يمكنه مشاهدة الكثير من تلك المواد الكيميائية التى عثر عليها فى بعض مقابر الأطباء والكهنة المصريين القدماء . وكانت هذه المواد محفوظة بداخل الأوانى المناسبة لطبيعة كل مادة سواء أكانت من المواد الصلبة أو المواد السائلة .

● ومن الغريب أن صيادلة مصر القديمة استطاعوا معرفة الخصائص الكيميائية لبعض النباتات أو لبعض الأجزاء المستخرجة من أحشاء الحيوانات . واستطاعوا بالتالى استخراج وتقطير المركبات والعناصر الكيميائية من هذه النباتات سواء فى شكل زيوت أو فى شكل محاليل سائلة أو فى شكل سوائل كحولية . كما استطاعوا أيضا فصل المواد المؤثرة الفعالة التى تستخدم فى العلاج والمأخوذة من أحشاء بعض الحيوانات ، كعصارة الصفراء أو مركبات الدم المأخوذة من الثيران أو الأُسُود أو التماسيح أو أفراس النهر ، كما استخدموا الشحوم المستخرجة من هذه الحيوانات وغيرها فى عمل المراهم والدهون الدوائية .

● وتدل الوصفات العلاجية والتركيبات الدوائية التى ورد ذكرها فى البرديات المصرية القديمة على أنها كانت مركبة من عدة أصناف من المواد ، الجزء الأكبر منها هو «القاعدة الدوائية » أو « الجوهر الفعال » وتضاف إليه مواد أخرى لتقوية أثر المواد الرئيسية وزيادة فاعليتها ، ومواد إضافية لتجعل طعم الدواء مقبولا .

● ولهذا فلم يكن غريباً أن يقول أحد مؤرخى الطب المحدثين وهو العالم الألمانى «فوكارت » : « إن علم الشفاء المصرى ينطوى منذ بدايته على نظام متقدم عدة آلاف من السنين عن بقية المجتمع البشرى » .

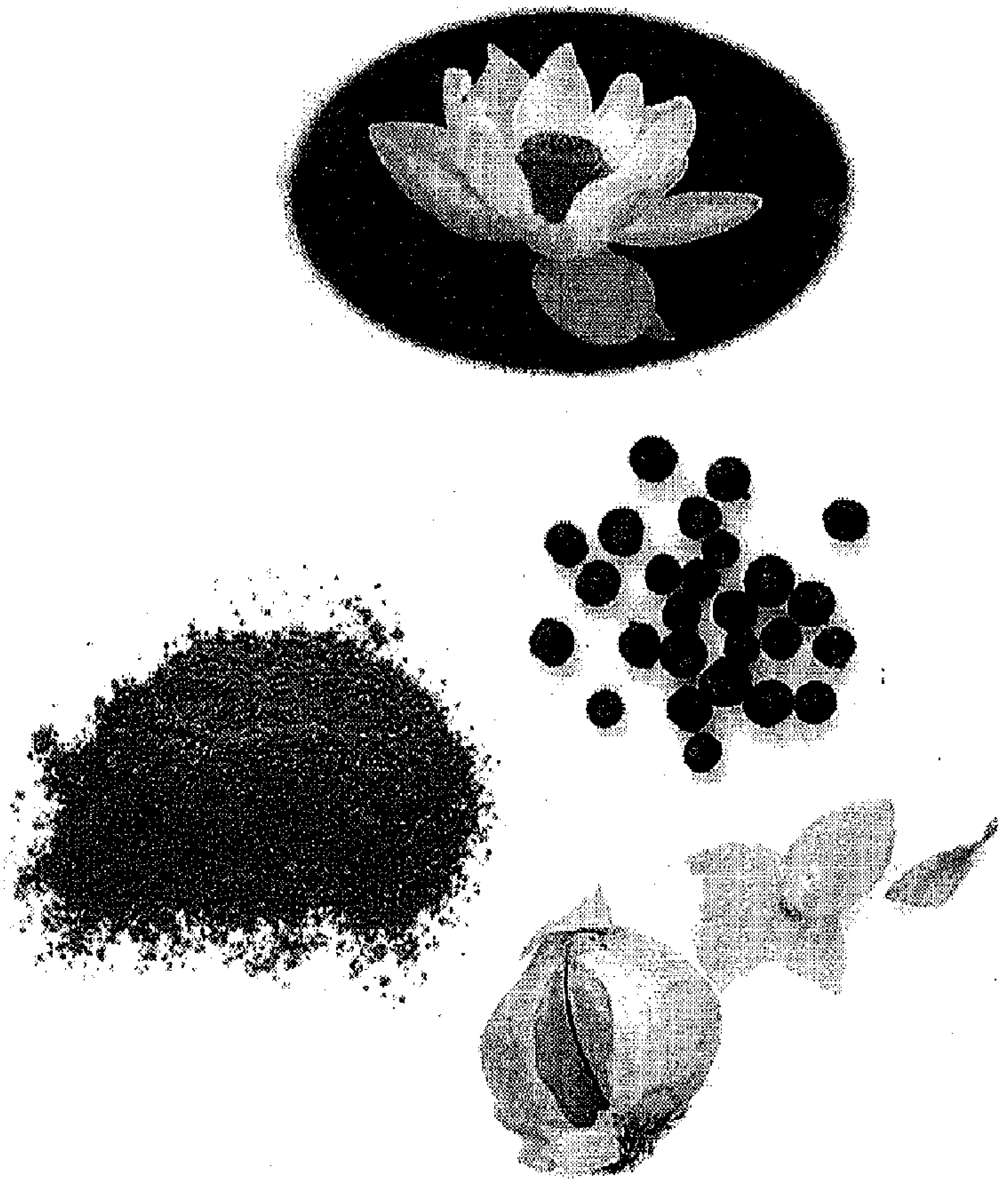

بعض النباتات الطبية والمواد الكيماوية التى كانت تستخدم فى تركيب بعض الأدوية .

طب الأعشاب .. فى مصر القديمة

من الأمور الشائعة بين المجتمعات البدائية منذ الأزمان القديمة وحتى الآن استخدام النباتات والأعشاب بصفة عامة فى علاج بعض أنواع الأمراض . ويرجع ذلك أساساً إلى تراكم الخبرات المتوارثة التى أثبتت لهم مدى فائدة هذه النباتات والأعشاب فى علاج تلك الأمراض .

● وتميز المصريون القدماء عن بقية كل الشعوب القديمة بأنهم استخدموا النباتات والأعشاب فى علاج الأمراض بعد أن عرفوا الخصائص الطبية الكامنة فى تلك النباتات والأعشاب . وحددوا تلك الخصائص وجعلوها من المواد العلمية التى تدرس للطلبة الذين يدرسون العلوم الطبية ، سواء على يدى كهنة المعابد ، أو على أيدى أساتذة الطب فى المدارس الطبية التى كانت منتشرة فى كبريات المدن المصرية القديمة .

● وفى الآثار المصرية شواهد كثيرة جدا تدل على وجود حدائق ملحقة بالمعابد كانت تزرع فيها عادة مجموعة من النباتات والأعشاب الطبية التى كانت تستخدم فى تجهيز الأدوية الموصوفة لعلاج مختلف الأمراض .

● ويقول الأطباء الإغريق القدماء الذين تعلموا الطب فى المدارس المصرية إن « علم النبات » كان من العلوم الأساسية التى يدرسها الطلبة فى تلك المدارس ، إلى جانب علوم الحيوان والكيمياء والصيدلة ، وإن علم النبات كان يتضمن دراسة خصائص النباتات والأعشاب الطبية ومزاياها وفوائدها فى العلاج ، وكيفية استخراج وتقطير المواد الفعالة سواء من النباتات والأعشاب نفسها أومن زهورها أو براعمها أو بذورها أو ثمارها أو أوراقها أو جذورها أو من لحائها .

● وبالرغم من أن البعض ما زالوا ينظرون إلى التداوى بالأعشاب باعتباره من «الطب الشعبى المتخلف » بعد ذلك التقدم والتوسع فى علوم الكيمياء والصيدلة الذى حدث منذ بداية القرن العشرين وحتى الآن ، وبعد أن ابتدعت الشركات العالمية المتخصصة فى صناعة الأدوية مئات الآلاف من أنواع الأدوية التركيبية القائمة على أساس المركبات والعناصر الكيميائية ، إلا أن طريقة التداوى بالأعشاب الطبية قد عادت إلى الظهور والانتشار مرة أخرى فى عصرنا الحديث ، وأثبتت الأبحاث العلمية أن هذه الطريقة تعتبر أفضل من التداوى والعلاج بالمركبات الكيميائية التى أصبحت تسبب كثيراً من الأضرار الجانبية . . فما فائدة أن يستخدم المريض دواءً يشفيه من مرض معين، ولكن هذا الدواء نفسه يسبب له أمراضاً جديدة قد تكون أخطر بكثير من مرضه الأول ؟!

● وأثبتت البحوث العلمية أيضا أن الوصفات العلاجية التى وردت بالبرديات الطبية المصرية القديمة والتى توصى باستعمال الأعشاب الطبية فى علاج بعض أنواع الأمراض، هى وصفات صحيحة ودقيقة إلى حد بعيد ، وتصلح ـ حسب النتائج التى توصل إليها طب الأعشاب فى العصر الحديث ـ لعلاج نفس الأمراض التى نصت عليها البرديات المصرية .

● وفى هذه البرديات تعددت طرق استخدام النباتات والأعشاب فى العلاج الطبى، فمنها ما كان يوصى بتناولها وهى طازجة فى حالتها الطبيعية ، ومنها ما كان يتطلب تجفيفها وطحنها وعجنها بمواد إضافية كالماء أو العسل أو النبيذ أو غير ذلك من المواد الأخرى ، ومنها ما كان يوصى بغليها أو بنقعها وتخميرها إلى آخر ما نصت عليه البرديات من طرق تجهيز واستخدام هذه النباتات والأعشاب فى علاج الأمراض .

● وعلى سبيل المثال فقد استخدمت أوراق شجر « السنط » المنقوعة فى الماء المغلى كعلاج لديدان البطن ، كما استخدمت بعد خلطها بالعسل والنبيذ لعلاج السعال ، وإذا أضيفت إليها أوراق شجر « النبق » وبعض المواد الكيميائية فانها تستخدم كلبخة لتسكين آلام العظام والجروح ووقف النزيف .

● كما تنبه أطباء مصر القديمة إلى فوائد عصارة البصل لإدرار البول أو المساعدة على

التخلص من البلغم وعلاج السعال والزكام . . وفوائد نبات « الكرات » فى علاج الأوعية الدموية وبعض أمراض العيون كالعشى الليلى . . وفوائد « الثوم » كعلاج لالتهابات الأغشية المخاطية والزكام ونوبات الربو ، وإذا أضيفت إليه « الكسبرة » الخضراء والجعة فيمكن استخدامه كملين أو كمثير للرغبة الجنسية ، وإذا أضيف إليه الخل أصبح بالغرغرة علاجاً للوزتين وآلام الأسنان .

● واستخدمت عصارة الصبّار كملين وكعلاج للالتهابات والحروق البسيطة . واستخدم نبات « الشبت » كمرطب ومهدىء ومساعد للهضم وكعلاج للانتفاخ والمغص والزغطة « الفواق » . واستخدام « الكرفس » كمنشط عام وفاتح للشهية وطارد للريح ومدر للبول . . والخروب كقابض لإيقاف الإسهال . . والشيكوريا كعلاج للصداع وأمراض الكبد والمثانة . . واللبلاب كملين . . والكمون لتهدئة السعال وتخفيف آلام المعدة . . والخروع كعلاج للإمساك وكدهان لنمو شعر الرأس ولعلاج بعض الأمراض الجلدية .

● كما استخدموا القرفة والحنظل والعجور والجميز والخشخاش والرمان والشمر والشعير والنعناع والخس والريحان والزيتون واليانسون والفلفل والفجل والرجلة والحلبة والدوم والحناء واللبخ والحمص . . ومعظم هذه النباتات أثبتت فاعليتها وجدواها فى طب الأعشاب فى العصر الحديث .

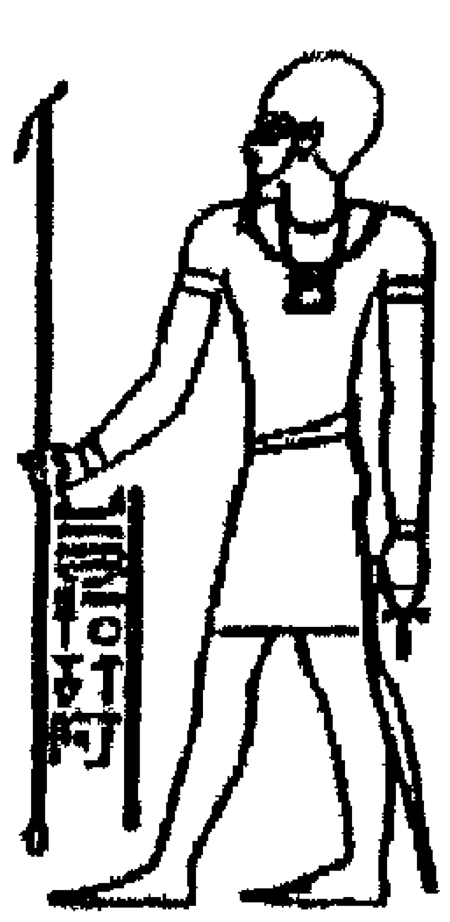

الطب المصرى القديم .. وصل إلى الصين

خلال شهر اكتوبر ١٩٩٧ ، انعقد فى باريس « المؤتمر الدولى للطب الصينى » وحضره أربعمائة باحث ومؤرخ وطبيب من مختلف دول وقارات العالم . وكان موضوع البحث الرئيسى فى هذا المؤتمر عرضاً موسعاً لتاريخ وطرق الطب التقليدى فى الصين منذ العصور القديمة حتى عصرنا الحاضر ، خاصة وأن هذا الطب التقليدى يعتمد إلى حد كبير على التداوى والعلاج بالنباتات والأعشاب الطبية .

● ومن الغريب أنه فى خلال الثلاثين عاماً الماضية انتشرت فى معظم المدن الأوربية والأمريكية ظاهرة العودة إلى العلاج بالنباتات والأعشاب الطبية بعد أن كثرت الشكوى من الآثار الجانبية الخطيرة التى تسببها معظم الأدوية الحديثة التى تعتمد فى تركيبها على المواد والمركبات الكيميائية ، وبالتالى فقد انتشرت فى تلك المدن محلات يديرها صينيون متخصصون فى التداوى بالأعشاب ، وهى أشبه ما تكون بمحلات العطارة المنتشرة فى القاهرة وكثير من المدن العربية والتى تبيع الأعشاب الطبية ، حيث يصف المريض الحالة المرضية التى يعانى منها ، فيتولى العطار - أو الصينى المتخصص - تركيب الوصفة الطبية من الأعشاب التى تصلح لعلاج تلك الحالة . وفى غالبية الأحوال تكون تلك الوصفة متوارثة عن أجيال سابقة أثبتت فائدتها وجدواها فى علاج مختلف أنواع الأمراض التى تصيب الجسم البشرى ، أو تكون مدونة فى كتب التراث أو محفوظة عن ظهر قلب وتنتقل إلى الأجيال المتتالية جيلاً بعد جيل .

● وفى هذا « المؤتمر الدولى للطب الصينى » تليت العديد من البحوث العلمية

والطبية التى تؤكد سلامة فكرة التداوى بالنباتات والأعشاب الطبية طبقاً للطرق والقواعد المتوارثة التى يتوارثها ممارسو الطب الشعبى فى الصين .

● وفى بحث تقدم به أحد كبار المتخصصين فى هذا الطب ، ذكر الباحث أن الطب الصينى التقليدى فى عمومه مدين للطب المصرى القديم ، سواء فى كيفية تشخيص الأمراض ، أو فى وصفات تركيب الأدوية الخاصة بعلاج تلك الأمراض . وأثبت الباحث أن الشواهد الأثرية الموجودة فعلا تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن المصريين القدماء هم أول شعب فى العالم استخدم النباتات والأعشاب فى علاج الأمراض ، بالإضافة إلى ما ابتكروه من أدوية أخرى تعتمد على بعض المواد المعدنية والمركبات الكيميائية .

● وأثبت الباحث أيضا أن طرق التداوى والعلاج بالنباتات والأعشاب التى وردت بالبرديات الطبية المصرية كانت قد انتقلت خلال العصور التاريخية إلى معظم الحضارات القديمة التى عاصرت الحضارة المصرية أو التى تلت الحضارة المصرية فى الظهور ، وأن من المؤكد أن الحضارة الصينية القديمة قد تأثرت بطريقة أو بأخرى بطرق العلاج بالنباتات والأعشاب التى نصت عليها البرديات المصرية ، نظراً لوجود العديد من أوجه التشابه والتطابق بين تلك الطرق فى كل من مصر القديمة والصين القديمة .

● وأشار البحث إلى فضل أطباء مصر القديمة فى توضيح الطريق أمام ممارسى مهنة التداوى بالأعشاب الطبية ، وذلك عندما شرحوا فى بردياتهم طرق تركيب الأدوية وطرق استخلاص وتقطير المواد الجوهرية الفعالة من النباتات والأعشاب الطبية ومن زهورها أو براعمها أو ثمارها أو بذورها أو جذورها . وفضلهم أيضا فى شرح وتوضيح طرق خلط أو مزج هذه المواد الجوهرية الفعالة بمواد أخرى حتى تعطى أثرها العلاجى المطلوب . وعلى سبيل المثال فقد استعملت بعض تلك المواد مخلوطة بعسل النحل لعلاج الجروح القطعية والجروح الناجمة عن الحروق . وقد أثبت العلم الحديث أن عسل النحل له أثر فعال فى منع تقيح الجروح ، ويخلق وسطاً مضاداً للبكتريا ، ويوفر بيئة رطبة حول الجروح والحروق ، كما يتضمن مُواداً تساعد على سرعة نمو خلايا جديدة للجلد .

● ولم يغفل البحث الإشارة إلى نبوغ أطباء وجراحى مصر القديمة فى ممارسة التخصصات الطبية فى علاج مختلف الأمراض وممارسة فن التحنيط . . وأن هؤلاء الأطباء قد حازوا شهرة واسعة فى كافة أرجاء دول العالم القديم كلها ، لدرجة أن العديد من ملوك وحكام تلك الدول كانوا يكاتبون الفراعنة وكبار رجال الدولة المصريين لكى يوفدوا إليهم بعضا من الأطباء المتخصصين ليتولوا علاجهم مما يعانونه من أمراض . كما أن هناك بعض الشواهد التاريخية والأثرية تدل على أن بعض الشعوب المجاورة لمصر وشعوب البحر المتوسط كانت توفد بعض النابغين من أبنائها لدراسة علوم الطب والصيدلة فى مدارس مصر القديمة .

بسم الله أرقيك .. والله يشفيك

لو رجعنا بالذاكرة إلى الماضى البعيد ، وعشنا بين أفراد المجتمعات الانسانية التى كانت تعيش فى عصور ما قبل التاريخ لنتعرف على الطريقة التى كانت تنظر بها تلك المجتمعات الى أى فرد منها يصيبه مرض من الأمراض ، لوجدنا أن الانسان عندما يكون سليما فإنه يعيش حياته العادية بين بنى قومه لا يشكو من شىء . . فاذا اعتراه مرض من الأمراض ـ فجأة أو بالتدريج ـ فإننا نجد هذا الإنسان يتألم ويبدأ فى الشكوى . . وعندما تشتد عليه أعراض المرض يبدأ فى التلوى والصراخ والبكاء وتنتابه النوبات الشديدة إلى أن يموت فى أغلب الأحوال .

● وقليلاً ما كانت هذه المجتمعات الانسانية البدائية تعرف سر ما قد يصيب أى فرد منها من عوارض الأمراض ، كأن يكون هذا الانسان قد جرح أو سقط من مكان مرتفع أو لدغه عقرب أو ثعبان . . ولكن فى أكثر الأحيان لم يكن سر الاصابة بالأمراض معروفا لدى تلك المجتمعات التى لم تكن تعرف أن هناك ميكروبات أو جراثيم تسبب تلك الأمراض التى تصيب الفرد أو تصيب الجماعة كلها فى شكل وباء سريع الانتشار . . وكان التفسير الوحيد أمام تلك الجماعات الانسانية أن هناك « أرواحاً شريرة» يعود إليها السبب فى كل ما حدث . . وبالتالى فلا سبيل أمامهم سوى اللجوء الى « ساحر القبيلة » ليمارس سحره لطرد تلك الأرواح الشريرة التى دخلت الى جسم المريض حتى يتحقق له الشفاء .

● ويقول علماء الاجتماع وعلماء الفولكلور المحدثون إن « السحر » وما إليه من

ممارسات مماثلة هو أمر ينكره عقل الانسان الحديث ويعتبره من الخرافات ، ومع ذلك فقد نبت السحر فى ذهن الانسان منذ آلاف السنين ، وكان أساسه هو الاعتقاد بأن بعض الناس « السحرة » يعتبرون أشخاصاً متميزين بما يملكونه من سلطان على القوى الخارجية غير المرئية ، وبما يتمتعون به من قدرة على إجبار تلك القوى على فعل ما يريد هؤلاء السحرة تحقيقه . وبالرغم من أن التعريف العلمى الحديث للسحر انه « كل أمر يخفى سببه ويتخيل على غير حقيقته ويجرى مجرى التمويه والخداع » إلا أن العلماء المحدثين لا ينكرون أن الايمان بالسحر ما زال يسيطر حتى الآن على نواح كثيرة من السلوك اليومى لإنسان العصر الحديث الذى ما زال متمسكاً ببعض الموروثات من العادات والسلوكيات والاعتقادات القديمة ، كأن يتشاءم بيوم معين أو برقم ١٣ . . كما ان الانسان المريض قد يتعرض الى قدر من الضعف البشرى يجعله عاطفيا ميالاً للاستهواء فيصبح على استعداد للتشبث بأى علاج لمرضه ـ خصوصا اذا كان مرضا مستعصيا ـ يقدم اليه مهما كان هذا العلاج غير عقلانى .

● ويقول العلماء ومؤرخو الطب الذين درسوا الطب المصرى القديم والصيدلة المصرية القديمة دراسة علمية ، إن هذا الطب ـ فى بعض فروعه ومراحله التاريخية ـ كان مختلطا بالسحر . والدليل على ذلك هو العثور على برديات طبية كثيرة تتضمن مجموعة من « الرقيات والتعاويذ والأدعية » التى تتلى لشفاء المريض ، ومن هذه البرديات بردية برلين التى تحتوى على نصوص بعض الرقيات والتعاويذ لعلاج النساء والحوامل والوالدات وعلاج بعض أمراض الأطفال . وورد فى هذه البرديات وجوب تلاوة هذه التعاويذ والأدعية عند قيام الكهنة أو الأطباء بعلاج المرضى ، وتلاوتها أيضا عند قيامهم بتركيب الأدوية الموصوفة للعلاج .

● ومن الغريب أن هذه البرديات مليئة أيضاً بوصفات التركيبات الدوائية التى تعتمد على النباتات والأعشاب الطبية كما تعتمد على المواد المعدنية والكيميائية . . كما أن البرديات الطبية الشهيرة كبردية « إيبرس » مثلاً تحتوى على مجموعة من النصوص والصيغ اللازمة لممارسة بعض الطقوس السحرية عند تشخيص المرض وعلاج المريض أو القيام باعداد وتركيب الدواء .

● وقد خلص بعض مؤرخى الطب من ذلك الى القول بأن معالجى الأمراض فى مصر القديمة كانوا ـ فى بعض الأحيان ـ يمزجون بين أسلوب العلاج بالسحر وأسلوب العلاج المادى بالعقاقير . وذلك فى الحالات التى يكون المرض فيها مستعصيا على العلاج ، فعندئذ يقوم الطبيب أو الكاهن المعالج بوصف هذه العقاقير والأدوية المادية، ويقوم فى الوقت نفسه بتلاوة الرقيات والتعاويذ أو أداء بعض الصلوات للآلهة طلباً لمساعدتها فى شفاء المريض ، أو يقوم بعمل تمائم تربط أو تعلق بجسم المريض كوسيلة لطرد الأرواح الشريرة التى دخلت الى جسمه وتسببت فى مرضه . كما وردت فى إحدى البرديات توصية بكتابة إحدى الصيغ السحرية على ورقة صغيرة من أوراق البردى ، ثم تنقع فى الدواء السائل الموصوف للمريض قبل أن يتناوله .

● وقبل أن تأخذنا الدهشة من هذه الممارسات نشير الى أن القصد منها ـ طبقا للعقائد الدينية المصرية القديمة ـ هو الاستعانة بالآلهة للمساعدة فى شفاء المرضى ، وهذا أمر فى حد ذاته محمود ، ومازالت بعض هذه الممارسات موجودة حتى الآن فى بعض القرى والمدن المصرية ، حين تحمل الأمهات أطفالهن المرضى الى الكنائس أو أضرحة أولياء الله الصالحين ، فيقوم القساوسة أو شيوخ المساجد بتلاوة رقية على الطفل المريض يقولون فيها ما معناه : « بسم الله أرقيك والله يشفيك » .

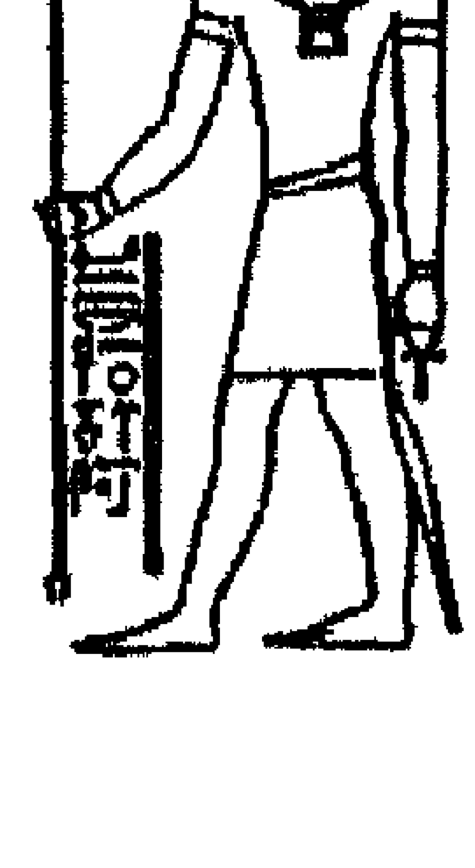

زيارة لمتحف التحنيط .. بمدينة الأقصر

فى مؤلفات كثيرة كتب علماء المصريات من مصريين وأجانب بحوثاً علمية وطبية وتاريخية عن معجزة « التحنيط » التى تميز بها قدماء المصريين وبرعوا فيها ، والتى ما زالت سراً مغلقاً أمام العلم الحديث . وبالرغم من التوصل إلى معرفة معظم المواد التى استخدمت فى تلك العملية ومعرفة الطريقة التى كانت تجرى بها ، إلا أن العلماء المحدثين عجزوا عن اكتشاف سر تركيب تلك المواد وعجزوا عن إجراء عملية تحنيط ناجحة مماثلة لعمليات التحنيط التى كان يقوم بها قدماء المصريين للحفاظ على مومياوات موتاهم لكل هذه الآلاف من السنين .

● وبالرغم من كل هذه البحوث والدراسات التى أجريت عن التحنيط فى مختلف العصور التاريخية لمصر القديمة إلا أن إقامة « متحف للتحنيط » يعتبر خطوة ذكية لتحقيق المزيد من الاهتمام ولفت النظر إلى تلك المعجزة العلمية التى حققها المصريون القدماء ، وهو أمر يهم علماء التاريخ والآثار وعلماء الطب ، كما يهم السياح والزوار من مصريين وأجانب ويزيد معارفهم عن الحضارة العظيمة التى صنعها شعب مصر وتفرد بها بين شعوب العالم القديم كله .

● وفى مكان ساحر الجمال يطل على الضفة الشرقية للنيل بمدينة الأمجاد العظمى للحضارة المصرية القديمة . . المدينة التى وصفها « هوميروس » بأنها طيبة العظيمة ذات المائة باب . . الحصينة المحروسة ذات الحوائط الذهبية ، أقيم هذا المتحف الراقى الجميل الذى اتبعت فيه أحدث طرق العروض المتحفية تمجيداً لمعجزة التحنيط ،

وفتحاً جديداً لباب المعرفة والثقافة التاريخية والأثرية ، وليضع أمام زواره كل ما يهمهم معرفته عن التحنيط والكيفية التى كان يتم بها فى العصور القديمة ، والأدوات الطبية التى كان يستخدمها المحنطون ، والمواد التى كانوا يستعملونها أثناء التحنيط ، والشعائر والطقوس الدينية والعقائدية التى كانوا يقومون بها قبل وأثناء وبعد إجراء هذه العملية .

● ولا يتسع المجال هنا لاستعراض كل معروضات متحف التحنيط بالأقصر ، إلا أننا نشير إلى أهم تلك المعروضات ، بدءاً بالرسوم الجدارية التى توضح لنا مراحل عملية التحنيط منذ لحظة وصول جثة المتوفى إلى حجرة التحنيط التى كانت تسمى «البيت الجميل » أو « بيت الطهارة » حتى لحظة الانتهاء تماماً من كل خطوات التحنيط والتكفين ووضع المومياء فى التابوت استعداداً لنقله إلى المدفن .

● ومن أهم المومياوات المحنطة المعروضة بالمتحف مومياء « ماساهارتا » الذى كان يشغل وظيفة قائد الجيش المصرى فى عصر الأسرة الحادية والعشرين ، والذى اكتشفت مومياؤه سنة ١٨٨١م ضمن مومياوات كبار كهنة آمون فى عصر الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين فى خبيئة الدير البحرى .

● وبطبيعة الحال فقد كانت هذه المومياوات موضوعة بداخل توابيت جميلة مزينة من الخارج والداخل بزخارف ورسوم تمثل الرموز الدينية المقدسة التى تساعد المتوفى فى الوصول إلى العالم الآخر والحياة فى نعيمه بسلام وأمان واستقرار . وفى المتحف بعض تلك التوابيت المزخرفة والمزينة بالنقوش والرسوم الملونة .

● ومن أهم المعروضات العلمية بالمتحف مجموعة من الأوانى تحتوى على بعض المواد الكيميائية السائلة والدهنية والصلبة التى عثر عليها والتى كانت تستخدم فى مراحل عملية التحنيط ، ومجموعة نادرة من الأدوات الطبية الأثرية التى كان يستخدمها المحنطون مثل « المشارط والأمواس والمقصات » التى كانت تستخدم فى عملية فتح البطن لاستخراج الأحشاء ، و « الملاقط والإبر والمخارز » التى كانت تستخدم فى خياطة الجلد ، و « الأزميل والملاعق » المستعملة فى استخراج المخ من جمجمة المتوفى ،

و « الفُرش » التى كانت تستعمل لتنظيف تجويف البطن بعد إستخراج الأحشاء .

● وكما كانت عمليات التحنيط تجرى للبشر ، كانت تجرى أيضا لبعض الحيوانات والطيور المقدسة التى كانت ترمز إلى الآلهة القديمة . ونرى فى المتحف مجموعة من مومياوات هذه الحيوانات المحنطة مثل : الكبش والتمساح والقرد والقطة وطائر أبى قردان وسمكة قشر بياض . بل ونرى أيضا بعض الأطعمة المحنطة التى كانت تدفن مع المتوفى ليتغذى بها فى رحلته إلى العالم الآخر ، ومنها مومياء لأوزة ولفخذة ماعز محنطة .

● ويتضمن المتحف أيضا معروضات لكافة التماثيل والرموز المتعلقة بمفهوم العالم الآخر فى عقيدة قدماء المصريين مثل تماثيل : أوزيريس وإيزيس ونفتيس وأنوبيس [ابن آوى] ونموذج لأحد المراكب الجنائزية التى كانت تنقل المتوفى عبر النيل إلى حيث يدفن ، ونماذج أثرية للرموز المقدسة كعلامة « عنخ » التى ترمز إلى الحياة وعمود « جِدْ » الذى كان يرمز إلى أوزيريس إله العالم الآخر .

● وإلى جانب متعة المشاهدة التى تتيحها زيارة هذا المتحف ، تتحقق للزائر أيضا متعة العلم والمعرفة والثقافة التاريخية والأثرية .

التابوت الخارجى للكاهن « ماسهرتى »

[من معروضات متحف التحنيط بالأقصر]

رأس مومياء الكاهن « ماسهرتى » كبير كهنة آمون وقائد الجيش ـ الأسرة ٢١ .

سمكة محنطة

مقص

ملقاط

مخراز

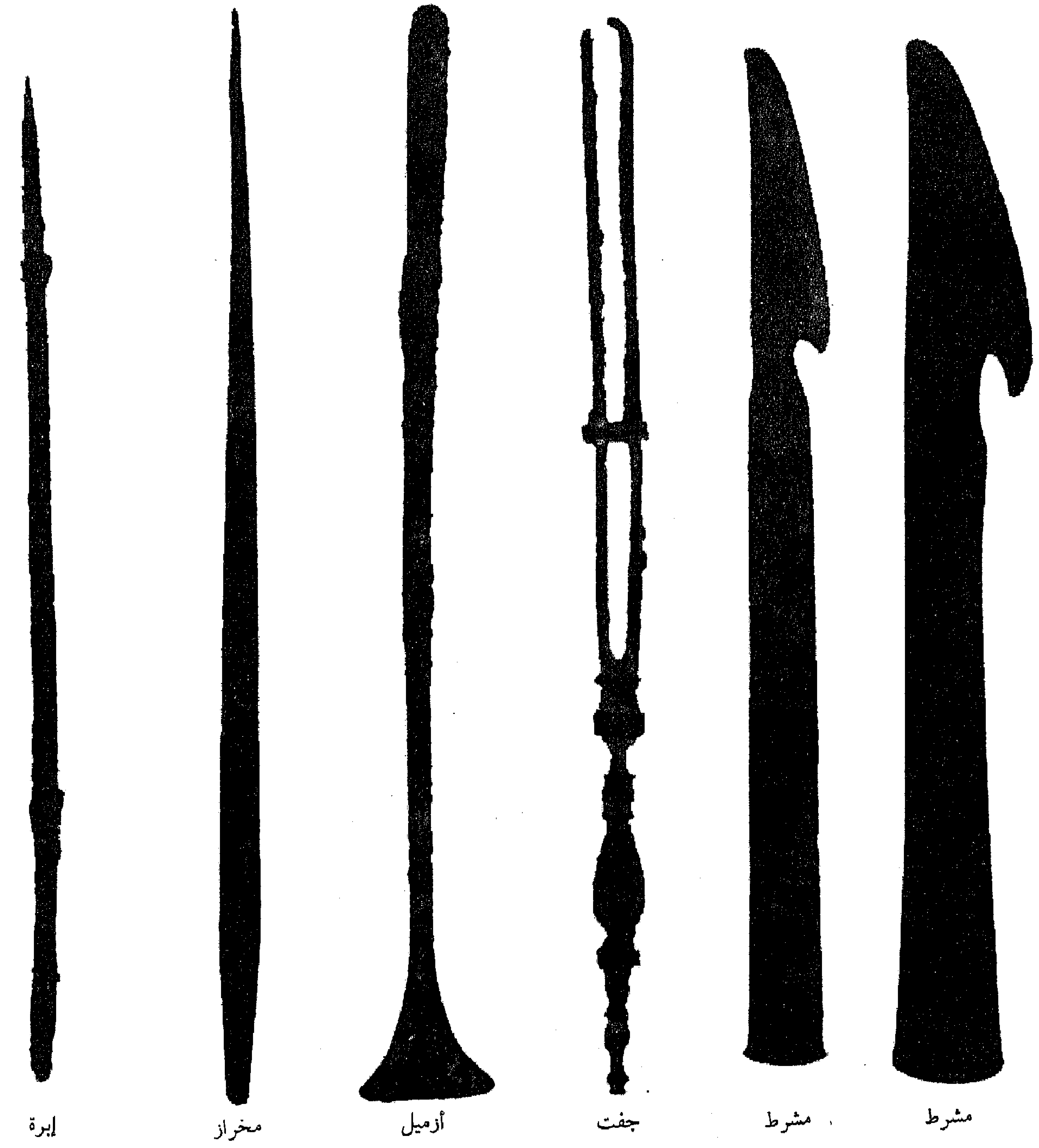
مشرط
مشرط
جفت
أزميل
مخراز
إبرة

الدير البحرى .. وفاتنة الجبل المبتسمة

فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، أمرت ملكة عظيمة ببناء ذلك المعبد العظيم . . وعرفت تلك الملكة فى التاريخ القديم بأنها كانت داعية سلام ولا تحب سفك الدماء . . وظل معبدها على مدى آلاف السنين دليلاً على جلال الفكر الانسانى الراقى ، وشاهداً على عظمة العمارة المصرية التى بلغت أعلى مدارج الرقى والذوق الرفيع . ولم تكن الملكة تتصور ، ولم يتصور أحد فى العالم القديم ولا فى العالم الحديث أن يوماً أسود سيأتى فى غفلة من زمن الغافلين ، وتقتحم فيه فئة ضالة من أسفل وأنذل سفهاء المجرمين المجردين من الضمير ومن الإيمان بأى دين ، يحولون ساحة هذا المعبد الراقد بأمان فى حضن الجبل إلى مجزرة يريقون فيها دماء الأبرياء .

● الملكة اسمها « حتشبسوت » . . ويجمع المؤرخون القدماء والمؤرخون المحدثون على أنها كانت واحدة من أعظم نساء التاريخ فى العالم القديم كله . أما المعبد فاسمه الحالى هو « الدير البحرى » وأطلق عليه هذا الاسم لأن بعض الرهبان من أقباط مصر فى القرن السابع الميلادى اتخذوه ديرا يتعبدون فيه وملجأ يوفر لهم الطمأنينة والسلام .

● ومن الناحية الأثرية يعتبر معبد الدير البحرى معبداً جنائزياً كانت تقام فيه الصلوات وتقدم القرابين وتتلى فيه الأدعية والتراتيل ترحماً على روح الملكة بعد وفاتها . . ومع ذلك فقد أمرت حتشبسوت ببناء هذا المعبد الضخم الفريد فى طرازه بقصد الدعاية السياسية لنظام حكمها ولإبراز قدرتها وقوة شخصيتها تدعيماً لحقها فى الجلوس

على عرش مصر بالرغم من أنها امرأة . وكان انفراد امرأة بحكم مصر أمراً غير مقبول لدى الشعب المصرى بمختلف طبقاته ، ولم يقبل إلا فى أحوال نادرة جداً .

● ومن الناحية التاريخية نجد أن قبيل بداية حكم الملكة حتشبسوت كانت الطبقة التى تمثل العسكريين ورجال الدولة ورجال الدين ومن يرتبط بهم من أعضاء الطبقة العليا من المجتمع المصرى منقسمة إلى تيارين : تيار يمثل المثقفين ورجال الدين ، وتيار ثان يمثل العسكريين وكبار ضباط الجيش . وقد آثرت الملكة الانضمام إلى التيار الأول الذى كان يدعو إلى إقرار السلام داخل مصر وخارجها ، وإلى قيام العلاقات المصرية الخارجية مع الشعوب والدول الأخرى على أساس المبادلات التجارية تصديراً واستيراداً ، والارتباط مع هذه الدول بعلاقات سياسية مسالمة .

● لذلك فقد أصدرت الملكة أمرها بتكليف المهندس « سننموت » ـ وهو أحد كبار رجال الدولة وكان يشغل عدة مناصب رفيعة ـ بأن يشرع على الفور فى بناء هذا المعبد العظيم ، وأن يجعله فريداً فى طرازه ومتميزاً عن بقية المعابد المصرية التى بناها الملوك السابقون فى طول البلاد وعرضها ، ولا مثيل له بين معابد العالم القديم فى البلاد الأجنبية .

● وهكذا تم اختيار موقع بناء هذا المعبد فى الجبل الصخرى المطل على النيل من الضفة الغربية ، وليصبح فى مواجهة معبد الأقصر ومعابد الكرنك بالضفة الشرقية . . وأصبح المعبد بموقعه هذا من أكثر المبانى والعمائر الأثرية المصرية التصاقاً بالبيئة الطبيعية التى تحيط به وتحنو عليه . وتم وضع التصميم الهندسى والمعمارى للمعبد على أساس بناء ثلاث شرفات ومقاصير متدرجة إلى أعلى ، تربطها منحدرات صاعدة خفيفة الميل . وزينت الشرفات بأجمل النقوش الجدارية البارزة ذات الألوان الزاهية ، تصور أهم الأحداث التى وقعت فى عهد الملكة ، وأهمها رحلة الأسطول التجارى المصرى إلى بلاد بونت ، والبضائع التى صدّرتها مصر والبضائع التى استوردتها من تلك البلاد .

● وقد صممت الشرفات بحيث تتقدمها من الخارج مجموعات من الأعمدة البديعة المتناسقة الشكل ، روعى فيها التناسب والتنسيق المعمارى المتقن . ومن يراها من بعيد

يشعر على الفور بجمالها وروعتها وحسن ذوقها . ويقول « برستيد » إن التصميم الهندسى والمعمارى لهذه الأعمدة يثبت أن المصريين القدماء هم أول شعب فى العالم فهم فن تنسيق قاعات الأعمدة الخارجية فى المعابد والمبانى الدينية ، وهم بذلك سبقوا الإغريق القدماء فى هذا المضمار بنحو ألف سنة .

● وتدل الشواهد الأثرية على أن ساحات المعبد كانت مزينة بالأشجار العطرية المستجلبة من الخارج ، وأن المنحدرات الصاعدة كانت مزينة بتماثيل على شكل « إبى الهول » برؤوس كباش ورؤوس تمثل الملكة . وقد عثر الأثريون على بقايا أكثر من ١٢٠ تمثالاً من هذه التماثيل ولكنها للأسف كانت محطمة .

● وكانت أبواب المعبد مصنوعة من البرونز المطعم بالذهب والفضة . وكان المعبد فور انتهائه آية فى الجمال والروعة ، لذلك فقد أطلقت عليه الملكة اسم « جنة آمون » ووهبته إلى هذا الإله ليتخذه سكنا وليتنزه فى جنات حدائقه .

● وقد وصف عالم الآثار المصرية الشهير « سير فلاندرز بترى » هذا المعبد وأشاد بمهارة مهندسه فى فن العمارة والبناء والذوق السليم . ووصفه المؤرخ « روبرت هاتشتر » وصفا شاعرياً قال فيه : « هذا المعبد يشبه حسناء رقيقة تعطرت وتزينت . . يلفها رداء جمع بين الأبيض والأزرق والبرتقالى . . ووقفت وقفة المتدللة بجمالها . . مستندة إلى جبل شامخ يجمع بين البرتقالى والقرنفلى والأحمر والأسمر الفاتح . . فجعلها فاتنة الجبل المبتسمة » .

● لعن الله المجرمين السفلة الأنذال الذين لوثوا هذا التاريخ الجميل . بجريمتهم البشعة الشنعاء .

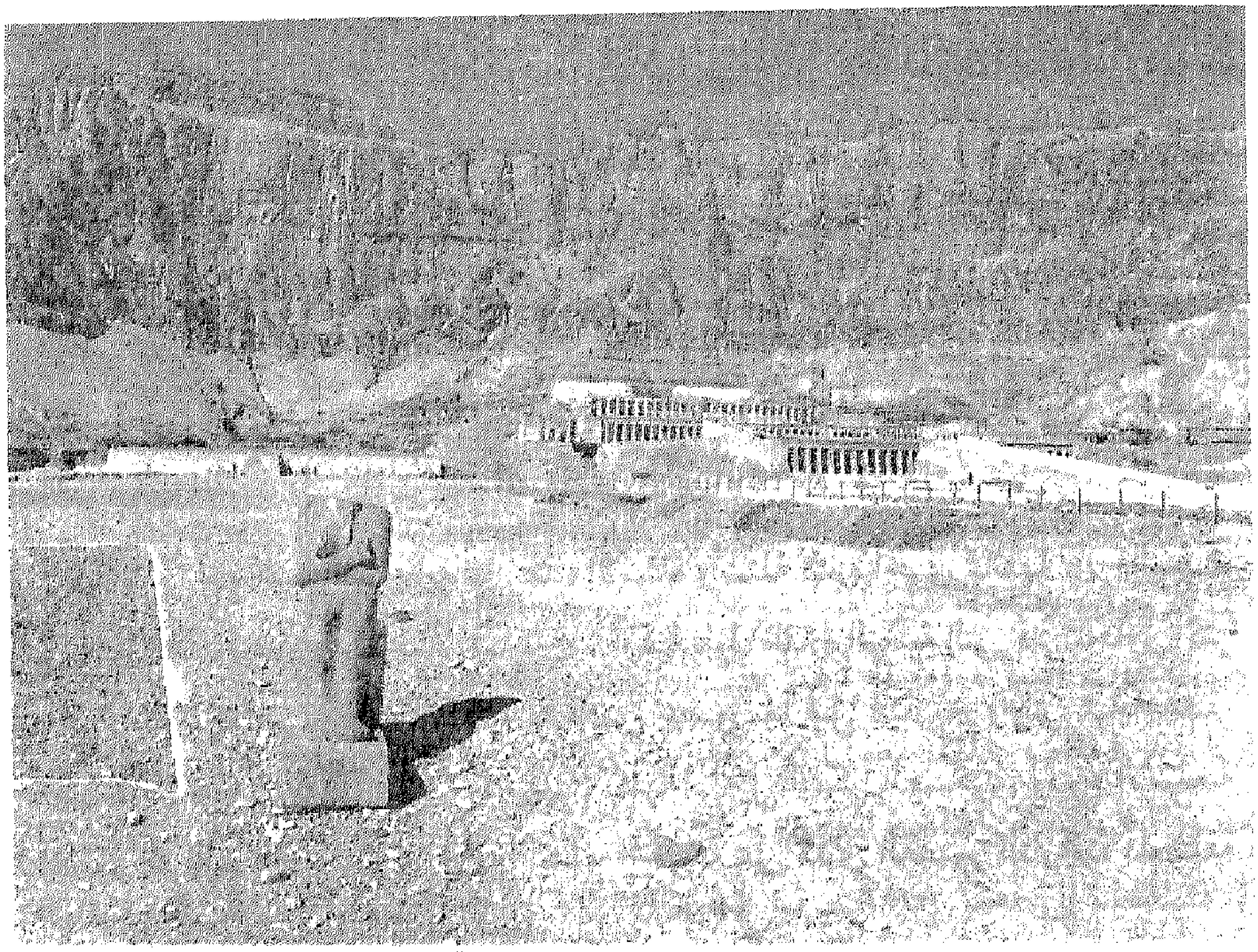

معبد الدير البحرى . . في حضن الجبل

أرض الخيرات .. وجيرانها الجياع

قد يثور التساؤل حول الأسباب التى أدت إلى جعل « مصر القديمة » من أقوى الدول فى عالمها المعاصر . . ومتى جيّشت مصر لنفسها جيشاً يحميها ؟ . . وهل كان فى مقدور هذا الجيش أن يحمى حدود بلده أم كان يتجاوز ذلك فيقوم بحملات لتأديب الأعداء خارج هذه الحدود ؟ . . ومتى ظهرت المؤسسة العسكرية المصرية القديمة متميزة بأعلى مستوى من العلوم العسكرية ، والقدرة على وضع الخطط الحربية ، وتقنين أخلاقيات الحرب ولو كانت ضد ألد وأعتى الأعداء ؟

● ليس من السهل الإجابة على هذه الأسئلة وأسئلة كثيرة أخرى تماثلها . . فالبحث فى مثل هذه الموضوعات عسير لسببين : أولهما طول الفترة الزمنية التى قد تتجاوز أكثر من ثمانية آلاف سنة قبل الميلاد ، بدءاً من عصور ما قبل التاريخ وحتى نهاية عصر الحضارة المصرية القديمة . . وثانيهما : كثرة مراحل الفكر العسكرى وتنوع الأسلحة وتطور التنظيم العسكرى فى زمنى السلم والحرب على مدى العصور التاريخية المختلفة . . ومع ذلك فنبدأ الحكاية من أولها .

● كانت النقلة الحضارية العظمى التى حققها أوائل المصريين الذين عاشوا مستقرين حول مجرى النيل فى واديه الأدنى ، سواء فى الوجه القبلى أو فى مناطق الدلتا ، من أهم الأسباب التى أدت إلى استقرار الحياة فى منطقة محددة . . وهذا الاكتشاف العظيم كان متمثلا فى قيام الإنسان بزراعة الأرض بنفسه بدلاً من الاعتماد على النباتات البرية التى كانت تنمو تلقائيا دون تدخل من الانسان ، والتى كانت تمنحه طعاماً من

الجذور والحبوب والثمار دون أن يبذل فى الحصول عليها سوى مجهود قطفها وجمعها من فوق الأشجار .

● هؤلاء المصريون الأوائل الذين عاشوا فى ذلك الزمن السحيق ، لاحظوا أن النيل عندما يفيض فى كل عام ، كان يتجاوز مجراه ويغطى مساحات هائلة من الأرض على الشاطئين . ويترسب « الطمى » على تلك الأراضى فيخصِّبها ويجعلها صالحة للزراعة بأقل مجهود ، الأمر الذى مكَّن هؤلاء المصريين الأوائل من زراعة محاصيل متنوعة ووفيرة وبكميات ضخمة أكثر مما كانوا يحتاجونه فعلاً من حبوب وثمار .

● وبالنظر إلى أن الطمى الذى يترسب فوق الأرض كان يحولها إلى تربة خصبة «سمراء » اللون ، فقد أطلق المصريون القدماء على وطنهم اسم « كيميت » ومعناه «الأرض السوداء » . وقد اعتاد هؤلاء المصريون على انتظار انحسار مياه الفيضان من فوق الأرض ، فيشرعون فوراً فى حرث الأرض وبذر البذور ورعاية الزراعات حتى تنمو المحاصيل ويبدأ موسم الحصاد .

● وقد أدرك هؤلاء المصريون القدامى منذ البدية أن بلادهم ذات موقع فريد فى شمال شرق أفريقيا ، ومتصلة بقارة آسيا ، ومطلة على البحر الأحمر الذى يصلها بشرق أفريقيا وجنوب غرب آسيا ، ومطلة أيضا على البحر المتوسط الذى يصلها بجزره وبجنوب أوربا . . فكانت بذلك معبراً لكل الهجرات الإنسانية الواسعة التى حدثت خلال العصور الجيولوجية والمناخية المعروفة ، كالعصر الجليدى والعصر المطير وعصر الجفاف . . فتسللت إلى مصر جماعات من شعوب مختلفة كانت تعيش فى المناطق المجدبة المحيطة بمصر ، ومنها شعوب السوادن والنوبة العليا وليبيا وشمال أفريقيا وشرق البحر المتوسط . ويقول علماء « الانثروبولوجى » إن بعض هذه الجماعات قد استقرت بمصر مجاورة للمناطق التى كان يعيش بها المصريون الأصليون . وبمرور الزمن تمصَّرت هذه الجماعات واندمجت فى المجتمع المصرى بالتزاوج والمعايشة اليومية وأصبحت أجيالها اللاحقة كالمصريين الأصلاء سواء بسواء .

● وبنمو المجتمع المصرى واستقراره بزغت النظم الاجتماعية ونشأ نظام « القرى »

وظهر بالتالى حس وطنى جعل المصريين جميعاً يتمسكون بأرضهم التى توفر لهم الخيرات من طعام وشراب وملبس ، كما توفر لهم حياة مستقرة يحكمها نظام جماعى ، له عادات وتقاليد ، وفكر وفن وعقيدة .

● وبذلك تميز المصريون القدماء عن غيرهم من الشعوب المعاصرة لهم ممن يعيشون فى الصحارى المحيطة ببلادهم شرقاً وغرباً . وكانت أغلب هذه الشعوب مكونة من قبائل بدوية رعوية دائمة الترحال وراء الماء والكلأ . . ويعيشون فى مناطق صحراوية قاحلة لا توفر لهم إلا أقل القليل ، الأمر الذى كان يدفعهم فى أغلب الأحوال إلى التطلع غير المشروع إلى الأراضى المصرية الوفيرة الخيرات ، فكانوا يقومون بغارات فجائية للسلب والنهب ، ويسرقون المحاصيل والمواشى والطيور الداجنة من حقول المصريين وقراهم . . ولذلك فقد كان على المصريين أن يلجأوا إلى « القوة » التى تمكنهم من صد هذه الهجمات واتقاء شرورها . . وهكذا أصبح من قدر المصريين القدماء أن يكونوا أول شعب فى التاريخ تنبع فيه فكرة وعقيدة الدفاع عن أرض الوطن .

أرض الخيرات .. فى مصر

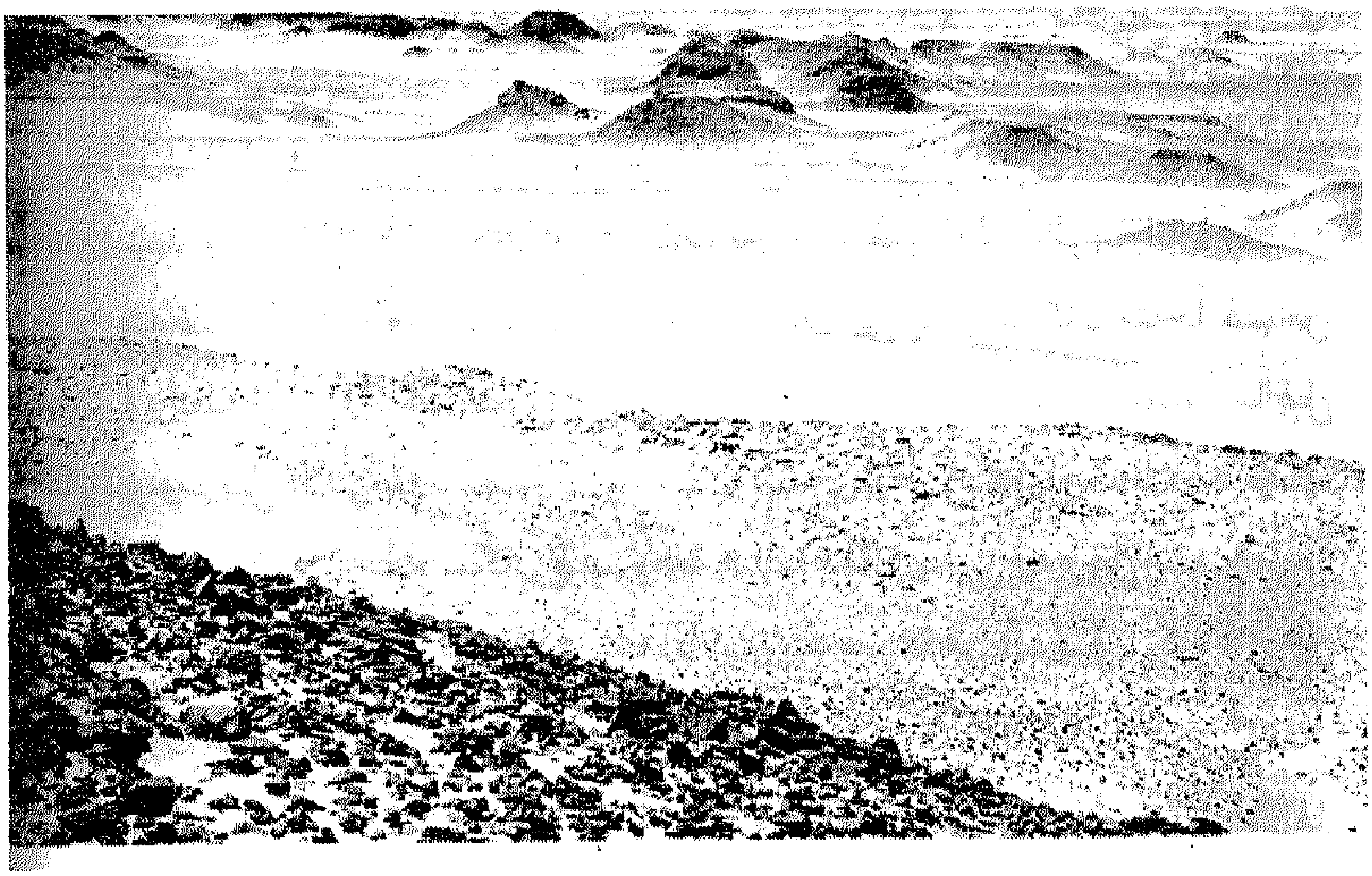

وفي مثل هذه الأرض القاحلة .. كان يعيش جيران مصر الجياع

منذ البداية .. مصر تتسلح للدفاع عن أرضها

ومن الحقائق المسلم بها ـ نتيجة لدارسة تاريخ مصر القديم والحديث ـ أن الشعب المصرى فى عمومه شعب مسالم ، يحب التمتع بحياة آمنة خالية من الشرور . . فهو يعيش فى بلد كثير الخيرات التى تضمن له استمرار حياة لا يهددها شبح الجوع أو الحرمان . . ووفرة الخيرات أدخلت الطمأنينة والأمان إلى قلوب المصريين القدماء ، فانطلقت مواهبهم فى تأسيس ونشر حضارة راقية يسودها السلام والفن والخضوع للارادة الإلهية التى تتحكم فيهم كما تتحكم فى الكون كله .

● هذه الحياة الرغدة الوفيرة الخيرات كانت مطمعاً دائماً للشعوب والقبائل التى كانت تعيش فى المناطق المحيطة بمصر ، والتى كانت تشن غارات السلب والنهب كلما سنحت لها الظروف . ومنذ عصور ما قبل التاريخ تعرضت الأراضى المصرية لمثل هذه الغارات . ومن المؤكد أن سكان القرى المصرية فى مناطق الدلتا والوجه القبلى الذين كانوا يتعرضون لتلك الغارات ، كانوا يواجهون المعتدين بقدر ما كان متاحاً لهم من أسلحة وتنظيم وقيادة . وقد تم العثور على بعض الرسوم التى ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ وما قبل الأسرات ، تصور لنا الإنسان المصرى وهو يستعمل السلاح ، ومنها رسم أثرى قديم عثر عليه بمكان قرب واحة « الداخلة » يظهر فيه رجل يشد القوس ويصوب سهما نحو أسد ويمسك فى يده الأخرى بمجموعة من السهام . كما عثر على رسوم ـ من نفس الفترة ـ تصور رجالاً يستخدمون الرماح .

● إذن يمكن القول بأن السهام والرماح ـ وإن كانت مخصصة فى الأصل لاستعمالها

فى عمليات صيد الحيوانات - إلا أنها كانت أيضا من الأسلحة التى استعملها المصريون الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ لمواجهة الأعداء الذين يشنون غاراتهم لسرقة المحاصيل والممتلكات .

● وكان أعداء مصر التقليديون فى تلك العصور يهاجمون أراضى مصر الزراعية قادمين من المناطق القاحلة فى صحارى آسيا [عبر شبه جزيرة سيناء] . . أو قادمين من المناطق الليبية بالصحراء الغربية . . أو قادمين من مناطق النوبة وشمال السوادن فى الجنوب . وكان من المحتم على المصريين الأوائل أن يهبوا « للدفاع » عن أرضهم وممتلكاتهم ، وأن يبذلوا كل جهد ممكن لصد غارات هؤلاء المهاجمين الذين يمارسون عمليات السلب والنهب . وبمعنى آخر فقد كانت المعارك التى دارت ضد هؤلاء الأعداء تعتبر نوعاً من الحروب « الدفاعية » دارت على الأرض المصرية ولم تتجاوز حدود مصر الطبيعية فى الوجهين البحرى والقبلى .

● ومن المعروف أن تاريخ مصر « المكتوب » بدأ حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، حين قام الملك « مينا » بتوحيد الوجهين فى مملكة واحدة ، وأنشأ أول حكومة مركزية فى عاصمة مصر الجديدة فى مدينة « منف » . وبدأ عصر الكتابة والتدوين ، وأصبح على رأس الأسرة الملكية الأولى التى حكمت مصر على مدى نحو ٢٢٠ سنة [من عام ٣٢٠٠ ق م إلى عام ٢٩٨٠ ق م] .

● وفى عصر هذه الأسرة رأت مصر تأمين حدودها الجنوبية ، فمدتها حتى منطقة الجندل « أو الشلال » الأول . وتوصل ملوك هذه الأسرة إلى فكرة أن « الهجوم خير وسيلة للدفاع » . . وأن « القوة » أمر ضرورى لتوفير الأمان لمصر والمصريين . وقد تمثلت هذه الفكرة فى الرسم التقليدى الذى ظهر فى عصر الأسرة الأولى واستمر آلاف السنين بعدها ، وهو الرسم الذى يصور الملك - أى ملك مصرى - وهو يؤدب عدواً راكعاً . وهو رسم رمزى يقصد به التعبير عن أن أوجب واجبات حكام مصر هو الدفاع عنها وقطع دابر أعدائها .

● وتدل بعض الشواهد الأثرية التى يرجع تاريخها إلى عصر الأسرة الأولى على أن

أحد ملوك هذه الأسرة وهو الملك « زت » أو « الملك الثعبان » قد قام « بتحصين » المدن المصرية وتحصين الحدود .

● وكما اكتشفت فى منطقة سقارة مقبرة لوزير اسمه « حماكا » كان وزيراً للملك «دن» ـ وهو أحد ملوك الأسرة الأولى ـ وقد عثر فى مخازن تلك المقبرة على آثار رائعةتدل على مستوى الدقة والاتقان فى الفن المصرى فى تلك المرحلة المبكرة من التاريخ المصرى . وبصرف النظر عما عثر عليه فى تلك المقبرةمن القطع الأثرية الجميلة ، نشير إلى مجموعة من الصناديق الخشبية والأكياس الجلدية كانت تحتوى على مجموعة من الأسلحة المصنوعة من حجر الصوان ، وسهام مصنوعة من خشب الأبنوس والعاج لها أسنان من العظام . ونفهم من دفن هذه الأسلحة فى مقبرة الوزير « حماكا » أن مصر فى عصر بداية الأسرات فى القرن الحادى والثلاثين قبل الميلاد ، كانت تعرف أنواعاً من الأسلحة المستعملة فى المعارك الحربية التى كان يخوضها المصريون القدماء دفاعاً عن بلادهم وما تنتجه من خيرات .

الصورة الرمزية التى ظلت مستخدمة طوال التاريخ المصرى القديم منذ عصر الاسرة الأولى حيث نرى ملك مصر يؤدب أعداءها .

فى عصر الدولة القديمة : الجيش لحماية الصناعة والتعدين

اتفق المؤرخون على تسمية عصر الأسرتين الأولى والثانية باسم « العصر العتيق » وهو عصر امتد نحو ٤٢٠ سنة بدءاً من عام ٣٢٠٠ ق م حتى عام ٢٧٨٠ ق م . . ثم بدأ بعد ذلك عصر مجيد فى تاريخ الحضارة المصرية سمى باسم « الدولة القديمة » وهو يشمل الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة ، بدأ عام ٢٧٨٠ ق م وانتهى عام ٢٢٥٨ ق م ، أى استمر نحو ٥٢٢ سنة .

● ويقول المؤرخ الحجة فى تاريخ الحضارات « أرنولد توينبى » إن حضارة مصر القديمة بلغت أعلى ذراها فى ذلك العصر ، وتفوقت على سائر الأمم القديمة فى كافة الميادين العلمية والحضارية والاقتصادية ، وبلغت قمة التفوق فى علوم الهندسة والعمارة والفلك والطب والفن والفلسفة والقانون ونظم الادارة المركزية .

● وعصر « الدولة القديمة » يطلق عليه أيضا اسم « عصر بناة الأهرام » نسبة إلى تلك المبانى والمنشآت المعمارية الشاهقة التى بناها ملوك هذه الأسرات بدءاً من الهرم المدرج بسقارة الذى بناه الملك « زوسر » أول ملوك الأسرة الثالثة ، ومروراً بأهرام الجيزة حتى آخر هرم تم بناؤه فى عصر الأسرة السادسة .

● وفى عصر الدولة القديمة بدأت الدولة تشعر بقوتها وبحسن تنظيم إدارتها ، فتوسعت فى المشروعات الإنمائية التى أدت إلى زيادة الخيرات التى كان ينعم بها الشعب المصرى ، وبالتالى فقد ازداد تطلع العديد من القبائل الأفريقية والآسيوية إلى النزوح إلى مصر سواء بقصد الإقامة الدائمة أو لممارسة العدوان من أجل السلب والنهب . ولذلك

فقد تحتم على حكام مصر أن يعملوا ألف حساب لضرب وتأديب هؤلاء الطامعين . وتدل الشواهد التاريخية على أن الملك « زوسر » الذى تولى الحكم عام ٢٧٨٠ ق م كان أول ملك مصرى يأمر بالتوغل فى بلاد النوبة السفلى فيما وراء الشلال الأول حتى منتصف الطريق إلى الشلال الثانى . وذلك لتأمين الحدود الجنوبية ، ولصد غارات المتسللين إلى جنوب الصعيد . ومن الطريف أن نذكر هنا أن آخر ملوك الأسرة الثالثة كان اسمه « حونى » [وهو صاحب هرم ميدوم] ومعنى اسمه « الضارب » وللأسف فليست لدينا شواهد تاريخية أو أثرية تساعدنا على فهم السبب وراء اطلاق اسم «الضارب » على هذا الملك ، وإن كنا نستنتج انه لم يكن « ضارباً » لشعب مصر ، وأغلب الظن انه كان « ضاربا » لاعدائها .

● وبسبب النمو الحضارى المتصاعد والذى بدا جلياً فى عصر « الدولة القديمة » احتاجت مصر إلى العديد من المواد الأولية والمواد الخام اللازمة للصناعات المختلفة وأهمها الصناعات المعدنية والصناعات الخشبية وصناعة بناء السفن على وجه الخصوص . وعلى سبيل المثال فقد كانت مناجم الذهب والنحاس منتشرة فى الصحراء الشرقية وبلاد النوبة ، كما كان من السهل الحصول على النحاس والفيروز من مناطق شبة جزيرة سيناء ، أما الأخشاب ـ وأهمها أخشاب الأرز ـ فقد كانت تستورد من المناطق السورية واللبنانية . وبالتالى فقد كان لابد من الناحية الإدارية تنظيم حرفة «التعدين » وتأمين من يتخصص فى هذه الحرفة من العمال والمهندسين .

● وكانت الخطة التى وضعتها مصر فى ذلك العصر هى إعداد مجموعات من العمال المدربين على أعمال التعدين والأعمال الأخرى المتعلقة بعمليات التعدين ، وتشكيل هذه المجموعات على هيئة « بعثات » منظمة تضم هؤلاء العمال المهرة والمهندسين والرؤساء المشرفين على أعمالهم ، وتزويد هذه البعثات بكل ما تحتاجه من أدوات وطعام وشراب . . وذلك بوضع خطة خاصة لمد خطوط الإمداد والتموين بين أقرب المدن المصرية وبين مواقع عمليات التعدين فى المناطق المختلفة . وكانت المدة المخصصة لكل بعثة من هذه البعثات تتراوح ما بين ستة شهور وعام كامل ، ثم تعود البعثة لتحل محلها بعثة جديدة فى نفس المكان . .

● وبالنظر إلى طول هذه الفترة فقد كان أعضاء البعثة التعدينية يسافرون ومعهم زوجاتهم وأولادهم حيث تتولى الزوجات تزويد البعثة بالخبز الطازج والطعام الناضج ولتوفير حياة طبيعية مستقرة على نحو ما لكافة أعضاء البعثة . . ومع ذلك فقد كانت هذه البعثات التعدينية تتعرض فى كثير من الأحيان إلى هجمات البدو وقبائل الصحراء، الأمر الذى جعل من الضرورى أن يوضع نظام لحماية هذه البعثات من أى هجوم محتمل. . فكانت تصاحب البعثة فرقة من الجنود مزودين بأسلحة كافية لتوفير الحماية اللازمة . وكان هؤلاء الجنود ورؤساؤهم من الضباط يصحبون هم أيضا زوجاتهم وأولادهم .

● وتدل الشواهد الأثرية على أن الملك « سنفرو » الذى أسس الأسرة الرابعة عام ٢٦٨٠ ق م [وهو والد الملك خوفو] أرسل بعثة لجلب أخشاب الأرز من سواحل لبنان. وكانت هذه البعثة مكونة من ٤٠ سفينة بحرية . . كما تدل الشواهد الأثرية أيضا على أن إسم الملك « خوفو » [صاحب الهرم الأكبر] منقوش فى بعض مناجم النحاس والفيروز فى شبة جزيرة سيناء . . كما وجدت نقوش أخرى تدل على أنه حارب «الساميين »، الرحل الذين كانوا يتجولون ويتجمعون فى سيناء وفى جنوب فلسطين قادمين من المناطق الآسيوية الداخلية ، والذين كانوا يهددون بعثات التعدين أو يتأهبون للإغارة على حدود مصر الشرقية .

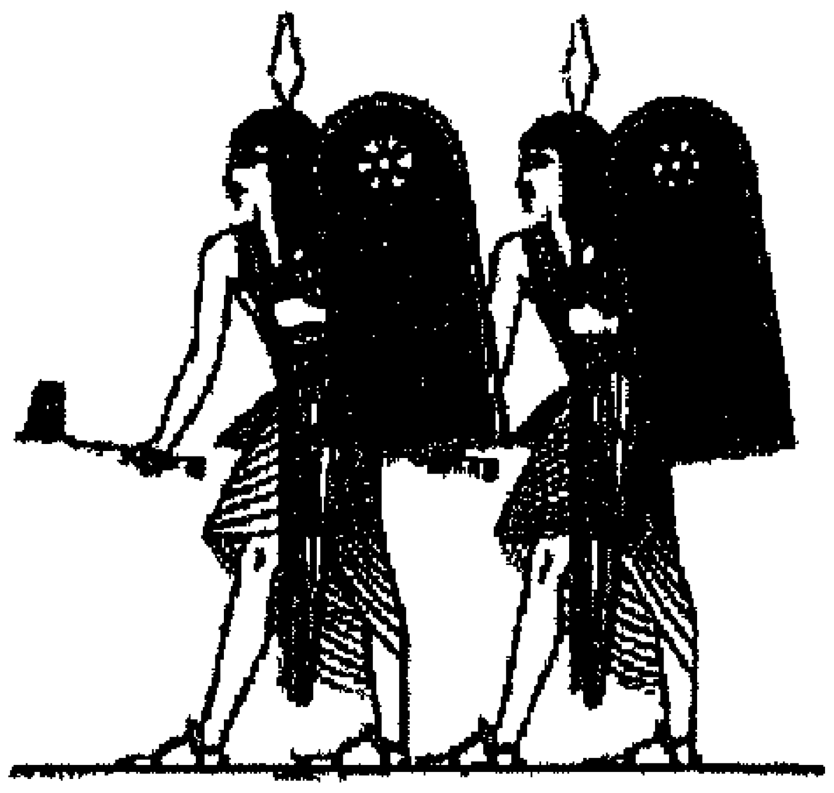

حين أخذ عدو مصر يشد شعره يأساً وأسى

بدأ عصر الأسرة الخامسة عام ٢٥٦٥ ق م وانتهى عام ٢٤٢٠ ق م . . أى استمر نحو ١٤٥ سنة . وفى عصر هذه الأسرة ظلت مصر تدافع عن نفسها ضد المتسللين إليها من الجنوب ومن الشرق .

● وظل ملوك هذه الأسرة يرسلون حملاتهم الاستكشافية سواء إلى داخل بلاد النوبة وبلاد وسط وشرق أفريقيا ، أو إلى داخل المناطق الفلسطينية والسورية بشمال شرق البلاد . وكان الهدف من هذه الحملات تحقيق أغراض علمية واستطلاعية لمعرفة ما تدبره الشعوب المجاورة لمصر من مؤامرات . . وعلى سبيل المثال فقد كانت بعض قبائل البدو الآسيوية التى تعيش فى شمال شرق بلاد ما بين النهرين [العراق] تتجول فى المناطق السورية وتتجمع فى المناطق الفلسطينية استعداداً للتسلل إلى مصر أو الهجوم على شرق الدلتا . ولذلك فقد كان من اللازم أن تأخذ مصر حذرها وتستعد للدفاع عن أرضها .

● وتدل بعض النقوش التى يرجع تاريخها إلى عصر هذه الأسرة على وجود إدارة ـ ضمن إدارات الدولة ـ تسمى « إدارة الجيش » . وتحكى لنا بعض هذه النقوش أخبار بعض قادة الجيش المصرى وما حققوه من نصر فى المعارك التى خاضوها .

● ومن أهم هذه الحكايات نقوش مرسومة على جدران مقبرة « إنتا » ـ وهو أحد رجال الدولة المهمين فى عهد الملك « ساحو رع » وهو من ملوك الأسرة الخامسة ـ ويبدو أن « إنتا » هذا قد تلقى أمر الملك بقيادة حملة ضد الآسيويين . وتقول النقوش المكتوبة

المدعمة بالصور إن الجيش المصرى قام بغزو مكان فى آسيا اسمه «نديا» [وللأسف لا يعرف المؤرخون موقع هذا المكان ، وإن كانت النقوش تدل على انه كان مكاناً محصناً بقلعة يحتمى بها الآسيويون] .

● وتبين لنا مجموعة الصور أن المصريين اشتبكوا مع هؤلاء الأعداء وجهاً لوجه ، فاضطر الاعداء إلى الفرار والاحتماء بقلعتهم ، فلاحقهم المصريون وحاصروا القلعة ، ثم أخذوا يحطمون أبواب القلعة ويثقبون جدرانها بخوابير مدببة مصنوعة من جذوع الأشجار [وهى طريقة حربية ابتدعها المصريون القدماء لاقتحام القلاع ظلت مستخدمة حتى العصور الوسطى فى أوربا] . . ثم قامت أعداد كبيرة من الجنود المصريين بتسلق جدران قلعة « نديا » باستخدام سلالم طويلة مصنوعة من الخشب توطئة للهجوم النهائى على القلعة ومن فيها إلى أن سقطت القلعة تماماً فى أيدى المصريين .

● أما أطرف ما ورد فى هذه النقوش ، فهى صورة هزلية ساخرة تصور بعض الجنود الآسيويين وهم يخبرون رئيسهم وقائدهم بالهزيمة المنكرة التى لحقت بهم ، فيشد قائد الأعداء شعر رأسه يأساً وأسى .

● أما أهم صورة تلفت النظر فهى صورة بعض النساء وهن يحملن القتلى ويسعفن الجرحى . . وكذلك صورة الجيش المصرى وهو يقود أعداداً من أسرى الأعداء من الرجال والنساء والأطفال ليعود بهم إلى مصر بعد أن حقق هذا النصر المؤزر .

● ويربط بعض علماء الآثار بين تلك الصور المنقوشة على جدران مقبرة « إنتا » والصور المنقوشة على جدران المعبد الجنائزى الذى بناه الملك « ساحو رع » فى منطقة «أبو صير » حيث نرى الملك وهو يستعرض غنائم الحرب التى عاد بها الجيش بعد انتصاره على الآسيويين .

● وفى منطقة « وادى مغارة » بشبة جزيرة سيناء عُثِرَ على لوحة تذكارية تصور الملك « نوسر رع » ـ وهو من ملوك الأسرة الخامسة ـ وهو يضرب الآسيويين وكتب تحتها بالهيروجليفية « قاهر الآسيويين من كل الأقطار » الأمر الذى يستدل منه استمرار

الحملات العسكرية المصرية ضد القبائل القادمة من آسيا والتى تنوى التسلل إلى مصر. ويستدل منها أيضا على حرص الإدارة المصرية على حماية البعثات التعدينية المصرية التى كانت تعمل فى مناطق سيناء .

● ومن الشواهد الأثرية التى يرجع تاريخها إلى عصر الأسرة الخامسة أيضا نقوش تصور بعض السفن البحرية المصرية وهى قادمة من المناطق السورية ويظهر بها أسرى من الآسيويين . وفى هذا دليل آخر على أن مصر كانت تسيطر على تلك المناطق ، بشكل أو بآخر ، فى ذلك الزمن .

● ومن أهم تلك الشواهد الأثرية أيضا تلك النقوش والصور الرائعة المنقوشة على جدران الطريق الذى كان يربط بين المعبد الجنائزى ومعبد الوادى الخاصين بهرم «أوناس» بسقارة ، حيث نرى الملك أو ناس ـ وهو من ملوك الأسرة الخامسة ـ وهو يؤدب الأعداء . . ونرى جنود مصر وهم يقضون على أعدائهم من البدو . . كما نرى بعض قادة الجيش المصرى وهم واقفين أمام الملك وفوق كل منهم اسمه واللقب الذى يحمله .

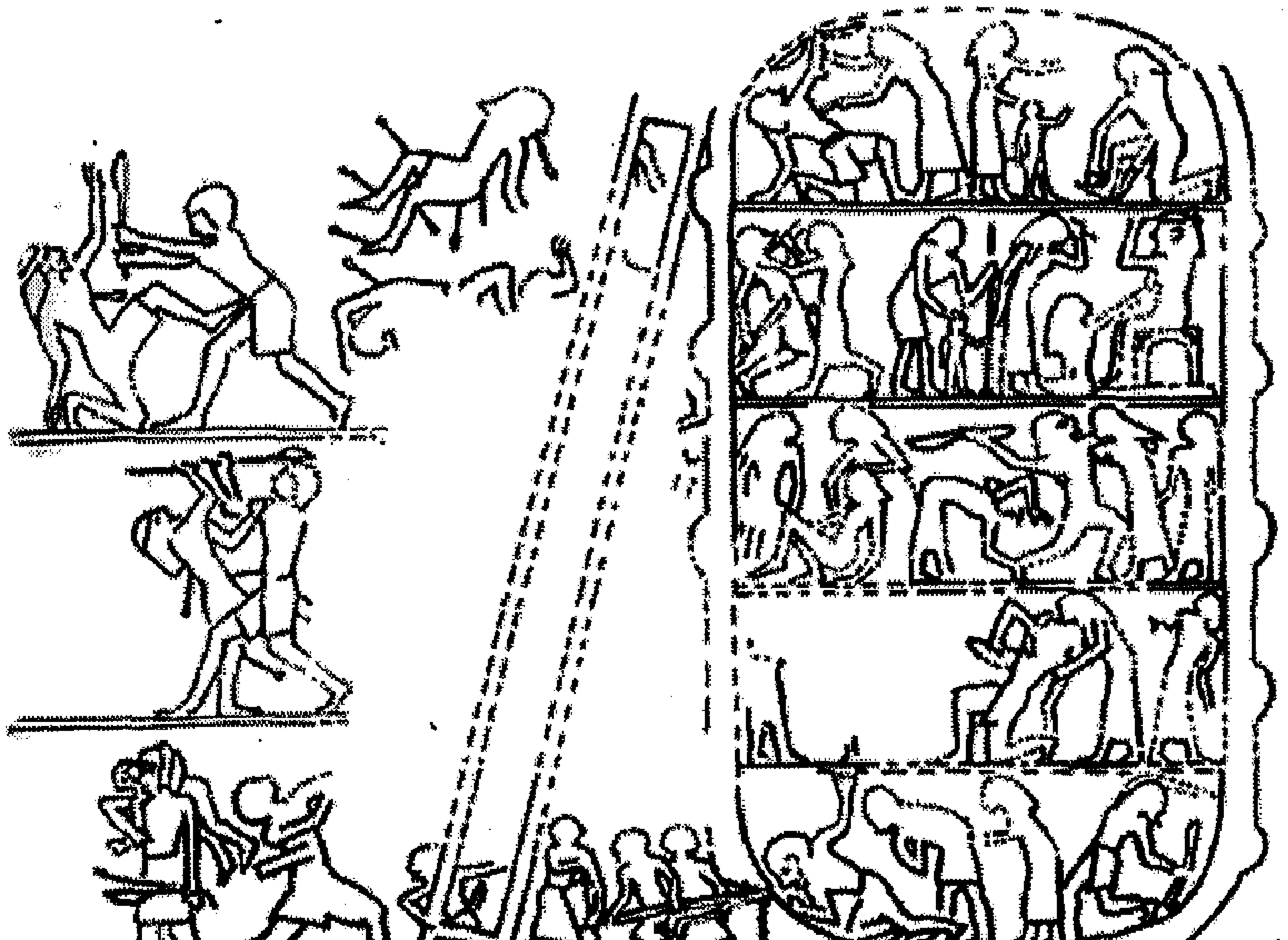

الجنود المصريون يهاجمون قلعة للعدو .

أول حملة عسكرية برية بحرية فى تاريخ العالم

بعد أن انقضى عصر الأسرة الخامسة بدأ عصر الأسرة السادسة التى بدأ حكمها عام ٢٤٢٠ ق م وانتهى عام ٢٢٥٨ ق م « ؟ » أى انه استمر أكثر من ١٦٠ سنة . ولا يعرف حتى الآن السبب اليقين فى انتقال الحكم بين هاتين الأسرتين ، وإن كان بعض المؤرخين يرجحون أن السبب فى ذلك يرجع إلى حدوث تغيرات فى الاتجاهات الدينية ، فمن المعروف أن ملوك الأسرة الخامسة كانوا يكرسون عبادة الإله رع « إله الشمس » وكان مركز عبادته فى مدينة هليوبوليس « عين شمس » . . بينما كان ملوك الأسرة السادسة يكرسون عبادة الإله « بتاح » باعتباره الإله الواحد الخالق لكل شيء فى هذا الكون ، وكان مركز عبادة هذا الإله فى مدينة « منف » .

● وبالنظر إلى أننا فى هذه الدراسات لا نقتصر على استعراض تاريخ الملوك وأعمالهم، وإنما نركز على دراسة أبناء الشعب المصرى القديم باعتبارهم الصناع الحقيقيين للحضارة المصرية القديمة التى اتفق معظم المؤرخين على اعتبارها « أم الحضارات » . ولذلك فسوف نخصص دراساتنا على « الأعمال العسكرية » التى قام بها أبناء مصر للدفاع عن أرضها طوال التاريخ المصرى القديم .

● فى البداية نلاحظ أن طبقة كبار رجال الدولة وكبار الموظفين وكبار الكهنة والنبلاء والأشراف ، وكلهم ممن لا ينتمون إلى عضوية الأسر المالكة ، قد ازداد نفوذهم بالتدريج ، منذ بداية عصر الأسرة السادسة ، وأصبحوا من ذوى السطوة والسلطة ، ويتفاخرون بالأعمال المجيدة التى قاموا بها لخدمة الدولة وخدمة الملك باعتباره رأس الدولة . . ومن بين هؤلاء ظهر رجل عظيم من أبناء الشعب المصرى اسمه «وينى »

عرفنا قيمته ومركزه وأعماله مما سجله على جدران مقبرته من ألقاب خلعها عليه ثلاثة من ملوك الأسرة السادسة ، فهو الكاهن الأكبر ، وسمير الملك ، ورئيس المجلس الأعظم، وكبير القضاة . كما سجل لنا « وينى » حكايات الأعمال الإدارية والدينية والقضائية والحربية التى قام بها بتفويض من هؤلاء الملوك . ومن أبرز هذه الأعمال ما قام به فى عهد الملك « بيبى الأول » [من ملوك الأسرة السادسة] حيث قام بقيادة الحملة العسكرية التى أمر بها الملك لمحاربة وتأديب البدو الآسيويين ، إذ يبدو أن هؤلاء البدو - خصوصا القادمين من شمال شرق العراق - كانوا يواصلون هجراتهم وتجمعاتهم فى فلسطين توطئة للنزوح إلى مصر .

● قال « وينى » : « أمر جلالته بالقيام بحملة تأديبية ضد البدو الآسيويين رؤساء الرمال . وقد جهز جلالته جيشاً مؤلفا من عشرات الآلاف من الرجال . . ووضع جلالته هذا الجيش تحت إمرتى وقيادتى . . وكنت أسهر على نظام الجنود وقادة الفيالق . . وبسبب مكانتى ، لم يأخذ أحد مكان غيره . . ولم يسرق واحد منهم عجينة أو نعلاً أو أية ملابس من أية بلدة ، ولم يغتصب أحد أية عنزة من أى شخص . . وقد قمت باستعراض كل فيالق الجيش أمامى . . ولم يحدث أن أى خادم للملك قد استعرض الجنود قبلى . . لقد عاد هذا الجيش سالماً ومعه جنود العدو أسرى . . ولقد أثنى علىّ جلالته أكثر من أى شخص آخر . . ثم أرسلنى جلالته « خمس مرات » لقيادة هذا الجيش لتأديب البدو فى كل مرة يثورون فيها » .

● ويواصل « وينى » حكايته التى سجلها على جدران مقبرته فيقول : « لقد حدثت ثورة فى جهة « الكرمل » [بلاد أنف الغزال] فأبحرت فى سفن البحر ومعى فصائل الجنود . . ونزلت خلف مرتفعات الجبال الواقعة شمال بلاد سكان الرمال . . وعندما سار هذا الجيش على تلك المرتفعات قبضنا على الثوار بأكملهم وقضينا على كل العصاة » .

● ويستنتج المؤرخون من تلك الحملة عدة نتائج تلقى الضوء على التاريخ العسكرى لمصر القديمة ، منها أن هذه الحملة تعد الأولى من نوعها فى تاريخ مصر ، بل فى تاريخ العالم القديم . . فهى تسجيل مكتوب لأول حملة عسكرية قامت بحرب

يشترك فيها الجيش البرى محمياً بالأسطول . . وهى أول ذكر مسجل لوجود سفن «ناقلات الجنود والعتاد الحربى » . . وهى دليل على نجاح المصريين القدماء فى القيام بحملات حربية بحرية . . وهى دليل أيضا على فطنة المصريين القدماء وقدرتهم على اتخاذ القرار التكتيكى بنقل الجنود بحراً إلى الهدف المقصود ، بدلاً من اجتياز الطرق الصحراوية الطويلة والخطرة التى ربما تعوق حركة الجيش فى رحلتى الذهاب والعودة ، أو ربما تجعل الجيش مضطراً إلى الدخول فى معارك جانبية أثناء الطريق قبل ـ أو بعد ـ الوصول إلى الهدف الأصلى الذى خرج لتأديبه أو القضاء عليه .

جنود مصر القديمة برعوا فى محاربة العدو براً وبحراً .

تحويل مجرى النيل .. وحملات استكشافية داخل أفريقيا

مازلنا نستعرض الأعمال الجليلة التى قام بها أبناء الشعب المصرى القديم ، وهم الصناع الحقيقيون للحضارة العظيمة التى سبقت وتفوقت على كل حضارات العالم القديم . وعرفنا طرفاً من بعض الأعمال العسكرية التى قام بها « وينى » إبن الشعب الذى عاش فى عصر الأسرة السادسة التى حكمت مصر فى الفترة ما بين عامى ٢٤٢٠ ـ ٢٢٥٨ قبل الميلاد ، وهو الذى قاد أول حملة عسكرية برية بحرية فى تاريخ العالم .

● وبالإضافة إلى ما قام به « وينى » من أعمال جليلة فى المجالات الدينية والإدارية والقضائية ، قام أيضا بتنفيذ أول فكرة طرأت فى أذهان المصريين القدماء لتحويل مجرى النيل فى منطقة الشلال الأول بأسوان . . فقد كان هذا الشلال أو « الجندل » عبارة عن مجموعة من الصخور تعترض مجرى النيل فى تلك المنطقة وتجعله غير صالح للملاحة .

● ولما كانت سياسة الدولة فى ذلك الزمن هى الرغبة فى التوسع جنوباً والاتصال المباشر بين مصر وأفريقيا السوداء فى وسط القارة ، فقد كان من اللازم إيجاد وسيلة عملية لاستمرار إبحار السفن المصرية فى مجرى النيل جنوب الشلال الأول . لذلك فقد تفتق ذهن « وينى » إلى فكرة حفر مجموعة من القنوات تلف حول صخور هذا الشلال لتتحاشى الاصطدام بها . وقد كتب « وينى » على جدران مقبرته نصاً يقول فيه : « لقد أرسلنى جلالته لحفر خمس قنوات فى الجنوب . . وأنجزت هذا العمل فى سنة واحدة» . . ونفهم من هذا النص أن حفر تلك القنوات لتحويل مجرى النيل كان مقصوداً به تسهيل سير السفن النهرية المصرية التى كانت تعترضها صخور الشلال . . ونفهم منه أيضاً أن سياسة الدولة فى ذلك العصر كانت تضع فى الاعتبار القيام بكشف

كل الجهات التى تقع جنوب مصر كشفاً منظماً وبقصد حضارى هو تحسين سبل التجارة بين مصر وبلاد النوبة العليا ، بالإضافة إلى تحقيق هدف استراتيجى هو تأمين حدود مصر الجنوبية .

● وقد قام « وينى » بهذا العمل العظيم فى عهد الملك « مرن رع » ـ وهو ملك صغير من ملوك الأسرة السادسة ـ وقد سجل الملك هذا العمل فى نقشين أثريين على صخور منطقة الشلال الأول يصوران الزيارة التى قام بها الملك فى تلك المنطقة الجنوبية ، ونراه فيهما متكئا على عصا وتظهر خلفه جبال المنطقة ، ويقف أمامه مجموعة من أمراء النوبة هم يقدمون له مراسم الولاء والخضوع والطاعة ويمتدحونه ويشكرونه على زيارته وحضوره بنفسه .

● وقد أدت فكرة فتح تلك القنوات دورها فى تسهيل عمليات التبادل التجارى بين مصر وبلاد النوبة السفلى والعليا ، كما شجعت المصريين على القيام برحلات استكشافية توغلوا فيها داخل مجاهل تلك البلاد الأفريقية التى يصل إليها المصريون لأول مرة لكى يتصلوا بأهالى وسكان تلك المناطق لتدعيم أواصر الصداقة معهم ولتحقيق مصلحة الطرفين بالتعامل التجارى المسالم ، حيث كانت مصر تستورد من تلك المنطقة ما تحتاجه من أنواع البخور وأخشاب الأبنوس وجلود الفهود والنمور والعاج [سن الفيل] . فضلاً عن الهدف الهام فى تأمين حدود مصر الجنوبية .

● وبعد موت « وينى » ظهر إبن آخر من أبناء الشعب المصرى القديم اسمه «حر خوف » وكان يتولى منصب حاكم جزيرة « إلفنتين » بأسوان . ومن مجموعة ألقابه الرسمية التى سجلها على جدران مقبرته نعرف بقية الوظائف والمناصب التى تولاها . . فهو نائب الملك ، ورئيس كهنة المنطقة ، وحامل الختم الملكى ، ورئيس كل الأسرار الخاصة بكل أوامر الحدود الجنوبية ، وهو أخيراً « مدير القوافل » .

● وهذه الوظيفة الأخيرة تفسر لنا النصوص التى كتبها « حر خوف » على جدران مقبرته ، والتى يحكى فيها أخباراً عما قام به من حملات استكشافية فى داخل المناطق الأفريقية جنوب مصر . وقد قام بقيادة هذه الحملات فى عهدى الملكين « مرن رع »

و «بيبى الثانى » وهما من ملوك الأسرة السادسة . وهى حملات كانت مدعمة بالجنود ، وتستهدف عدة أهداف منها كشف الطريق إلى تلك البلاد الأجنبية . . ونشر الحضارة المصرية فى تلك المناطق حيث يذكر فى أحد النصوص انه جعل رئيس إحدى المناطق الأفريقية يعبد نفس الإله الذى يعبده ملك مصر . . وكذلك استيراد منتجات تلك المناطق حيث يذكر فى نص آخر أنه عاد ومعه ٣٠٠ حمار محملة بالبخور والأبنوس والزيت وجلود الفهود والعاج .

● ويقول المؤرخون وعلماء الآثار المصرية إن « حر خوف » هو أول المستكشفين العظام الذين ورد ذكرهم فى تاريخ العالم . . وأول من توغل فى مجاهل أفريقيا . . وأول من مهد سبيل التجارة بين مصر وتلك الأقطار النائية التى لم يجسر أحد قبله أن يجوب مجاهلها .

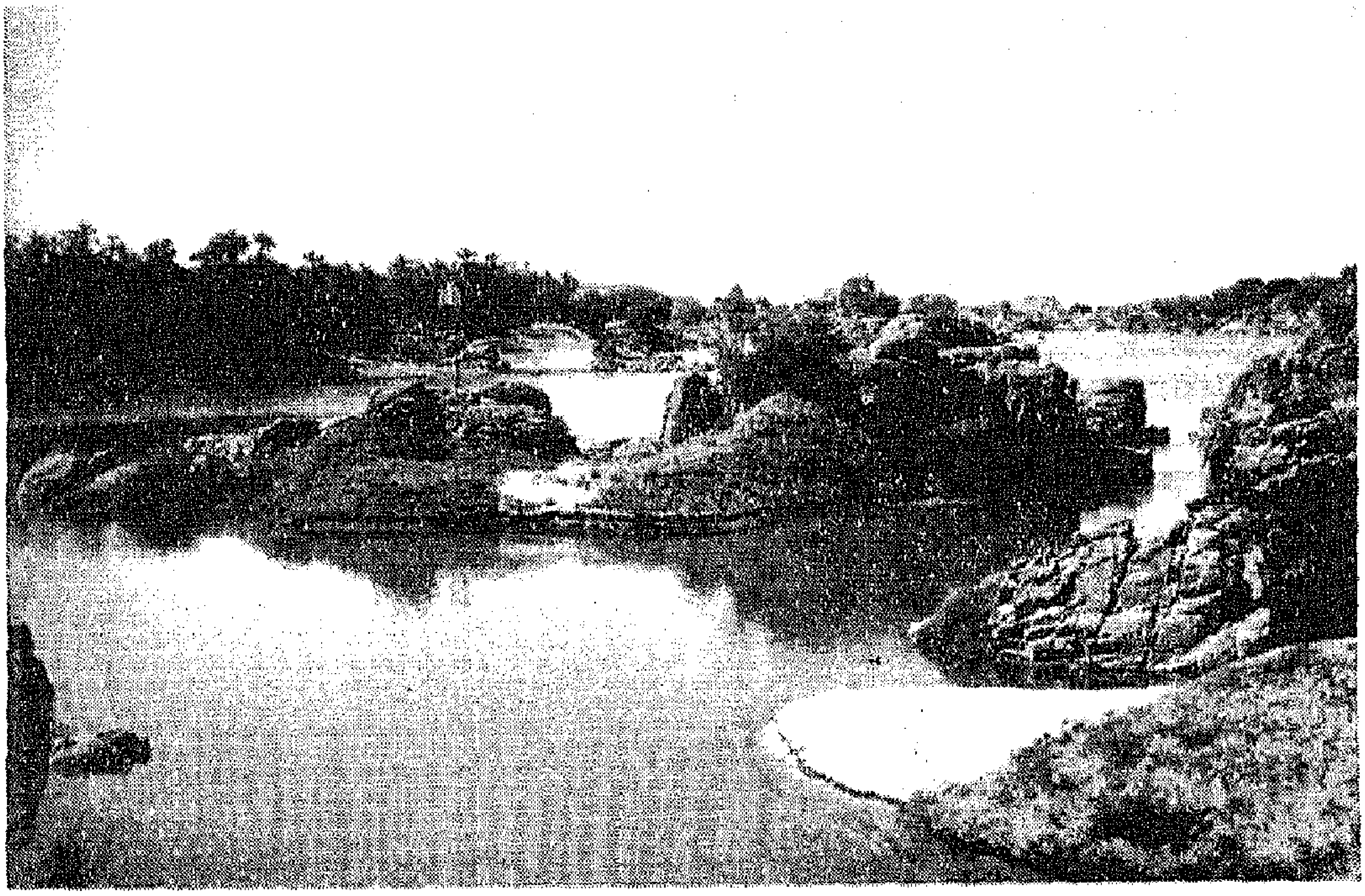

الجندل الأول بأسوان وصخوره التى تعترض المجرى الملاحى لنهر النيل .

علاقات مصر القديمة بمناطق وسط أفريقيا

عرف المصريون القدماء طريقهم إلى بلاد « بونت » منذ عصور ما قبل التاريخ . وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على أنهم كانوا يصلون إليها عن طريق السفن المبحرة فى البحر الأحمر ، بدءاً بالسفن ذات المجاديف [٤٠ مجدافا] ثم بالسفن الشراعية . ويقول بعض المؤرخين المحدثين إن بلاد بونت تقع فى المناطق التى تشغلها الآن كل من دولتى إريتريا والصومال . ويقول مؤرخون آخرون إنها كانت تقع فى اليمن ومنطقة جنوب غرب شبه الجزيرة العربية . وأرجح الآراء انها كانت تشغل هذه المناطق كلها الأفريقية منها والآسيوية .

● وبطبيعة الحال فقد كانت بلاد بونت مصدراً للعديد من الواردات المصرية الهامة كالذهب والفضة والبخور والصموغ والجلود وريش النعام والعاج والأبنوس وكافة منتجات مناطق أواسط أفريقيا . بمعنى أن تلك البلاد كانت حلقة وصل بين وسط أفريقيا ومصر ، وكانت مركزا لعمليات التجارة العابرة «الترانزيت » يتم فيها التبادل بطريقة المقايضة .

● وقد ذكرنا من قبل أن « حر خوف » إبن الشعب وحاكم جزيرة إلفنتين بأسوان ـ والذى أطلق عليه رسمياً لقب « مدير القوافل » بجانب ألقابه العديدة الأخرى ـ قد قام بعدة رحلات استكشافية إلى مناطق النوبة السفلى والعليا بقصد تدعيم العلاقات المصرية الأفريقية ، ولمحاولة الوصول إلى مناطق أواسط أفريقا ولكن عن طريق النيل وليس عن طريق البحر الأحمر . ورأينا كيف سجل « حر خوف » على جدران مقبرته بأسوان نجاح حملاته ورحلاته الاستكشافية فى نشر الحضارة المصرية فى تلك المناطق ،

وفى القضاء على مثيرى الشغب والمتربصين بمصر كنوع من تحصين وتأمين حدود مصر الجنوبية ، ولذلك فقد كانت جميع الحملات التى قام بها مدعمة بالجنود اللازمين لتأمين الرحلة وحماية البضائع المصدرة والمستوردة فى رحلتى الذهاب والعودة .

● ومن الغريب أن الجيش المصرى فى ذلك الزمن [عصر الأسرة السادسة] كان مكونا من جنود نوبيين جنباً إلى جنب مع الجنود المصريين . ويستدل من ذلك على قيام نوع من « الوحدة » بين مصر والمناطق الشمالية من السوادن ، يتمتع فيها المجندون من أبناء السودان بنفس المزايا التى يتمع بها الجنود المصريون ، وأن هذا الجيش تكفل بحماية أمن مصر وحضارتها ، سواء باشتراكه فى الحملات العسكرية التى أرسلتها مصر إلى المناطق الأفريقية أو فى الحملات التأديبية التى قامت بها مصر لتأديب البدو الآسيويين الذين كانوا يتربصون بمصر ويقومون بعمليات سلب ونهب الخيرات المصرية .

● وقد قام «حر خوف » بحملات ثلاث أثناء حكم الملك «مرن رع » [من ملوك الأسرة السادسة] ثم قام بحملته الرابعة والأخيرة فى عهد الملك « بيبى الثانى » الذى تولى عرش مصر بعد موت أخيه مرن رع . ومن المعروف تاريخياً أن « بيبى الثانى » هذا قد جلس على عرش مصر وهو طفل لا يتجاوز عمره ست سنوات ، ومات وعمره مائة عام ، أى انه استمر فى حكم مصر لمدة ٩٤ عاماً ، وهى أطول مدة سجلها التاريخ لحاكم يستمر حكمه طوال مثل هذه المدة .

● وفى هذه الحملة الرابعة توغل « حر خوف » فى داخل بلاد النوبة حتى وصل إلى المناطق التى يعيش فيها الأقزام فى أواسط أفريقيا . ويقول « برستيد » فى كتابه « تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى » إن حر خوف فيما يبدو اقتنص أحد هؤلاء الأقزام أو أغراه بالانضمام إليه والعودة به إلى مصر ليصبح عضوا بالبلاط الملكى . وفور قيامه بذلك أرسل رسولاً إلى القصر الملكى بمصر لإبلاغ الملك بيبى الثانى بقصة القزم الذى ينوى إحضاره إلى مصر ، فسر الملك الصغير بهذا الخبر سروراً عظيما .

● وتدل العديد من الشواهد الأثرية على أن الأقزام كانت لهم مكانة خاصة لدى

المصريين القدماء ، وعلى مدى اهتمام بعض ملوك مصر بمثل هؤلاء الأقزام الذين كانوا يشبهون الإله « بس » إله البهجة والمرح والموسيقى والرقص . وكان بعض هؤلاء الأقزام يعينون فى وظائف دينية أو فى وظائف مدنية شديدة القرب من الملك ، مثل وظيفة مدير خزائن الملابس الملكية . ولذلك فلم يكن غريباً أن يسارع الملك ببيى الثانى بارسال خطاب إلى حر خوف رداً على الخبر السار بقرب عودته إلى مصر وبصحبته القزم الذى أحضره من «أرض الأرواح » .

● وقد حرص حر خوف على نقش وتدوين نص هذا الخطاب الملكى على جدران مقبرته بأسوان . . وهو خطاب طويل يثنى فيه الملك على مجهودات حر خوف فى إحضار المحصولات العظيمة والطيبة من تلك المناطق الجنوبية وإحضار « القزم » الذى ينتظر الملك وصوله بفارغ الصبر . ويشير الملك فى خطابه ببعض التعليمات الخاصة برعاية القزم والمحافظة عليه حتى يصل سالماً إلى القصر الملكى . . فأوصى بأن تكون هناك حراسة على جانبى السفينة التى تحمل القزم حتى لا يسقط فى النيل ، وأن يقوم حر خوف بالتفتيش والاطمئنان على القزم عشر مرات كل ليلة ، وأن يهيىء له حجرة مريحة بالسفينة تحت حراسة رجال يقظين .

القزم « سنب » وأسرته ـ من تماثيل الدولة القديمة

أول مصيبة كبرى .. فى مصر القديمة

كان قدر مصر الأزلى أن تصبح قوية فى عهود الحكام الأقوياء ، وينتابها الضعف حين يضعف الحكام أوحين لا يقدرون قيمة البلد الذى يحكمونه . . ففى الفترة التاريخية المجيدة التى يطلق عليها المؤرخون اسم « الدولة القديمة » ، حققت مصر أعظم أمجادها وانجازاتها الحضارية فى ظل حكام أقوياء وحكومة قادرة مستقرة ، وإدارة حازمة حاسمة ، ونظام قضائى متكامل وضع قضاته مبادىء العدالة والقانون الفطرى الطبيعى ، ونهضة معمارية تشهد عليها الأهرام التى اعتبرت من عجائب الدنيا ، ونهضة علمية وثقافية وضعت خلالها قواعد اللغة وأسس ومبادىء علوم الهندسة والطب والفلك . . وطوال تلك الفترة المجيدة من تاريخ مصر ، لم يجسر أى عدو من أعدائها أن يفكر فى غزو أو احتلال البلاد وفرض سيطرته عليها ، فقد كان الجيش المصرى واقفاً لهم بالمرصاد ، يصد هجماتهم فى حالة الدفاع ، ويؤدبهم ليتقى شرهم فى حالة الهجوم .

● وتدل الشواهد التاريخية على أن عصر « الدولة القديمة » قد انتهى نهاية مفجعة فى أواخر عصر الأسرة السادسة ، حيث تولى العرش ملك طفل صغير اسمه « بيبى الثانى » كان عمره لا يتجاوز ست سنوات ، ومات وعمره مائة عام ، أى انه ظل متربعاً على العرش أربعا وتسعين سنة . . وفى خلال مراحله العمرية ، قويت شوكة حكام الأقاليم والمقاطعات المصرية [٢٠ مقاطعة فى الوجه البحرى و ٢٢ مقاطعة فى الوجه القبلى] وأصبح كل حاكم منهم يعتبر إقليمه أو مقاطعته مملكة صغيرة مستقلة يديرها كيفما شاء . وأخذ حكام الأقاليم يتناحرون فيما بينهم بكل أسباب الشقاق

والأطماع الشخصية وحب السيطرة على الآخرين ، واندلعت بينهم حروب أهلية أدت إلى حدوث ثغرة أمام جحافل بدو الصحارى ، تسللوا منها إلى البلاد ، وأشاعوا فيها كل ألوان الفساد . . كل هذا والملك العجوز قابع فى قصره ، حيث يقوم المنافقون من كبار الموظفين وكبار رجال الدولة بتغذية أذنيه بالأكاذيب ، وبأن كل شىء تمام .

● وعندما انهارت أحوال البلاد وازدادت سوءاً ، عمت الفوضى وشاع الخراب فى طول البلاد وعرضها . . وزال سلطان الملك ونهبت أملاكه ، فاهتزت هيبته ولم يعد محل اعتبار لدى الجميع ، عدا من يحيطون به ابتغاءً للبقاء فى مناصبهم وتحقيقا لمصالحهم وأطماعهم الشخصية . . أما الشعب المصرى القديم بكل فئاته وطبقاته ـ خصوصاً فيما بين الفئات والطبقات الدنيا من الفلاحين والعمال والرعاة ـ فقد فقدوا ثقتهم فى قدرة الدولة والحكومة على توفير الأمن والحماية والاستقرار وتوفير المناخ المناسب لاستمرار عمليات الانتاج بكل فروعها وأشكالها ، الأمر الذى أدى فى النهاية الى تحول الوجه القبلى من مصدر للخيرات حتى أصبح مثل الصحراء الجدباء والأرض البوار . . فلم يعد الفلاحون يزرعون ويحصدون . . ولم يعد العمال يصنعون أو ينتجون . . ولم يعد الفنانون يبدعون أعمالهم الفنية الرفيعة من نحت ونقش وتصوير . أما الوجه البحرى فلم تكن الأحوال فيه تقل سوءاً عن أحوال الوجه القبلى ، بل ابتلى بهجمات بدو الصحارى والأجانب وبالحروب الداخلية بين حكام المقاطعات والأقاليم ، حيث كان كل حاكم يريد فرض سيطرته على المقاطعات والأقاليم المجاورة حتى ولو استعان فى ذلك بالأجانب من أعداء البلاد .

● هكذا شاعت عمليات الخيانة والغدر ، وانهارت الحكومة المركزية بكافة مؤسساتها السياسية الاقتصادية والدينية والقضائية والادارية . . ولم يعد للدولة أى وجود أو احترام ، بعد أن انعدم الاحساس بوجود « الضمير العام » الذى كان يربط الناس بفكرة « الوطن » الذى يلم شمل شعب متوحد مترابط يعرف كل فرد فيه حقوقه وواجباته .

● وقد استمرت تلك المصيبة الكبرى التى حاقت بمصر القديمة من عام ٢٢٥٨ ق م حتى عام ٢٠٤٠ ق م ، أى استغرقت فترة زمنية غامضة من تاريخ مصر القديم

بلغت نحو ٢١٨ سنة . وبطبيعة الحال لم تصل إلينا سوى شواهد أثرية قليلة جدا ونادرة من هذه الفترة ، لعل أهمها تلك « الوثائق الأدبية الشعبية » التى أبدعها بعض الأدباء والحكماء وأهل الفكر من أبناء الشعب المصرى ، وصوروا فيها أحداث تلك الكارثة بأسلوب بليغ يقطر حزناً وألماً ، وبعبارات عميقة مؤثرة يشعر قارئها بأنها صدرت من أعماق كاتبها ، معبرة عن وجيب قلب يكاد أن ينفطر من شدة الحزن والأسى .

● ومن أهم تلك الوثائق الأدبية تلك الوثيقة الرائعة المنسوبة لأحد الحكماء من أبناء الشعب المصرى القديم ، هو الحكيم « إيب ور » والمعروفة فى التاريخ باسم « تنبؤات الحكيم إيب ور » . وهى وثيقة طويلة مستفيضة فى وصف تلك الأحوال المؤسفة .

أحداث المصيبة الكبرى .. فى وثيقة أدبية

من الواضح أن المصيبة الكبرى التى وقعت بمصر القديمة فى أعقاب نهاية الأسرة السادسة عام ٢٢٥٨ ق م قد استفزت حكماء مصر وأدباءها الذين كانوا معاصرين لها . . فسجلوا أبعاد وأحداث تلك المصيبة فيما تركوه لنا من وثائق أدبية . وأغلب الظن انه كانت هناك أعمال كثيرة صورت ذلك الواقع الأليم الذى طغى على تلك الفترة التتى يسميها المؤرخون « عصر الاضمحلال الأول » والتى استمرت كما ذكرنا من قبل نحو ٢١٨ سنة . . إلا أن أهم ما وصل إلينا من تلك الأعمال الأدبية وثيقة الحكيم «إيب ور » والتى عرفت فى تاريخ الأدب المصرى القديم باسم « تنبؤات الحكيم إيب ور» .

● وبالنظر إلى أن نص هذه الوثيقة قد أفاض وأطنب فى وصف كل ما حاق بالبلاد من جرائم السرقة والقتل والتخريب والقحط ، وتشريد الموظفين الرسميين ، وتفكك إدارات الدولة ، وقيام الأجانب من بدو الصحارى بغزو البلاد ونهبها ، وشيوع الانحلال الخلقى وعدم المبالاة بالتقاليد الدينية وزوال صفة التدين من ضمائر الناس ، وانهيار كل النظم القانونية والعرفية التى كانت تحكم الحقوق المدنية لجميع فئات الشعب وطبقاته ، لذلك فقد يكون من الصعب أن نقدم نص هذه الوثيقة الأدبية كاملاً ، ويفرض علينا المجال المتاح أن نقدم تحليلاً موجزاً لكل ما ورد فى تلك الوثيقة من أوصاف وأحداث مستندين إلى بعض نصوصها التى سنذكرها مكتوبة بين قوسين .

● تصف الوثيقة الآثار المدمرة التى أصابت أنشطة الدولة نتيجة لغزو بدو الصحارى للبلاد بطريقة همجية لا يحكمها نظام أو قانون ، فتقول : « لقد حل أهالى

الرمال مكان أهل البلاد فى كل مكان . . وتهرب الجميع من دفع الضرائب فخربت خزينة الدولة . . وأتلفت كافة المحاصيل الزراعية وأصبحت الأرض جدباء ، فلم تعد هناك فاكهة ولا حبوب ، وانتشر الجوع ، وأصبحت القاذورات تختطف من أفواه الخنازير بسبب الجوع والبحث عن الطعام » .

● وتقول الوثيقة : « لم يعد هناك صانع يعمل ، ولا زارع يزرع ، فالعدو حرم البلاد من حرفها ، وأصبح مهندسو السفن الملكية عمالاً عاديين . . ولم تعد السفن المصرية تذهب إلى البلاد الأجنبية لإحضار ما تحتاجه البلاد من مواد ، ولم تعد تذهب إلى ببلوس لإحضار أخشاب الأرز [من لبنان] . . وضربت الفوضى أطنابها فى طول البلاد وعرضها . . وأصبحت الماشية تهيم بلا راع ، وكل إنسان يأخذ منها ما يريد » .

● وبسبب هذه الفوضى والهمجية التى شاعت فى المجتمع ، أصبح كل شخص سواء من المصريين أو من الأجانب يغير على حقوق وممتلكات الآخرين ويستولى على ما يستطيع الحصول عليه . . « وانتشرت عصابات اللصوص وقطاع الطرق ، وأصبحوا يتربصون بكل مسافر ، يسلبونه ويسرقون ما معه ويستولون على ملابسه ويضربونه بالعصى أو يذبح ظلماً واغتيالاً . . وازدادت أعداد المجرمين ، ولم يعد هناك رجال محترمون . . وأصبح كل رجل يحمل درعه وسلاحه ليأمن شر المعتدين » .

● وتصف الوثيقة أيضا انتشار عمليات الاغتيال والقتل التى كان يقوم بها الأجانب أثناء عمليات السلب والنهب ، والتى كانت تدور بين المصريين وبعضهم بعضاً نتيجة للصراع الطبقى الذى قلب موازين المجتمع المصرى رأساً على عقب فتقول : « أصبح الدم يراق فى كل مكان ، وكثر عدد الموتى ، وتعذرت عمليات الدفن لكثرة الجثث التى كانت تلقى فى الماء كالبهائم النافقة . . وأصبحت التماسيح فى تخمة بما كانت تلتهمه من لحوم الناس والحيوانات . . وانتشر الوباء فى أرجاء البلاد . . وأصبح الرجل يقتل أخاه من أمه لأوهى الأسباب . . ويقتل الرجل أمام أخيه فلا يتقدم لينقذه من القتل بل يفر لكى ينجو بجلده » .

● أما كارثة انهيار المحاكم الرسمية والنظم القانونية فقد سجلته الوثيقة بكلمات حزينة موجعة فتقول : « لقد سلبت سجلات المحاكم وألقيت فى الطرقات ، ونهبت

الإدارات العامة وذبح الموظفون ، وصار الناس يدوسون بأقدامهم على القوانين . . فضاعت حقوق الملكية ، واستولى الفقراء على ممتلكات الأغنياء ، وخربوا الدور والقصور . . ومن كان ينام أعزب أصبح يجد الآن سيدات نبيلات . . ومن كان يجهل العزف أصبح يملك قيثارة . . ومن كانت ترى وجهها فى الماء أصبحت صاحبة مرآة . . وأصبحت الجوارى والفقيرات يتزيين بالحلى والمجوهرات ، بينما تدور السيدات النبيلات فى الطرقات بحثاً عن الطعام » .

● وبلغت المأساة أقصى ذراها حين انعدم الضمير الجمعى والحس الدينى وانتشر الكفر بالآلهة . وتقول الوثيقة فى ذلك : « أصبح الرجل يقول إذا عرفت أين يوجد الإله قدمت له قربانا . . وأصبح بعض الناس يقدمون الأوز قربانا للآلهة على أنها ثيران . . واختفى الضحك والسرور وأخذ الحزن يتمشى فى البلاد ممزوجاً بالأسى . . وتحولت الأغانى المبهجة إلى أناشيد حزن ويأس . . وكره الناس الحياة » .

●وبسبب صدق وجزالة الأسلوب الأدبى لهذه الوثيقة أصبحت نموذجاً أدبيا تقرر تدريسه ـ فى عصور لاحقة من تاريخ مصر القديم ـ لتمرين تلاميذ المدارس على حسن الصياغة الأدبية .

أول جيش نظامى .. فى تاريخ العالم

يقول بعض المؤرخين العسكريين إن المصريين القدماء كانوا أول من كوّن الجيوش النظامية . . وأول من أقاموا الحصون على الحدود . . وأول من بنوا القلاع الحربية المحصنة . . وأول من قسموا الجيوش إلى فرق وفيالق وابتدعوا فكرة القلب والجناحين . . وأول من أنشأوا « مجلس أركان حرب » من كبار الضباط لوضع الخطط الحربية . . وأول من نظموا أعمال التجنيد والأعمال الإدارية العسكرية وأعمال إمداد وتموين الجيوش أثناء الحرب وأثناء السلام . . وكان دافعهم الأساسى فى ذلك كله هو الدفاع عن أنفسهم وعن خيرات بلادهم ضد جحافل الطامعين من بدو الصحارى الذين كانوا يحيطون بمصر من الجنوب والغرب والشرق والشمال الشرقى ، والذين كانوا يغيرون على الأراضى المصرية لممارسة عمليات السلب والنهب أو لمحاولة الاستيطان فى تخوم البلاد .

● وقد ذكرنا من قبل كيف كان المصريون القدماء الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ يدافعون عن بلادهم وقراهم . . وكيف تطور هذا الدفاع خلال العصور التاريخية بدءاً من العصر العتيق الذى يتضمن عصر الأسرتين الأولى والثانية [من عام ٣٢٠٠ ق م إلى عام ٢٧٨٠ ق م] ثم فى عصر الدولة القديمة الذى يتضمن الأسرات من الثالثة إلى السادسة [من عام ٢٧٨٠ ق م إلى عام ٢٢٥٨ ق م] .

● ويقول المؤرخون فى ذلك إنه بسبب ندرة المصادر والشواهد الأثرية ، لا يمكن القطع بوجود جيش مصرى موحد قبل عصر الأسرة الثالثة التى حكمت مصر من عام

٢٧٨٠ ق م إلى عام ٢٦٨٠ ق م . . أما قبل عصر هذه الأسرة فتدل الشواهد على أن الجنود والمحاربين كانوا تحت قيادة حكام الأقاليم الذين كانوا يضعونهم فى خدمة الملك أو فى خدمة الدولة كلما دعا الأمر . . إلى أن تولى الملك « زوسر » عرش مصر فى بداية عصر الأسرة الثالثة . . فمن المعروف تاريخيا ـ كما تدل النقوش على ذلك ـ أن هذا الملك كان حاكما قوياً وذا سطوة جعلته يجمع زمام الأمور وكل سلطات الدولة فى يده ، ويكفيه فخراً انه صاحب الهرم المدرج بسقارة الذى يعتبر أول بناء حجرى ضخم فى تاريخ العالم .

● وتدل النقوش كذلك على انه استطاع تكوين أول جيش نظامى موحد القيادة ويتبع أومر الملك باعتباره القائد الأعلى لهذا الجيش الذى استخدمه فى السيطرة على كل أمور الدولة ، وفى توفير الأمن الداخلى للبلاد ، وفى حماية بعثات التعدين ، وفى صد هجمات بدو الصحارى وأهالى النوبة الذين كانوا يغيرون على حدود مصر بين حين وآخر . . ونفهم من هذه النقوش أيضا أن الملك زوسر أنشأ إدارة خاصة لشئون هذا الجيش .

● وكانت هذه الإدارة المركزية تشرف على جميع الأعمال العسكرية فى طول البلاد وعرضها ، حيث قسمت حدود البلاد إلى مناطق محددة كان يطلق عليها اسم « أبواب المملكة » . وأقيمت فى كل بوابة من هذه البوابات « حامية عسكرية » تحت قيادة قائد يحمل لقب « سشم تا » وهو لقب مصرى قديم معناه « مرشد الأرض » . وكانت كل حامية مزودة بمخازن للحبوب والغلال تكفى لتوفير الطعام للجنود والمحاربين إذا تعرضت الحامية للحصار . . ومزودة بطبيعة الحال بمخازن للأسلحة المتنوعة والمعدات الحربية التى كانت تستخدم فى الحرب وعند نشوب المعارك مثل المقلاع والقوس والنشاب والحراب والسيوف والعصى الغليظة والحجارة والبلطات المعدنية . . وكميات كافية من أغطية الرأس المصنوعة من القش لحماية رؤوس الجنود أثناء الاشتباكات والدروع التى كانت تحميهم أثناء الاشتباك مع العدو وجهاً لوجه .

● قد أقيمت تلك الحصون فى الأماكن والمواقع الاستراتيجية التى كان يحتمل أن

تتعرض لغزو العدو أو تسلله ، مثل مداخل وديان الصحراء التى كان يتسلل منها البدو لممارسة أعمال السلب والنهب . . ومن الغريب أن جميع تلك الحصون كانت ذات طراز معمارى موحد الشكل والبناء . وقد ساد هذا الطراز فى جميع الحصون الحربية التى بنيت خلال عصر الدولة القديمة حيث كانت تتضمن - إلى جانب مخازن الطعام ومخازن السلاح - أماكن لإقامة الجنود وتوفير حاجياتهم المعيشية ، وأماكن لإقامة الموظفين الاداريين الكتبة الذين كانوا يتبعون « الإدارة الحربية المركزية » فى عاصمة البلاد . . وكانت هذه الإدارة مسئولة عن توفير كل احتياجات الحصون الفرعية من إمدادات وتموين ، ولذلك فقد أطلق عليها اسم « برعحا » أى « بيت السلاح » .

● وتدل الشواهد أيضا على أن الملك زوسر قد أمر ببناء سور ضخم لحماية الحدود الجنوبية فى منطقة أسوان يبلغ طوله نحو ١٢ كيلو مترا . . كما أمر ببناء قلعة حربية فى تلك المنطقة أطلق عليها اسم «بطولة الأرضين» . قد أثارت تلك القلعة تساؤلاً بين المؤرخين وعلماء المصريات ، عما إذا كانت مصر القديمة قد عرفت نظام « القلاع الحربية » . . وفى أى عصر من عصورها التاريخية عرفت هذا النظام . . ؟!

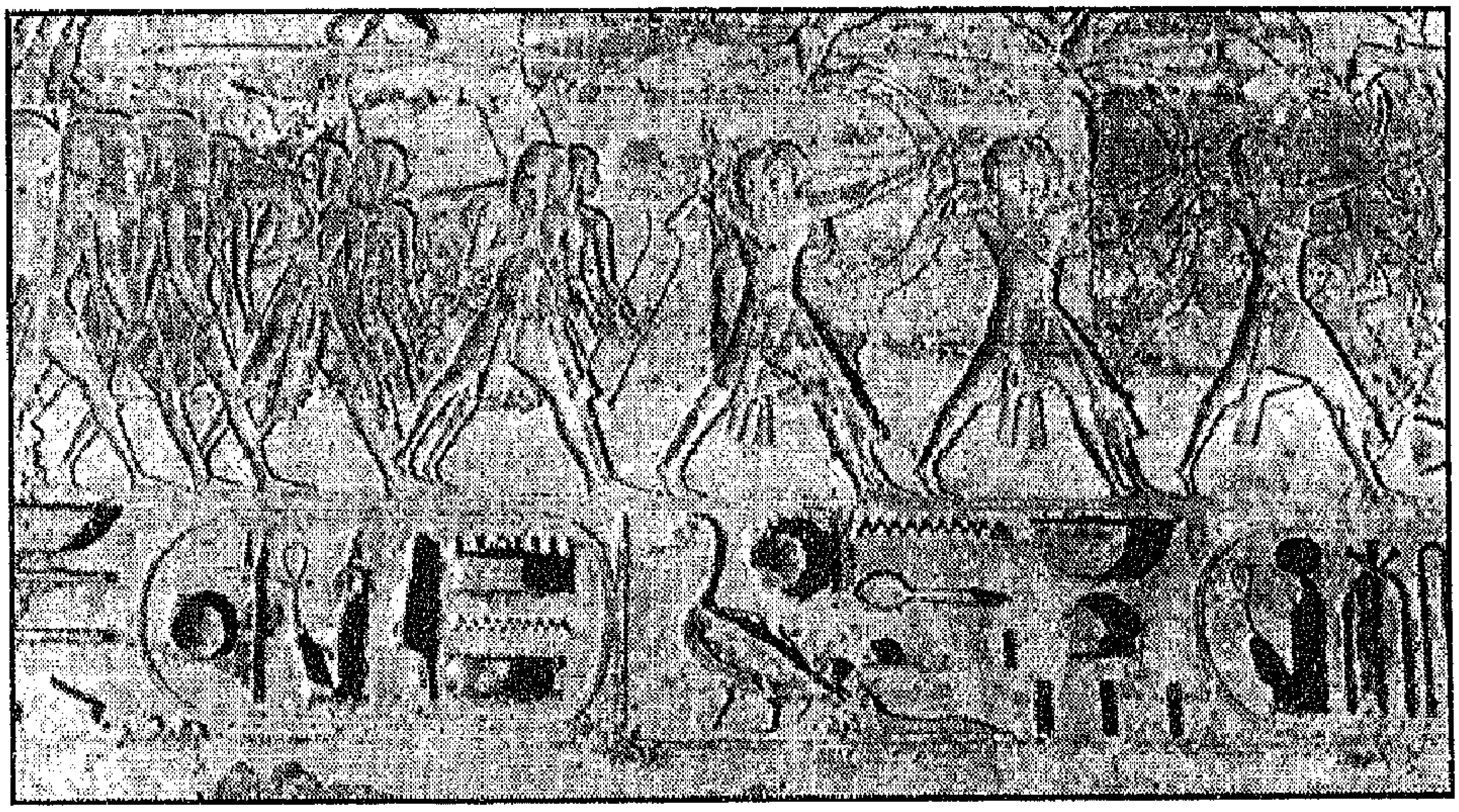

جنود مصر . . ظلوا يدافعون عنها طوال عصورها التاريخية .

أول الحصون الحربية .. فى تاريخ العالم

ذكرنا من قبل أن الملك زوسر [فى عصر الأسرة الثالثة فى القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد] قد أمر ببناء سور ضخم لحماية الحدود الجنوبية لمصر فى منطقة أسوان ، وأمر كذلك ببناء «قلعة حربية » فى نفس المنطقة أطلق عليها اسم « بطولة الأرضين » . وقد أثارت هذه القلعة تساؤلات بين المؤرخين وعلماء الآثار المصرية عما إذا كانت مصر القديمة قد عرفت نظام « القلاع الحربية » . . ومتى عرفت هذا النظام ؟ . . وهل توجد بين الآثار المصرية أطلال تؤكد وجود تلك القلاع ؟ . . وفى أى عصر بدأ تشييد هذه القلاع واستخدمت فى الدفاع عن البلاد ؟ .

● لحسن الحظ تم العثور على عديد من الشواهد الأثرية التى تجيب على هذه التساؤلات . . وأول هذه الشواهد « مجموعة من قطع صغيرة منحوتة من العاج كانت تستخدم فى لعبة الضامة وهى لعبة تشبه الشطرنج » . . وهذه القطع معروضة حالياً فى قسم الآثار المصرية بمتحف برلين ، وقد عثر عليها فى « أبيدوس » [العرابة المدفونة بمحافظة سوهاج] . . ويرجع تاريخ هذه القطع إلى عصر الأسرة الأولى التى حكمت مصر من عام ٣٢٠٠ ق م إلى عام ٢٩٨٠ ق م . وقد نحتت إحدى هذه القطع على شكل « برج حربى » فى أعلاه مجموعة من « الشرفات » مماثلة تماماً للشرفات التى تعلو القلاع الحربية والتى يتستر وراءها الجنود من رماة السهام على الأعداء المهاجمين .

● ومن المعروف أن منطقة أبيدوس هذه كانت مهداً من المهاد الأولى للحضارة المصرية ولعبت دوراً تاريخياً ودينياً منذ العصر العتيق ، وقد استمر هذا الدور طوال

عصور الحضارة المصرية القديمة ، بل وأصبحت مزاراً للحجاج المصريين القدماء يأتون إليها من كل فجاج الأرض المصرية فى الوجهين البحرى والقبلى للتبرك بالإله أوزيريس الذى تقول عنه الميثولوجيا المصرية القديمة انه مدفون بأرضها . . كما وجدت بها مجموعة من الآثار والمقابر الملكية التى يرجع تاريخها إلى عصر الأسرتين الأولى والثانية ، كما يوجد بها أيضا المعبد الفخم الرائع الذى بناه الملك «سيتى الأول » فى عصر الأسرة التاسعة عشرة والذى أكمله وأتمه ابنه « رمسيس الثانى » .

● وتدل الحفائر الأثرية التى أجريت فى منطقة «أبيدوس » على وجود أطلال لحصن حربى يقول عنه عالم الآثار « ماسبيرو » انه يعتبر من أقدم الحصون التى أقيمت للدفاع عن الأرض المصرية ضد هجمات بدو الصحارى . وقد أقيم هذا الحصن فى موقع اسمه الحالى « كوم السلطان » . وتدل هذه الأطلال على أن الحصن كان على شكل مستطيل متوازى الأضلاع .

● كذلك فقد عثر فى منطقة « الكاب » [شمال إدفو] على حصن حربى يعتبر من أحسن القلاع الحربية المصرية التى عثر على أطلالها حتى الآن . وقد أقيم هذا الحصن فى الفترة ما بين عصر الأسرة السادسة والأسرةالعاشرة . وتدل الشواهد على أن هذا الحصن قد حل محل حصن آخر أقدم منه عهداً . ونتيجة للدراسات والقياسات التى أجريت على أطلال هذا الحصن تبين أنه كان مبنياً على شكل مستطيل متوازى الأضلاع يبلغ طول كل ضلع من ضلعيه الطويلين حوالى ١٤٠ متراً من الشرق إلى الغرب ، كما يبلغ طول كل ضلع من ضلعيه القصيرين نحو ٨٤ متراً من الشمال إلى الجنوب .

● وفى التسجيل العلمى الدقيق الذى أُجرى لوصف التصميم الهندسى والمعمارى لهذا الحصن ووصف منشآته الداخلية وممراته وأبراجه والسور الذى كان يحيط بجميع هذه المنشآت ، نجد أن الجدران الخارجية للحصن كانت متينة وسميكة ، ويليها سور داخلى يشكل ممراً ضيقاً ، وتعلو هذا السور شرفات مستديرة كان الجنود المدافعون عن الحصن يصلون إليها بدرجات مثبتة فى الجدران .

● وكان الدخول إلى الحصن يتم من بابين . . وفى أحد جوانب الساحة الداخلية

توجد القاعة المخصصة لحفظ الأسلحة ، كما توجد أطلال برجين تحيط بكل منهما ممرات ملتوية . ويقول المؤرخون إن هذا الحصن الحربى المصرى القديم ـ وأمثاله من الحصون الحربية المنيعة التى أقامها المصريون القدماء ـ كان من المتانة والكفاءة والمناعة بحيث يستطيع الجنود العاملون به صد أى هجوم يقوم به أعداء مصر مهما كانت جيوشهم قوية . وكان من العسير ـ بل من المستحيل ـ أن تسقط مثل هذه الحصون فى أيدى مقتحميها من الأعداء ، اللهم إلا إذا قام هؤلاء الأعداء بمحاصرة هذه الحصون حصاراً شديداً وطويلاً لمنع إمدادات الطعام عن الجنود المدافعين عن الحصن حتى ينفد ما كان لديهم من الأطعمة المخزونة ، وعندئذ قد يستسلم هؤلاء الجنود أو يموتون جوعاً .

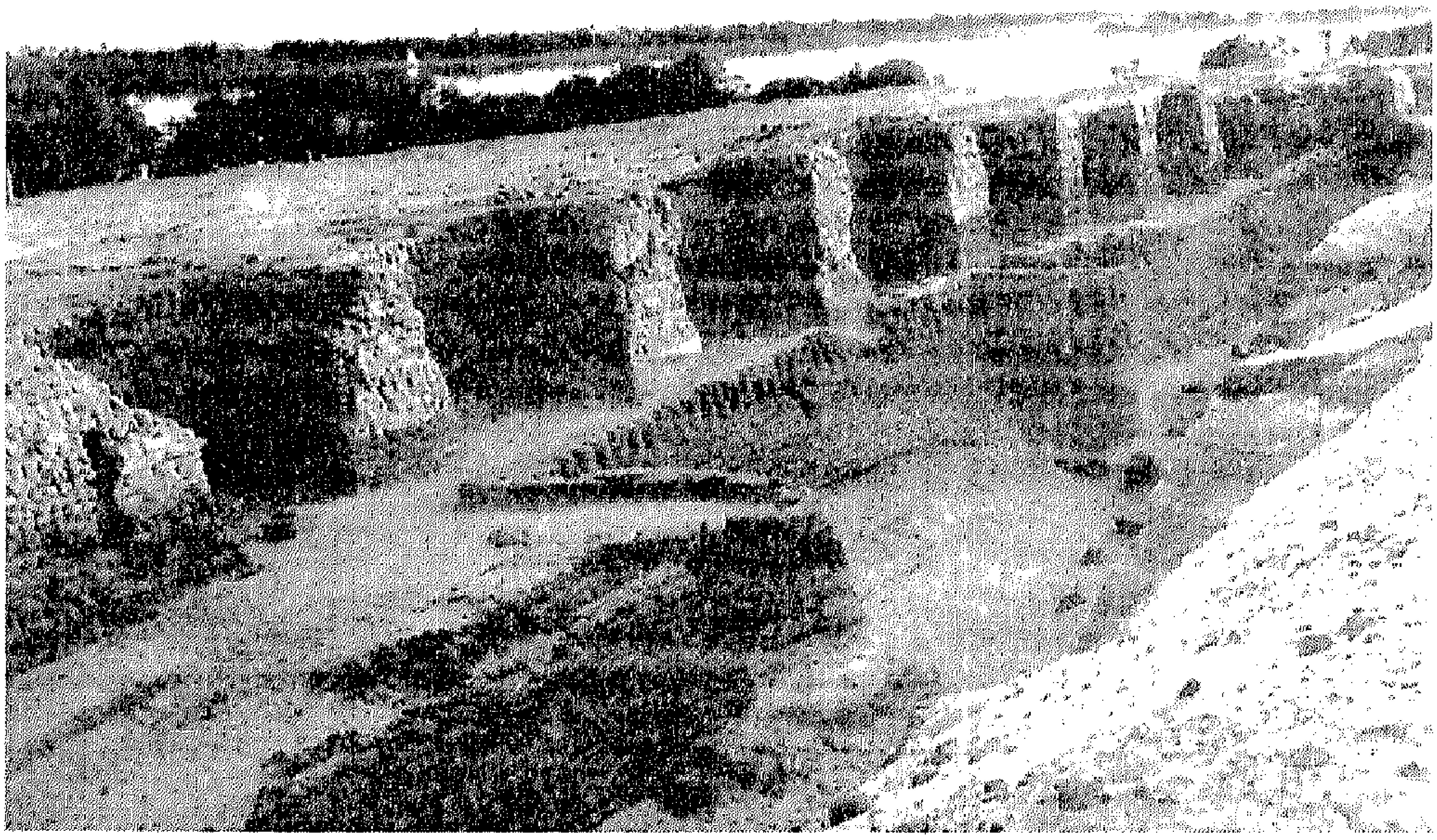

بقايا وآثار إحدى القلاع التى شيدتها مصر القديمة لحماية حدودها .

مصر القديمة : أول من وضع الألقاب والرتب العسكرية

بالرغم من ندرة الوثائق التاريخية والأثرية التى وصلت إلينا عن أحوال الجيش المصرى فى عصر الدولة القديمة [من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة] إلا أن المؤرخين وعلماء المصريات الأجانب - ومن أشهرهم كيس ، وإرمان ، وولف ، وبونيت، وماسبيرو ، وبرستيد - قد بذلوا جهوداً علمية وأجروا بحوثاً ودراسات متعمقة لما أمكن العثور عليه من «ألقاب ورتب عسكرية » منقوشة على جدران المقابر الخاصة ببعض كبار رجال الدولة الذين تولوا أمور الجيش أوتخصصوا فى قيادة الفرق والفيالق وسفن الأسطول الحربى .

● وقد استطاع هؤلاء العلماء تكوين صورة منطقية صادقة وواضحة عن هيكل الجيش المصرى ونظامه فى عصر الدولة القديمة مستندين إلى مدلول هذه الألقاب والرتب العسكرية ، بالإضافة إلى النقوش والكتابات والرسوم التى تصور لنا بعض المواقع الحربية البحرية والبرية ، وأنواعاً من التدريبات العسكرية التى كان يمارسها الجنود الذين تتكون منهم الفرق والفيالق العسكرية .

● كان الجيش مكوناً من عدة وحدات تسمى « عبر » وهى كلمة مصرية قديمة معناها « فرقة » . وكانت كل فرقة تتكون من مجموعة من الجنود الشبان المجندين يرأسهم رئيس يحمل لقب « خرب » وهو لقب إدارى مدنى كان يطلق فى الأصل على من يشغل وظيفة رئيس الموظفين . كما يطلق على هذا الرئيس أيضا لقب معناه « قائد فرقة الجنود » .

● ومن مجموع هذه الفرق كان يتكون « الفيلق » أو الجيش الفرعى ، ويقوده ضابط كبير أو أحد كبار رجال الدولة . وكان يطلق عليه لقب « إمرا مشع » ومعناه « مدير الجيش » أو « أمير الجيش » [وأرجو ملاحظة التشابه بين كلمة « إمرا » المصرية القديمة وكلمة «أمير » فى اللغة العربية] .

● ومن مجموع هذه الفيالق أو الجيوش الفرعية كان يتكون الجيش العام للدولة أو الجيش الملكى ، ويرأسه قائد يطلق عليه لقب « القائد الأعلى للجيوش » أو « القائد الأعلى للجيش الملكى » .

● وبدراسة الألقاب المنقوشة على جدران بعض مقابر الأشخاص الذين تولوا قيادة الفيالق والجيوش المصرية فى عصر الدولة القديمة تبين أن غالبيتهم العظمى كانوا من بين أمراء البيت المالك ، ويحملون إلى جانب الألقاب العسكرية ألقاباً ملكية تدل على مدى قرابتهم أو قربهم من ملك مصر ، كما تبين أنهم جميعاً كانوا يحملون لقب « حامل الخاتم الملكى » أو لقب « المقرب إلى قلب الملك » .

● وكان الجنود الذين تتكون منهم فرق وفيالق الجيش « البرى » جنوداً مجندين يتم تجنيدهم بواسطة حكام الأقاليم الذين يشرفون على الإدارات الفرعية للإدارة المركزية التى تتولى شئون الجيش الملكى من مقرها بعاصمة البلاد .

● أما الجنود الذين كانوا يعملون فى سفن الأسطول الحربى فقد كانوا غير مجندين ، بل كانوا جنوداً بحارة محترفين العمل على هذه السفن . . وكانت كل سفينة حربية من سفن الأسطول تحت قيادة ضابط متخصص . ويقود هؤلاء الضباط ضابط كبير أعلى رتبة ويحمل لقب « الضابط المدير العظيم رئيس الأسطول » .

● وهناك نقش على حجر باليرمو المشهور يدل على أن السفن التى كان يتكون منها الأسطول فى عهد الملك « سنفرو » مؤسس الأسرة الرابعة ، كانت من السفن الكبيرة فى ذلك العصر ، حيث يبلغ طول الواحدة منها نحو ٥٠ متراً .

● وقد استشف المؤرخون من دلالات الألقاب والرتب العسكرية أن قيادة « الجيش البرى » كانت مستقلة عن قيادة الأسطول الحربى ، وذلك بالرغم من وجود قيادة

موحدة تتولى شئون الجيش البرى والأسطول معاً ، وكان الذى يشغلها يحمل لقب القائد الأعلى للجيش وأمير أسطول البحر » .

● ويقول المؤرخون أيضا إن مصر القديمة عرفت منذ البداية ضرورة وأهمية انفصال الجيش عن السلطة المدنية انفصالاً تاماً . ومعنى ذلك أن الجيش لم يكن له دخل فى توجيه سياسة الدولة ، بل كان الحال على العكس من ذلك، حيث تقوم السلطة السياسية التى يمثلها الملك بتوجيه الجيش البرى والأسطول البحرى وتحريك كل منهما للقيام بمهمة أو مهمات محددة .

● ولم يعرف خلال عصر الدولة القديمة قيام الملوك بقيادة تلك الجيوش أثناء الحملات العسكرية أو الاشتراك فى المعارك الحربية ، وذلك بعكس ملوك الدولة الوسطى والدولة الحديثة الذين قام أغلبهم بقيادة الجيوش المصرية والاشتراك الفعلى فى المعارك الحربية مع الجنود والضباط .

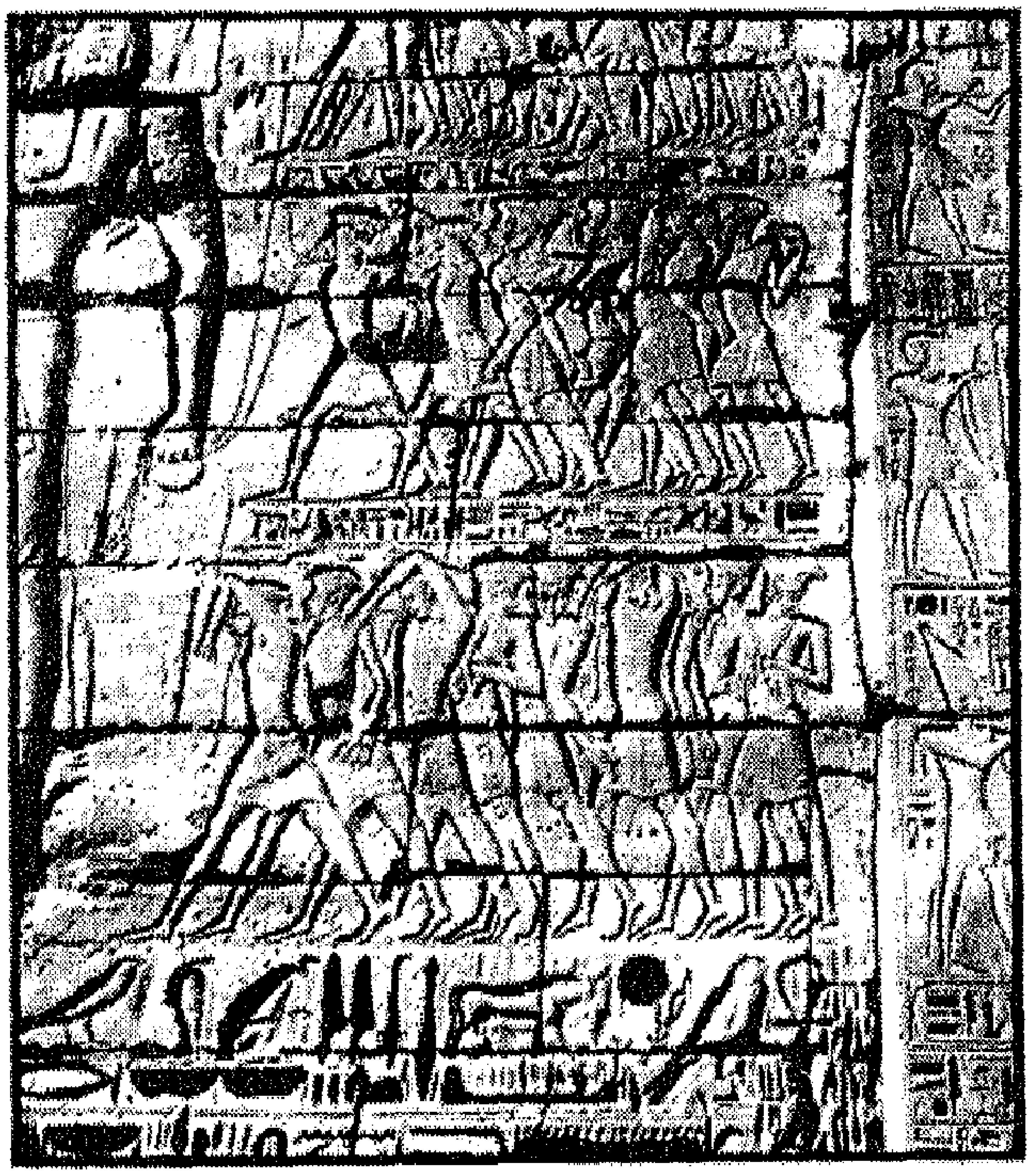

جنود مصر القديمة يكتفون الأسرى من أعداء البلاد .

« الشاب الجميل » .. لقب الجندى فى مصر القديمة

من الوثائق الأدبية الأثرية وثيقة ملكية شهيرة نسبت إلى الملك « أخيتى الرابع » وهو ينصح ابنه وولى عهده « مريكا رع » ويقول فيها : « ارفع من شأن الجيل الجديد . . لكى تحبك الرعية . . إن البلاد ملأى بالشبان المدربين . . إجعل من هؤلاء الشبان أتباعك . . امنحهم الممتلكات . . وهبهم الحقول والقطعان » .

● وفى مثل هذه الوصية دليل يؤكد وجود نظام سابق التطبيق ، وهو حرص السلطة التنفيذية والإدارية بالدولة على الاهتمام برعاية فتية البلاد وشبّانها ، وتأهيل من يصلح منهم للخدمة العامة . وتدل الشواهد الأثرية على أن هذه السياسة كانت متبعة فى كافة عصور التاريخ المصرى القديم من أوله إلى آخره . ويقدم لنا المؤرخون وعلماء الآثار المصرية شروحاً لنماذج كثيرة من النقوش والرسوم التى تصور الألعاب والتدريبات الرياضية التى كان يمارسها الشباب .

● وكانت المدارس المصرية القديمة التى كانوا يسمونها « بيوت الحياة » تضع فى برامجها التعليمية التى تشمل : الكتابة ، والأدب ، والعلوم الحسابية والهندسية ، والموسيقى ، والتربية الأخلاقية ، والعلوم الطبية ، إلى جانب برنامج أساسى للتربية الرياضية والعسكرية ، الأمر الذى يؤكده المؤرخون من أن هذه المدارس كانت حريصة على تربية الأبدان السليمة إلى جانب تزويد عقول التلاميذ بالعلوم النافعة وتهذيب أخلاقهم بتعليمهم مبادىء السلوكيات الفاضلة التى تواضع عليها المجتمع .

● ومن الشواهد الأثرية التى يرجع تاريخها إلى مختلف عصور التاريخ المصرى

القديم ، يمكننا أن نستدل على مدى حرص الشباب من المصريين القدماء على صحة أبدانهم ، وكان سبيلهم فى ذلك هو ممارسة الرياضة البحتة والألعاب الرياضية بصفة عامة . ويبدو ذلك جلياً فى النقوش والرسوم والتماثيل التى تفصح بالأدلة الظاهرة عن أن الناس ـ سواء أكانوا من الملوك أو من علية القوم أو من أفراد الشعب العاديين ـ كانوا أصحاء الأبدان أقوياء العضلات وذوى وجوه ناضرة .

● وبدراسة هذه الشواهد الأثرية استطاع المؤرخون تحديد أنواع الألعاب والتمرينات الرياضية التى كان يمارسها المصريون القدماء ، ومنها على وجه الخصوص: رياضة سباق العَدْو ، ورياضة تسلق الأشجار والنخيل ، ورياضة القفز وحمل الأثقال ، ورياضة التجديف مع التيار وضده ، ورياضة السباحة فى النهر والتدريب على الإنقاذ ، ورياضة المبارزة بالسيوف أو بالعصى الطويلة والقصيرة ، ورياضة الفروسية وسباق الخيل ، ورياضة الرماية بالسهام والنبال واستخدام الرماح ، ورياضة المصارعة .

● وبالنسبة لرياضة المصارعة تشهد نقوش بعض مقابر « بنى حسن » [بمحافظة المنيا] على مدى تفوق المصريين القدماء فى ممارسة هذه الرياضة التى تهدف إلى تعليم الشباب طرق النضال والمقاومة والالتحام مع العدو ، فى ظل فلسفة أن القوة هى الوسيلة المثلى للنصر والغلبة . وبمهارة فائقة استطاع الفنانون الذين رسموا هذه النقوش المصورة ، تسجيل مئات الحركات والأوضاع والمسكات التى تقتضيها ممارسة رياضة المصارعة ، الأمر الذى يدل ـ على نحو قاطع ـ على أن المصريين القدماء قد حددوا مجموعة من القواعد الرياضية التى يتقيد بها الرياضيون الذين يمارسون المصارعة . ويقول المؤرخون فى ذلك إن هذه القواعد الرياضية قد انتقلت فيما بعد إلى اليونان ثم إلى الرومان ، وهما دولتان كانتا تفخران بأنهما قد وضعتا لرياضة المصارعة قواعدها المحددة .

● ولاشك فى أن هذه التربية الرياضية والعسكرية فى مدارس مصر القديمة كانت تساهم إلى حد كبير فى تقوية أبدان لشباب ورفع معنوياتهم وقدراتهم على تحمل

الصعاب والقيام بالمهمات الشاقة . ولذلك فقد كان التفوق الرياضى من سبل اختيار الشبان المجندين فى الجيش .

● ومن المدهش أن الجنـدى المجند فى مصر القديمة كان يطلق عليه لقب « نفر » ـ بكسر حرفى النون والفاء ـ ومعناه « الشاب الجميل » [وأرجو ملاحظة التشابه بين كلمة « نفر » فى اللغة المصرية القديمة ، وكلمة « نفر » ـ بفتح حرفى النون والفاء ـ فى اللغة المصرية الدارجة الحديثة ، حيث ما زال لقب « نفر » يطلق على الجندى فى عصرنا الحاضر .

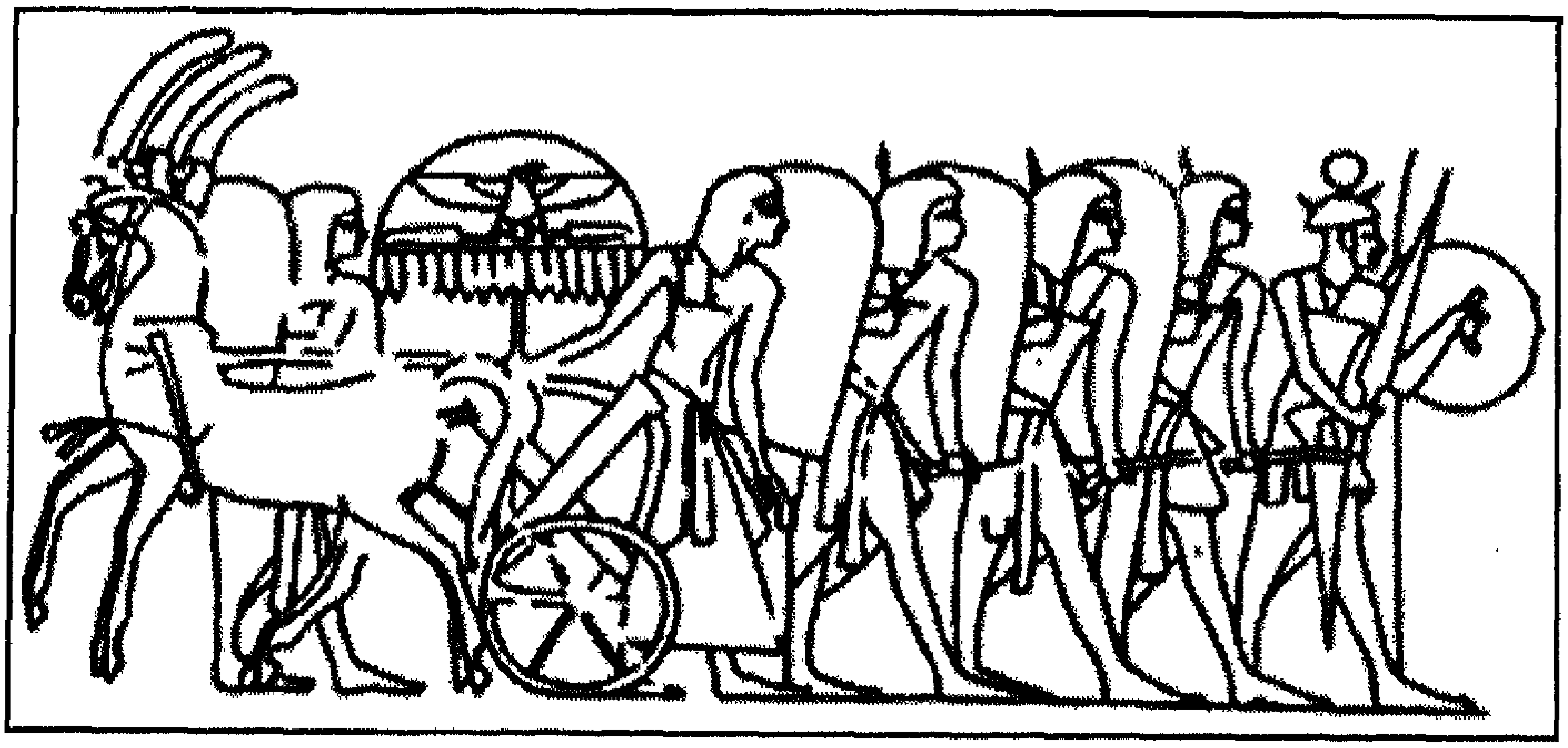

جنود يتدربون غلى الحركات العسكرية

شرف الجندية .. فى مصر القديمة

لم يعرف عن ملوك الدولة القديمة [من الأسرة الثالثة حتى الأسرة السادسة] أنهم كانوامن الغزاة أو الفاتحين ، ومع ذلك فقد حرصوا جميعا على أن يكون للدولة جيش يحميها ويصد عنها غارات الطامعين من بدو الصحارى ، سواء من الآسيويين أو من الأفريقيين ، خصوصاً من أهالى النوبة والليبيين .

● وكانت وسيلة الدولة فى تكوين هذا الجيش هى قيام الملك بإصدار أوامره لحكام الأقاليم بتجنيد الجنود من الشبان اللائقين لأداء الخدمة العسكرية بكل ما فيها من مشاق ومسئوليات . ويتم تدريب هؤلاء الشبان تدريباً عسكرياً صارماً على فنون الحرب والقتال التى كانت معروفة فى ذلك العصر . وكما ذكرنا من قبل فإن من جموع هؤلاء الشبان المدربين كانت تتكون الفرق والفيالق الخاصة بالجيش الملكى الموحد الذى تحتاجه البلاد .

● ولم تكن مهمة الجيش منحصرة فى الأعمال الحربية وحدها ، بل كانت بعض وحدات هذا النظام النظامى الموحد تكلف بأداء العديد من الأعمال المدنية والأشغال العامة وأعمال الشرطة والحراسة ، خصوصاً حراسة القصر الملكى والجبانات ، كما كانت تكلف أيضا بحراسة حدود البلاد فى الشرق والغرب والجنوب . . وكانت بعض فرق الجنود مكلفة أيضا بأداء بعض الأعمال الصعبة والشاقة مثل تكليفها بالعمل فى المحاجر الممتدة من جبل المقطم حتى مناطق الصخور الجرانيتية بأسوان . وقد تم العثور على شواهد أثرية منقوشة على صخور بعض الأهرام كتبت عليها أسماء الوحدات

العسكرية التى اشتركت فى عمليات إحضار وتجهيز الصخور والأحجار التى استخدمت فى بناء الأهرام .

● ولا يفهم من ذلك أن الجنود كانوا مجبرين على القيام بأعمال السخرة ، بل كان هذا الاتجاه نوعاً من تمييز هؤلاء الجنود الشبان الذين يجمعون بين صلاحيتهم للقيام بالأعمال الحربية والأعمال المدنية . وتدل الشواهد على أن هؤلاء الجنود كانوا ذوى حظوظ يحسدهم عليها الشبان الآخرون من غير المجندين . . فقد كان الطريق مفتوحاً أمام هؤلاء المجندين الذين يثبتون كفاءتهم فى القيام بالأعمال المكلفين بها لكى ينتقلوا إلى مراتب الضباط ، بل وأن ينتقلوا إلى مستويات القيادة إذا ثبت أنهم أبلوا بلاءً حسناً فى المعارك الحربية . . ومن كان يجيد منهم الكتابة تفتح أمامه أبواب الوظائف العليا بالدولة ، كما كان هناك نظام قانونى لمنحهم الأوسمة والأنواط العسكرية التى تؤهلهم للتمتع بميزات عديدة ، كما كانوا يحصلون على حقهم العادل من الغنائم الحربية ، ويمنحون أيضاً إقطاعات ومساحات محددة من الأرض الزراعية الخصبة ، بل سمح لبعض الجنود الأكفاء ـ فى عصور تالية على عصر الدولة القديمة ـ أن يشغلوا مناصب إدارية عليا فى المستعمرات المصرية ، أو يتم تكليفهم بأداء مهمات دبلوماسية فى الدول الأجنبية لتحقيق بعض المصالح المصرية ، أو يصبحوا أعضاء فى البلاط الملكى ومن المقربين للملك .

● ومن الطريف أن نذكر هنا انه بالرغم من كل هذه المزايا التى كان يتمتع بها الشبان المجندون ، كان المتقعرون من المثقفين المصريين القدماء يسخرون من هؤلاء الجنود بل ومن سلك الجندية على إطلاقه ، فقد عثر على نصوص أدبية يتفاخر فيها المثقفون «الكتاب » بمهنة الكتابة وتفضيلها على سائر المهن الأخرى ومنها مهنة الجندية . ويقول هذا النص ما معناه : « إن الجندى المحارب إذا سقط من العربة فسوف يتعرض للضرب المبرح . . أما جندى المشاة فيؤخذ طفلا ويوضع فى المعسكر ، وعندما يصبح جندياً قد توجه إليه ضربة موجعة فى بطنه ، أو لطمة جارحة فى عينه ، أو لكمة مؤلمة إلى حاجبه . . ويؤمر بالسير والقتال فى الصحراء ، ويجبر على حمل طعامه وشرابه فوق ظهره . . وقد يضطر إلى شرب الماء الآسن ، ولا يتوقف عن السير إلا

عندما يقف ديدباناً فى نقطة حراسة . . وعندما يشتبك مع العدو يصبح أشبه بعصفور وقع فى شرك ، وأصبح عليه أن يبذل جهده كله لقهر العدو والإفلات من الموت . . وعندما يعود إلى مصر يكون كقطعة من الخشب نخرها السوس فيمرض ويضطر إلى الرقاد بعد أن يجد ثيابه قد سرقت وهرب خُدَّامه » .

● ولاشك فى أن هذا النص الأدبى يمثل نوعاً من الافتراء والتجنى على مهنة الجندية وعلى الطبقة العسكرية بأكملها من جانب طبقة الكتاب والمثقفين الذين كانوا يتباهون بعلمهم وثقافتهم على غيرهم من أصحاب المهن الأخرى . . ولا شك فى أن كبار رجال الدولة وعلى رأسهم الملك كانوا يعترفون بفضل الجيش عندما يقوم بأداء المهام الكبرى الموكلة إليه . . وعندماكان الجيش يقوم باستعراضاته العسكرية ، كان أفراد الشعب العاديون يهللون تحية وتمجيداً لهؤلاء الجنود الشجعان الذين يتولون الدفاع عن حياة وحقوق كل فرد من أفراد الشعب ، ويحققون له الأمن والأمان والحماية من أطماع الطامعين فى خيرات البلاد .

أحد الضباط يستقبل مجموعة من المجندين الجدد ، ويقسمهم على الوحدات العسكرية ، ويقوم الحلاّقون بحلاقة شعر رؤوسهم .

أول دولة استخدمت الجنود المرتزقة.

ما زلنا نستعرض أحوال وأوضاع الجيش المصرى فى عصر الدولة القديمة [من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة] . وقد رأينا من قبل كيفية اختيار الشبان الأقوياء من كافة الأقاليم المصرية فى الوجهين القبلى والبحرى لتجنيدهم فى الجيش الملكى الموحد . كما رأينا كيف اتسعت اختصاصات هذا الجيش سواء فى تكليفه بالقيام بالأعمال العسكرية كصد هجمات بدو الصحارى وتنفيذ الحملات التأديبية ضد أعداء البلاد التقليديين ، أو بتكليف هذا الجيش بالقيام بالأعمال المدنية مثل البعثات التعدينية وأعمال المحاجر وأعمال الحراسة .

● وعندما اتسعت أنشطة الدولة أصبحت أعداد الجنود المجندين لا تكفى للوفاء بتزويد كل هذه الانشطة بما يكفيها من الجنود المصريين ، ولذلك فقد ابتدعت الدولة نظاماً جديداً مبتكراً غير مسبوق فى أية دولة أخرى من دول العالم القديم المعاصر لعصر الدولة القديمة فى مصر ، وهو نظام استخدام الجنود المرتزقة .

● وتدل بعض النقوش الأثرية على أن بعض ملوك الأسرة الخامسة توسعوا فى استخدام الجنود المرتزقة ، ثم أخذ هذا النظام يتسع أكثر وأكثر فى عهود بعض ملوك الأسرة السادسة . ويرجع المؤرخون لجوء الدولة المصرية لاستخدام نظام الجنود المرتزقة إلى عدة أسباب ،منها اتساع حاجات الدولة إلى المزيد من الجنود لتدعيم الجيش المحارب، ومنها أيضا سبب سياسى يتمثل فى ضعف سلطة وسيطرة الملوك فى أواخر عصر الأسرة السادسة على حكام الأقاليم الذين ازدادت قوتهم بشكل جعلهم يستقلون

بأقاليمهم أو يبتعدون بالتدريج وبدرجات مختلفة عن سيطرة الملك ، وبالتالى عن سيطرة الحكومة المركزية فى عاصمة الدولة .

● وبالنظر إلى المزايا العينية العديدة التى كان يتمتع بها الجنود المصريون المجندون ، فقد ازدادت الرغبة لدى شباب بعض القبائل النوبية فى الانضمام تحت لواء الجيش المصرى للحصول على بعض هذه المزايا . ولذلك فقد تولى بعض حكام الأقاليم الجنوبية خصوصاً حكام إقليم إلفنتين بأسوان القيام بتجنيد الشبان الأقوياء الصالحين لأداء الخدمة العسكرية والذين يتم اختيارهم من أبناء القبائل النوبية ، وذلك لضمهم إلى فرق وفيالق الجيش الملكى المصرى .

● وهناك بعض النقوش الجدارية التى يرجع تاريخها إلى عصر الأسرة السادسة نفهم منها أن هؤلاء الجنود المرتزقة كانوا يحصلون على مزايا كثيرة مثل منحهم إقطاعات من الأرض المصرية الصالحة للزراعة ، مع إعفائهم من الضرائب التى كانت تفرضها الحكومة على الانتاج الزراعى ، بالإضافة إلى مزايا أخرى مماثلة للمزايا التى كان يحصل عليها الجنود المجندون المصريون .

● وقد شاع استخدام الجنود المرتزقة فى الحصون الحدودية ، وفى القيام بأعمال الشرطة ، وفى حراسة الأهرام والمقابر الملكية ومقابر النبلاء وكبار رجال الدولة ، بعد أن ازداد تعرض هذه المدافن للسرقات التى كان يقوم بها لصوص المقابر للاستيلاء على ما كان فيها من كنوز وأثاث جنائزى .

● وقد توصل المؤرخون إلى معرفة الكثير من أسماء قادة فرق الجنود المرتزقة ، وكان أغلبهم من المصريين الذين كان يتولون المناصب العالية بالدولة ، خصوصاً من كبار ضباط الجيش المصرى . ومع ذلك فقد عثر على اسم أحد النوبين وهو « حكا إيب » مكتوباً على جدران مقبرته بجزيرة إلفنتين بأسوان وبجواره ألقابه التى منحت له وكان من ضمنها لقب «قائد الجنود المرتزقة » . وتدل صورته على أنه كان مجعد الشعر ، وذا بشرة سمراء داكنة كالنوبيين تماماً . . ويقول بعض المؤرخين إنه كان رئيس قبيلة نوبية ودخل فى خدمة الجيش المصرى وأظهر براعة عسكرية وإخلاصاً فى خدمة الدولة المصرية ، فعينه الملك حاكماً على إلفنتين أثناء حياته مع انتقال الحق فى حكم الجزيرة إلى أبنائه بعد وفاته .

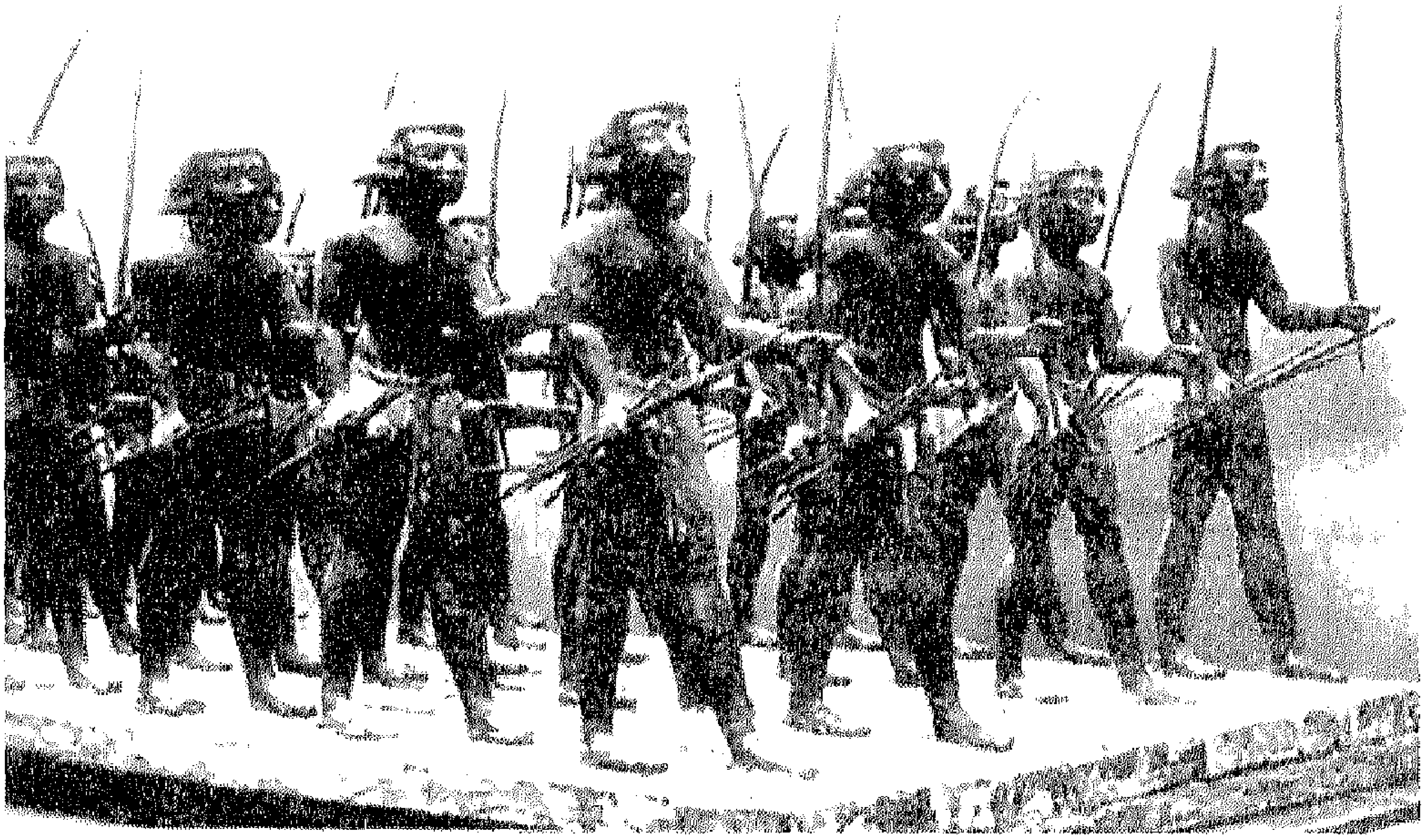

تماثيل أثرية صغيرة لعدد من الجنود النوبيين الذين كانوا يلتحقون بوحدات الجيش المصرى .

الجيش يوحد مصر مرة أخرى

ذكرنا من قبل كيف انهارت مؤسسات الدولة فى أعقاب نهاية عصر الأسرة السادسة، وبدأ عصر تاريخى غامض ومقيت اصطلح على تسميته بعصر الاضمحلال الأول الذى استمر خلال حكم الأسرات من السابعة حتى بداية عصر الأسرة الحادية عشرة . وقد اختلف المؤرخون وعلماء الآثار المصرية المحدثون فى تحديد المدة الزمنية التى استغرقها هذا العصر الذى عمت فيه الفوضى فى طول البلاد وعرضها ، فبعض المؤرخين ومنهم «برستيد » يقدر هذه المدة بنحو ٣٠٠ سنة ، ويقدرها آخرون ومنهم « فون بكرات » بنحو ١٢٠ سنة .

● وعلى أية حال فقد تمزقت أوصال الدولة إلى أقاليم متناحرة يحارب بعضها بعضاً لمحاولة حكام هذه الأقاليم فرض نفوذهم على الحكام الآخرين وتكوين أسرة ملكية جديدة من تلك الأسرات الضعيفة التى لم تكن تستطيع أن تسيطر على كل أقاليم الوجهين القبلى والبحرى معاً ، أو تفرض حكومة مركزية موحدة تدير كافة شئون البلاد الإدارية والاقتصادية والعسكرية بالشكل والوسائل التى كانت سائدة فى عصر الدولة القديمة [الأسرات من الثالثة حتى السادسة] . ويقول « مانيتون » ـ المؤرخ المصرى القديم الذى عاش فى سمنود بالوجه البحرى فى بداية القرن الثالث قبل الميلاد خلال العصر البطلمى ـ إن إحدى هذه الأسرات الملكية الضعيفة التى حكمت مصر خلال عصر الاضمحلال الأول ، كانت مكونة من سبعين ملكا وحكمت لفترة وجيزة لا تتجاوز سبعين يوما « !! » . وبالرغم من غرابة هذا التاريخ إلا اننا نستطيع أن نفهم منه مدى الفوضى التى حلت بمصر خلال ذلك العصر .

● ومع ذلك وبالرغم من هذه الفوضى التى ضربت أطنابها فى نظام الحكم المصرى إلا أن الشواهد الأثرية تدل على مدى اعتماد حكام الأقاليم على تكوين الجيوش التى يتحاربون بها فيما بينهم ، أو يحاربون جيش الملك الجالس على العرش . وفى هذا المجال اعتمد كل حاكم إقليم على تجنيد الشبان المصريين ممن يثق فى إخلاصهم وولائهم له ، بالإضافة إلى من كان يستخدمهم من الجنود المرتزقة من النوبيين والليبيين والساميين الذين كانوا يتخذون من الجندية حرفة يتكسبون بها . ومعنى ذلك أن الجيوش المتعددة التى كانت تحت سيطرة حكام الأقاليم ـ بالرغم من حسن تنظيمها العسكرى وتسلحها تسليحاً جيداً ـ لم يكن لها ولاء أو انتماء وطنى نحو الدولة المصرية ، بل كان ولاؤها لحاكم الإقليم المستقل الذى تأتمر بأمره ، سواء عند استخدام هذا الجيش المحلى فى الهجوم على حكام الأقاليم الأخرى ، أو لصد هجمات جيوش حكام هذه الأقاليم إذا شنت غاراتها ، أو لاستخدامها فى إقرار الأمن داخل حدود الإقليم .

● وهناك بعض الشواهد الأثرية التى يرجع تاريخها إلى ذلك العصر المضطرب تدل على تفاخر حكام الأقاليم بقدرة جنودهم الأقوياء على ضمان أمن الإقليم والمحافظة على راحة سكانه . وقد كتب أحد حكام الأقاليم على جدران مقبرته نصاً يقول فيه : «عندما يجىء الليل ، كان كل عابر سبيل يشكرنى لأنه أصبح يشعر بالأمان كما لو كان فى بيته ، فقد كان جنودى يقومون بحمايته » .

● وبطبيعة الحال فقد كان حكام الأقاليم يمنحون جنودهم ـ من المصريين والمرتزقة ـ إقطاعات من الأرض الزراعية التى يرويها النيل ، كما كانوا يمنحونهم أيضا بعض قطعان الماشية ويعفونهم من الضرائب . أما إذا تراخى حاكم الإقليم أو قصر فى منح الجنود هذه الرواتب والميزات العينية ، فقد كان هؤلاء الجنود يستولون على أراضى الأهالى ويغتصبون ممتلكاتهم وما كانوا يحتفظون به فى بيوتهم من حبوب لطعام أسراتهم وأبنائهم ، ويعيثون فساداً فى أرض الإقليم دون أن يجسر أحد للتصدى لعدوانهم . . تماماً مثلما كان يحدث أيام حكم المماليك لمصر بعد هذا العصر القديم الكئيب بنحو ٣٦ قرناً .

● ولكن بالرغم من كل تلك الأضرار التى حاقت بالبلاد فى عصر الاضمحلال

الأول ، وكل تلك الانقسامات فى الجيوش الإقليمية المتناحرة والتى كان لا يجمعها لواء وطنى واحد ، وبالرغم من الوبال والفوضى والاغتصاب الذى كانت تمارسه هذه الجيوش فى بعض الأحيان ضد شعب مصر الذى كان يسكن فى تلك الأقاليم ، فإن الشواهد الأثرية تدل على أن جنود تلك الجيوش الاقليمية كانوا على درجة عالية من التدريب العسكرى ويتميزون بروح قتالية لا بأس بها ، وكان ينقصهم ظهور قائد وطنى جسور يقوم باخضاع كل هذه الجيوش الإقليمية وضمها فى جيش واحد يستخدمه فى توحيد البلاد مرة أخرى ، ويعيد الجيش الملكى المصرى إلى ما كان عليه من القوة والوطنية . وهذا بالضبط ما قام به أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة الذى تمكن بجدارة من إعادة توحيد البلاد والأقاليم المصرية ، وإعادة الحكومة المركزية ، وبداية عصر تاريخى جديد هو ما اصطلح على تسميته بعصر « الدولة الوسطى » .

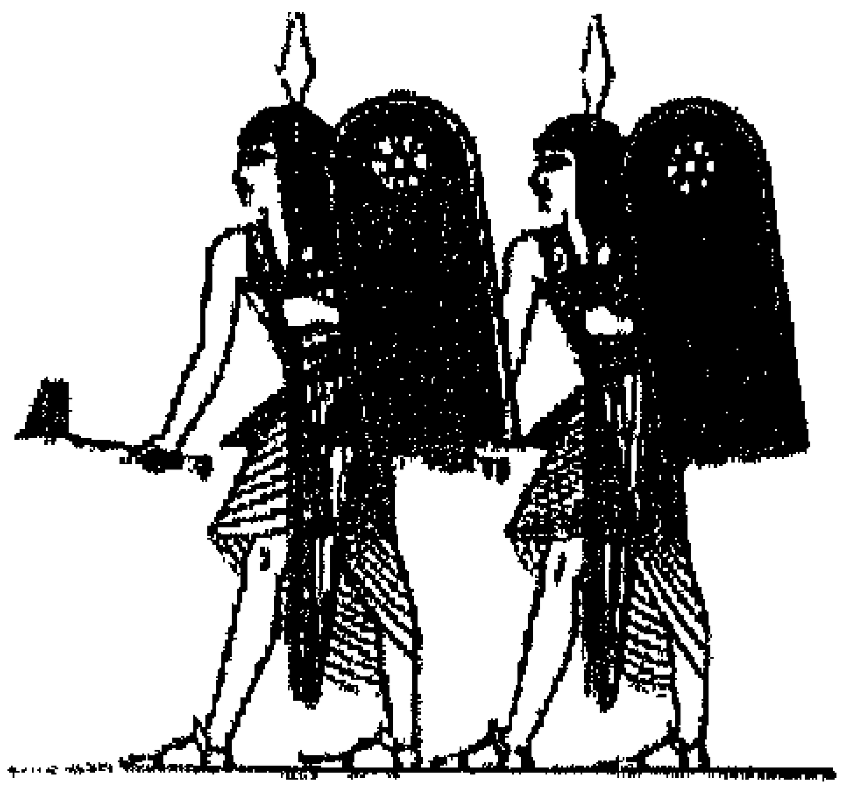

بداية ظهور ونمو « الدولة الوسطى »

الدولة الوسطى هى ما اصطلح عليه المؤرخون القدماء والمحدثون من تسمية الفترة التاريخية التى أعقبت عصر الاضمحلال الأول الذى تمزقت فيه مصر إلى ولايات وأقاليم متناحرة . وقد اختلف المؤرخون فى تحديد الفترة التى شغلتها « الدولة الوسطى» من تاريخ مصر القديم ، حيث يقول بعضهم إن هـذه الفترة بدأت فى حوالى عام ٢١٣٠ ق م وانتهت فى حوالى عام١٦٠٠ ق م ، وهى الفترة التى تشمل الأسرات من الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة . غير أننا نرجح ما قال به مؤرخون آخرون من أن العصر الحقيقى للدولة الوسطى هو العصر الذى شغلته الأسرة الثانية عشرة على ما سوف نرى .

● ومع ذلك فيمكننا أن نعتبر عصر الأسرة الحادية عشرة من الإرهاصات الأولى التى انتهت بثبوت قيام « الدولة الوسطى » فى عصر الأسرة الثانية عشرة ، وهى الأسرة التى أرجعت مصر إلى عصرها الذهبى بتحقيق الرخاء الاقتصادى ووحدة الدولة ووحدة الحكومة المركزية التى تسيطر على كل الأقاليم المصرية فى الوجهين البحرى القبلى ، بالإضافة إلى توحيد فرق وفيالق الجيش الملكى القوى الذى دافع عن حدود البلاد وقام بفتوح مظفرة فى الشمال والجنوب . أما ملوك الأسرة الحادية عشرة فلم يتمكن معظمهم من توحيد البلاد والأقاليم المصرية توحيداً كاملاً . وبالرغم من أن معظم هؤلاء الملوك كانوا يتلقبون بلقب « ملك الوجه البحرى والوجه القبلى » إلا أن هذا اللقب كان من قبيل المبالغة .

● وتدل الشواهد الأثرية القليلة التى يرجع تاريخها إلى عصر الأسرة الحادية عشرة

على أن الحروب الأهلية التى كانت تدور بين بعض حكام الأقاليم ظلت مستمرة ، كما حدثت اضطرابات سياسية وعسكرية كثيرة فى أقاليم الوجه البحرى الذى كان يتعرض بين حين وآخر لخطر الأجانب النازحين من غرب آسيا .

● وكان كل من الملك الجالس على العرش وحكام الأقاليم ـ سواء الخاضعين منهم لسلطان الملك أو المناوئين له ـ يفخرون بقوة جيشهم وحسن تدريب الجنود الذين يتكون منهم هذا الجيش . كما أن بعضهم كان يفخر بأن له أسطولاً جميلاً يأتمر بأمره . وكان حكام الأقاليم من أتباع الملك يفخرون برضاء الملك عليهم بسبب ما يقومون به من أعمال مدنية وعسكرية ، كاستخدام الجيش فى حماية سكان الإقليم من غزوات الأجانب أو هجمات الجنود التابعين لحكام الأقاليم الآخرين المعارضين للملك ، بالإضافة إلى القيام بحفر الترع والقنوات لإمداد الأراضى الزراعية بما تحتاجه من مياه الرى .

● كما أن بعض كبار الضباط وقادة الجند الذين عاشوا فى عصر الأسرة الحادية عشرة كانوا يكتبون على جدران مقابرهم وصفا لشجاعتهم فى الحروب التى خاضوها وانتصروا فيها ، ويرسمون أنفسهم فى ملابسهم الحربية وما كانوا يتزودون به من الأسلحة ومعدات القتال .

● ومن الأدلة الأثرية على استمرار حدوث القلاقل والتناحر بين أقاليم الوجه القبلى العثور على مقبرة جماعية يرجع تاريخها إلى ذلك العصر ، دفن فيها نحو ستين جندياً تدل جثثهم على أنهم قتلوا عندما كانوا يهاجمون حصناً . ومن الواضح أن بعض هؤلاء الجنود قتل بالسهام وبعضهم الآخر ضربوا بالعصى حتى ماتوا . ويقول الأثريون الذين فحصوا هذه المقبرة الجماعية انه فيما يبدو أن هؤلاء القتلى ظلوا فى العراء مدة طويلة حيث أن جميع الجثث عليها آثار تدل على أن الطيور الجارحة قد نهشتها قبل الدفن .

● وبالنظر إلى الأهمية التاريخية لهذه الأسرة التى تعتبر مقدمة لظهور عصر « الدولة الوسطى » نذكر عجالة عن نشأتها فى الإقليم الرابع من أقاليم الصعيد الذى كان يطلق عليه اسم إقليم « واست » وهو اسم باللغة المصرية القديمة معناه « الصولجان » . وقد

أطلق هذا الاسم على مدينة الأقصر التى ازدهرت فى العصور التالية من تاريخ مصر القديم . أما عاصمة هذا الإقليم فى ذلك الزمن فقد كانت تسمى « أون » الجنوبية وموقعها الحالى مدينة « أرمنت » التى كانت مقراً لعبادة الإله « منتو » إله الحرب .

● وطبقا لما ورد منقوشاً فى لوحة أثرية معروضة الآن بمتحف « المترو بوليتان » بنيويورك ، نعرف أن امرأة اسمها « أكوى » كانت تعيش فى اقليم « واست » رزقت بغلام أطلقت عليه اسم « أنتف » . وقد شاءت تقلبات الأحداث أن يصبح هذا الغلام جَدًّا للأمراء الذين حكموا إقليم « واست » والذين قويت شوكتهم فأصبحوا ملوكاً كونوا الأسرة الحادية عشرة ، وتسمى معظمهم بإسم «أنتف » أو أدخلوا هذا الاسم ضمن ما تسموا به من أسماء أخرى .

● ويحدد بعض المؤرخين العصر الذى ظهرت فيه هذه الأسرة بمنتصف القرن الثانى والعشرين قبل الميلاد . . ويؤكد مؤرخون آخرون بأن قصة « الفلاح الفصيح » الشهيرة ، وقعت أحداثها فى عهد أحد ملوك هذه الأسرة .

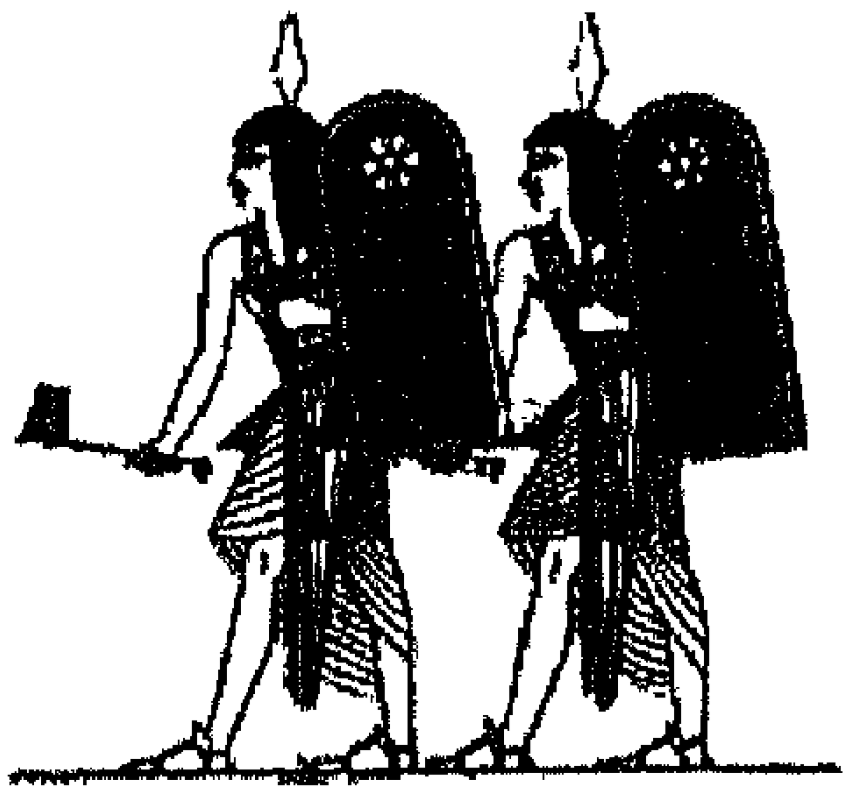

مصر القديمة تستعيد وحدتها وقوتها

تكمن قوة مصر في وحدتها . . وحدة شعبها ، ووحدة حكومتها المركزية التى كانت تمثل وحدة دولة واحدة مكونة من « أرضين » ـ كما كان يقول قدماء المصريين ـ هما «الوجهين » البحرى والقبلى بالرغم من وجود الفوارق الجغرافية والبيئية بينهما . ويقول علماء المصريات إن من الخطأ المبالغة في تحديد وجود مثل هذه الفوارق بين السكان القدماء فى الوجهين ، فكلهم كانوا يتكلمون اللغة نفسها ، وكانوا يعتنقون عقائد دينية متقاربة ، ويعيشون فى ظل حضارة مادية وروحية متماثلة . ولهذا فلم يكن غريبا أن هذه الوحدة بين أفكار المصريين القدماء ومشاعرهم كانت أمراً طبيعيا بعد أن تحققت وحدة الوجهين أو « القطرين » فى بداية عصر الأسرات على يد الملك مينا عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد . وأن هذه الوحدة الوطنية قد أدت إلى ذلك الازدهار الكبير فى حضارة مصر بأكملها ، كما أدت إلى قوة الدولة المصرية .

● ولذلك فقد تقلصت قوة الدولة حين تفككت أوصال وحدتها وانقسمت إلى أقاليم متناحرة كما رأينا فيما ذكرناه من معلومات عن عصر الاضمحلال الأول الذى أعقب نهاية الدولة القديمة بنهاية الأسرة السادسة والذى استمر حتى بداية عصر «الدولة الوسطى » . وهو العصر الذى بلغ قمته الذهبية فى عصر الأسرة الثانية عشرة .

● أسس هذه الأسرة حاكم عادل اسمه « أمنمحعت الأول » ينتمى إلى أسرة شعبية ليست من سلالات الملوك السابقين . ويقول بعض المؤرخين إنه كان وزيراً للملك «منتوحتب الرابع » آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة . وقد تولى عرش مصر حوالى عام ٢٠٠٠ ق م . وبالنظر إلى أن منهجنا فى هذه الدراسات هو عرض وتقديم أوجه

الحضارة التى صنعها أبناء الشعب المصرى القديم والتى أصبحت فخراً لنا نتباهى به بين سائر أمم الأرض ، فسوف نعرض فيما يلى أوجه الحضارة والتقدم الذى حققه أبناء الشعب المصرى فى ظل حكم الملوك العظام الذين تناوبوا الجلوس على عرش مصر واحداً بعد الآخر خلال عصر هذه الأسرة الملكية العظيمة التى أعادت لمصر وحدتها .

● ويقول بعض المؤرخين إن ملكاً أو ملكين من ملوك الأسرة الحادية عشرة قد استطاع توحيد الأقاليم المصرية التى استقلت وتفككت خلال عصر الاضمحلال الأول ، ولكنها للأسف كانت وحدة هشة سرعان ما دهمتها الميول الانفصالية مرة أخرى ، إلى أن استطاع « أمنمحعت الأول » مؤسس الأسرة الثانية عشرة فرض وحدة الوجهين البحرى والقبلى وإعادة الدولة المصرية إلى ما كانت عليه خلال عصر الدولة القديمة [الأسرات من الثالثة حتى السادسة] . ومما لا شك فيه أن هذا الملك اعتمد فى تحقيق هذه الوحدة على شباب المصريين القدماء الذين كان يتكون منهم الجيش المصرى الملكى ، وهم الذين أعادوا هيبة «الملكية » ورسّخوا سلطة الحكومة المركزية وكافة الادارات الإقليمية التى كانت تابعة لها .

● وبالرغم من أن ملوك هذه الأسرة قد نشأوا فى إقليم « واست » ـ طيبة / الأقصر ـ بجنوب الصعيد ، إلا أنهم فضّلوا الإقامة فى منطقة « اللشت » بمحافظة الفيوم حاليا ، وجعلوها عاصمة إدارية لمصر . ولهذا فقد حولوا أراضى الفيوم إلى جنة من جنات الأرض ، حافلة بمزارع الفواكه والخضراوات والحبوب بكافة أنواعها ، وذلك بعد أن أقاموا فيها أول خزان مائى فى تاريخ العالم لحجز وادخار ماء النيل أيام الفيضان .

● وكان من نتيجة هذه النهضة الزراعية التى شملت أراضى كافة الأقاليم المصرية إلى جانب إقليم الفيوم أن تحقق أعظم وأوسع رخاء اقتصادى واجتماعى فى تاريخ مصر القديم . واقتضى ذلك إنشاء إدارة مركزية للاشراف على الشئون الزراعية تتبعها إدارات محلية فى مختلف الأقاليم . كما أنشئت إدارة لشئون إحصاء السكان والأملاك ، بعد أن صدر قانون يحتم على رب كل أسرة أن يسجل عدد أفراد أسرته وخدمه ـ إن وجدوا ـ ويحدد مهنته ومهنة كل منهم ، وما يمتلكه أو يمتلكونه من أراض زراعية . وكان هذا

الإحصاء يتم ويتكرر كل ١٥ سنة ، وتحفظ سجلاته فى المحاكم . وقد ذكر أحد الوزراء على جدران مقبرته نصاً يقول فيه : « كنت أحقق سجلات الأراضى وأوضح حدود أرض كل مالك » .

● وقد تنبه المؤرخون وعلماء الآثار المصرية إلى كثرة الألقاب والمسميات الوظيفية التى ذكرها الوزراء وكبار الموظفين الذين خدموا الدولة خلال عصر الأسرة الثانية عشرة، خصوصاً بالنسبة لألقاب المهندسين والقضاة والإداريين . كما لاحظوا أيضا كثرة أسماء الإدارات والمصالح الحكومية ، الأمر الذى يدل على مدى إقبال الشبان المصريين على التوظف فى الحكومة لرفع مقامهم فى الحياة الاجتماعية ، وقد أدى هذا الإقبال بدوره إلى انتشار التعليم لتخريج ما تحتاجه الحكومة من الموظفين ، كما انتشرت المعاهد لتدريب طائفة العمال والصناع على أصول الحرف والصناعات المختلفة ، وكثرت كتابات الأدباء فى تمجيد الوظيفة الحكومية وإبراز أهمية أداء هذه الوظيفة على خير وجه من الهمة والإخلاص والأمانة .

● كذلك فقد ازداد إقبال الشباب على الالتحاق بالخدمة العسكرية للانضمام إلى الجيش الملكى الذى استطاع السيطرة على جميع مناطق النوبة السفلى وضمها إلى مصر ، والسيطرة على الحدود المصرية شمالاً حتى مناطق سوريا وفلسطين .

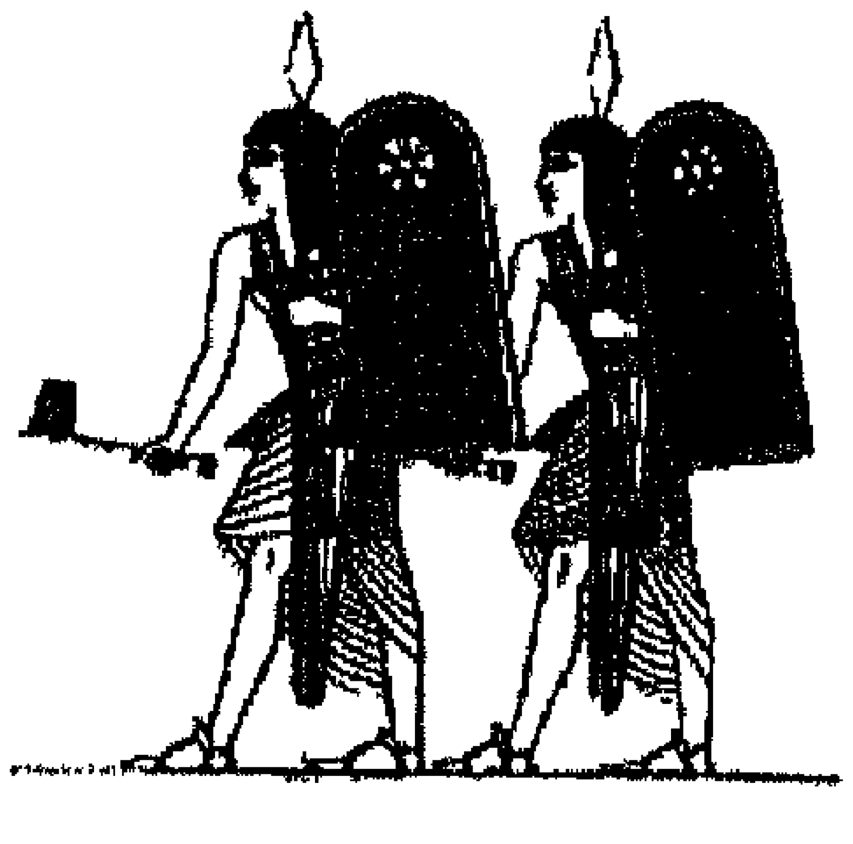

البيت الأبيض .. أصله مصرى قديم

إذا وصلت إلى واشنطن ، ومشيت فى شارع بنسلفانيا حتى تصل إلى ساحة لافاييت، فسوف ترى على الفور « البيت الأبيض » المقر الرسمى لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية . وقد اختار الرئيس « جورج واشنطن » هذا المكان ليصبح سكنا للرؤساء الأمريكيين ولتدار فيه أعمال الرئاسة الأمريكية . وكان الرئيس « جون آدمز » أول من أقام فيه من رؤساء أمريكا عام ١٨٠٠ م . . وفى عام ١٨١٤ م قام الانجليز بغارة على المدينة وأحرقوا هذا المقر فأصبحت جدرانه سوداء بفعل النيران . وعند ترميمه دهنت جدرانه الخارجية باللون الأبيض . ومنذ ذلك الحين أطلق الأمريكيون على هذا المقر اسم « البيت الأبيض » . ويبلغ طول البيت الأصلى ٥٢ متراً وعرضه ٢٦ متراً . وأضيفت إليه بعد ذلك عدة ملاحق . ويتكون البيت الأبيض من أربعة طوابق ، وشكله الأمامى مشهور بأعمدته ذات الطراز الأيونى ، وبداخله عدة قاعات فسيحة منها قاعة الاستقبالات الكبرى ، والقاعة الزرقاء والقاعة الحمراء والقاعة الخضراء . وتتخصص كل قاعة فى مزاولة الأعمال المختلفة للرئاسة الأمريكية ، بالإضافة إلى مجموعة من أجنحة القاعة المخصصة للرئيس وعائلته ، ومجموعة من الإدارات والمكاتب منها « المكتب البيضاوى » الشهير وأماكن أخرى تصلح لأعمال التحرش « ! » .

ومن المعروف تاريخيا أن المهندس الأمريكى « جيمس هوبان » هو الذى وضع تصميم وأساسات هذا المقر عام ١٧٩٢ م . أى أن عمر البيت الأبيض الأمريكى الآن يتجاوز مائتى عام بسنوات قليلة . . أما « البيت الأبيض المصرى » فقد أقيم منذ نحو أربعة آلاف سنة .

● وقبل أن نعرف حكاية هذا البيت الأبيض المصرى نشير أولاً إلى حالة الرخاء الاقتصادى التى تحققت للشعب المصرى القديم بفضل حكم الملوك العظام الذين ينتمون إلى الأسرة الثانية عشرة . . فهم الذين أعادوا للشعب المصرى القديم وحدته ، وبثّوا فيه الروح الوطنية ، فانطلق الشعب ليبنى حضارة « الدولة الوسطى » ويعيش عصرها الذهبى .

● وقد يكون من العسير أن نقدم فى هذا الحيز الضيق عرضاً لجميع الأعمال الحضارية العظيمة التى قام بها الشعب المصرى خلال عهود ملوك هذه الأسرة . ومع ذلك نشير باختصار إلى النهضة الاصلاحية التى شملت جوانب الاقتصاد والتجارة . . فقد ازدادت الرقعة الزراعية بعشرات الآلاف من الأفدنة نتيجة لمشروعات الرى التى تحققت ببناء « سد اللاهون » لحجز وادخار مياه فيضان النيل للاستفادة منها فى فصول التحاريق ، وحفر الترع والقنوات لمد مياه النيل إلى مساحات واسعة من الأراضى التى لم تكن مستزرعة من قبل .

● كما أرسلت عشرات البعثات التعدينية إلى مناطق شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية وبلاد النوبة للحصول على الفيروز والنحاس والذهب ، فازدهرت الصناعات المصرية ازدهاراً لم تشهده البلاد من قبل ، وازداد الانتاج الصناعى بفضل العمال والصناع المهرة الذين تم تدريبهم على ممارسة الحرف والصناعات بأعلى مستويات التكنولوجيا التى عرفتها المجتمعات الإنسانية فى ذلك العصر . وبالتالى فقد ازداد الانتاج الصناعى بما يكفى الاحتياجات المحلية ، مع تحقيق فائض يكفى للتصدير ، ولذلك فقد امتد نشاط مصر التجارى ليصل إلى جزيرة « كريت » شمالاً وإلى بلاد «بونت » وسواحل البحر الأحمر جنوباً .

● كما أن فرق وفيالق الجيش المصرى الذى تم توحيده وتدريبه قد قامت بفتوحات مظفرة فى المناطق النوبية والليبية والسورية ، إلى درجة يقول معها بعض المؤرخين إن هذا الجيش هو الذى وضع الأسس واللبنات الأولى التى قامت عليها الامبراطورية المصرية فى عصر « الدولة الحديثة » خصوصاً فى عصرى الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة على يد الفراعنة العظام « تحوتمس الثالث » و « سيتى الأول » و « رمسيس الثانى »

وغيرهم من الفراعنة المحاربين الذين حكموا مصر فى عصر « الدولة الحديثة » .

● وكان نتيجة ذلك كله أن تدفقت على مصر أموال الجزية وامتلأت خزينة الدولة بحصيلة الضرائب ، وبالذهب الذى كان يحصل عليه من النوبة والصحراء الشرقية ، وبعوائد التجارة مع الدول الأجنبية ، وبإيرادات المناجم والمحاجر . ولذلك فقد قامت الدولة بتأسيس إدارة مركزية للشئون المالية أطلقت عليها اسم « البيت الأبيض . . وجعلت على رأسها وزيراً متخصصا أُطلق عليه لقب « رئيس البيت الأبيض » وله مساعد أو وكيل أطلق عليه لقب « صراف الملك » . وأنشأت الدولة فروعاً لهذا البيت الأبيض فى معظم الأقاليم المصرية ، يعمل بها أعداد غفيرة من كبار وصغار الموظفين المتخصصين فى إدارة وتشغيل المناجم والمحاجر وكافة المشروعات الصناعية والتجارية التابعة للحكومة المركزية . وفى هذا البيت الأبيض المصرى كانت تحفظ الأوراق والسجلات الخاصة بجميع هذه الأنشطة .

حضارة الدولة الوسطى .. وهؤلاء الملوك العظام

حرصت منذ البداية فى هذه الدراسات عن « أم الحضارات » ألا أعرض تاريخ مصر القديم من خلال تاريخ الملوك والفراعنة ، ولكنى كنت ومازلت أحرص على عرض تاريخ الحضارة المصرية التى صنعها الشعب المصرى القديم . ومع ذلك فعندما وصل عرضنا لتفاصيل مظاهر الحضارة العظيمة التى أبدعها الشعب خلال عصر « الدولة الوسطى » وخصوصاً خلال عصر الأسرة الثانية عشرة ، فقد رأيت ألا أغفل تاريخ ملوك هذه الأسرة العظيمة الذين نهضوا بالبلاد نهضة حضارية لا يمكن لأى مؤرخ منصف أن يغفلها . ولذلك فسوف نعرض فيما يلى عرضاً موجزاً ومختصراً غاية الاختصار لتاريخ كل ملك من الملوك الثمانية الذين تكونت منهم هذه الأسرة .

● **أمنمحعت الأول** : مؤسس هذه الأسرة حوالى عام ٢٠٠٠ ق م . ومعنى اسمه «آمون فى المقدمة » وهوليس سليل ملوك سابقين ، بل هو ابن من أبناء الشعب ترقى فى وظائف الدولة العليا فى عهد آخر ملوك الأسرة السابقة . ويقول بعض المؤرخين إن أمه كانت نوبية ، وهو الذى أعاد للشعب المصرى وحدته وأحيا فيه الروح القومية . وقام بإصلاحات زراعية شملت مناطق واسعة فى الفيوم ، واختار عاصمة جديدة لمصر فى منطقة « اللشت » بالقرب من الفيوم . وكون جيشاً مصرياً قوياً وموحداً أخضع به الأعداء الذين كانوا يهددون الحدود المصرية ويقومون بغارات السلب والنهب ضد القرى والمدن ، فتوغل فى أراضى النوبة وأراضى ليبيا ، وبنى فيهما حصوناً عسكرية لمنع الاعتداء على الأراضى المصرية الجنوبية والغربية . كما قام بتحصين الصحراء الشرقية والمداخل الشمالية الشرقية إلى مصر لوقف هجرات وتسلل الآسيويين . . وفى

مقبرة«خنوم حتب » وهو أحد قادة جيشه ، يظهر هذا القائد فى صورة مع الملك وبجوارهما ٢٠ سفينة ضخمة مبنية من خشب الأرز ، الأمر الذى يدل على اهتمامه أيضا بالأسطول الحربى المصرى . ويقول دارسو الأدب المصرى القديم إن قصة «سنوحى » الشهيرة قد حدثت وقائعها وأحداثها فى عهده وعهد ابنه « سنوسرت الأول » الذى كان مشتركا معه فى الحكم فى أواخر سنوات عمره . وبالرغم مما عرف عنه من عدل وحكمة ، إلا أن بعض رجال حاشيته دبروا مؤامرة لاغتياله .

● **سنوسرت الأول** : تولى الحكم سنة ١٩٨٠ ق م واستمر حكمه فترة طويلة بلغت ٤٦ عاماً . ازدهرت فى عهده صناعة التعدين بعد أن أرسل البعثات للبحث عن مزيد من مناجم النحاس والفيروز والذهب فى كل من سيناء والصحراء الشرقية وبلاد النوبة. واستغلال محاجر المرمر والديوريت فى محاجر بنى سويف ومحاجر صحراء النوبة الغربية التى تقع على بعد ٦٥ كيلو متراً شمال غرب منطقة أبو سمبل الحالية . وأقام العديد من المبانى والانشاءات أهمها معبد عين شمس الذى بقيت منه « مسلة المطرية » الشهيرة التى أقامها احتفالاً باليوبيل الثلاثينى لحكمه ،وظلت باقية فى موضعها الأصلى حتى الآن . أما أهم الأعمال الأدبية التى نسبت لعصره فهى التحفة النادرة المثال « بردية الرمسيوم المسرحية » التى عثر على نسخة منها عالم المصريات « كويبل » عام ١٨٩٥ م فى أطلال معبد الرمسيوم الذى بناه رمسيس الثانى فى غرب طيبة. وهى مسرحية تتألف من ٤٦ مشهداً تمثل طقوس تتويج الملك سنوسرت الأول وصوراً من حياته . ومن أهم أعماله الحربية قيامه بحملة عسكرية ناجحة فى بلاد النوبة وصلت إلى الشلال الثالث لتثبيت حدود مصر إلى ما بعد ٢٥٠ كيلو متراً جنوب وداى حلفا .

● **أمنمحعت الثانى** : تولى الحكم سنة ١٩٣٨ ق م . وتميز عهده بالسلام والهدوء والرخاء وازدهار الصناعة والتجارة الخارجية . كما تميز أيضا بعلاقات الصداقة والود بين مصر والبلاد السوَرية شمالاً وبلاد بونت جنوباً . . فقد أرسل العديد من البعثات للمبادلات التجارية بين مصر وهذه البلاد كلها ، منها بعثتان شهيرتان إلى بلاد بونت ، علماً بأن هذه الرحلات كانت تتعرض لمخاطر شديدة فى ذلك العصر ، حيث كان

أحد التماثيل العشرة التى عثرت عليها بعثة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية عام ١٨٩٤ م ضمن بقايا المعبد الجنائزى للملك سنوسرت الأول . والتماثيل معروضة حاليا بالمتحف المصرى بالقاهرة .

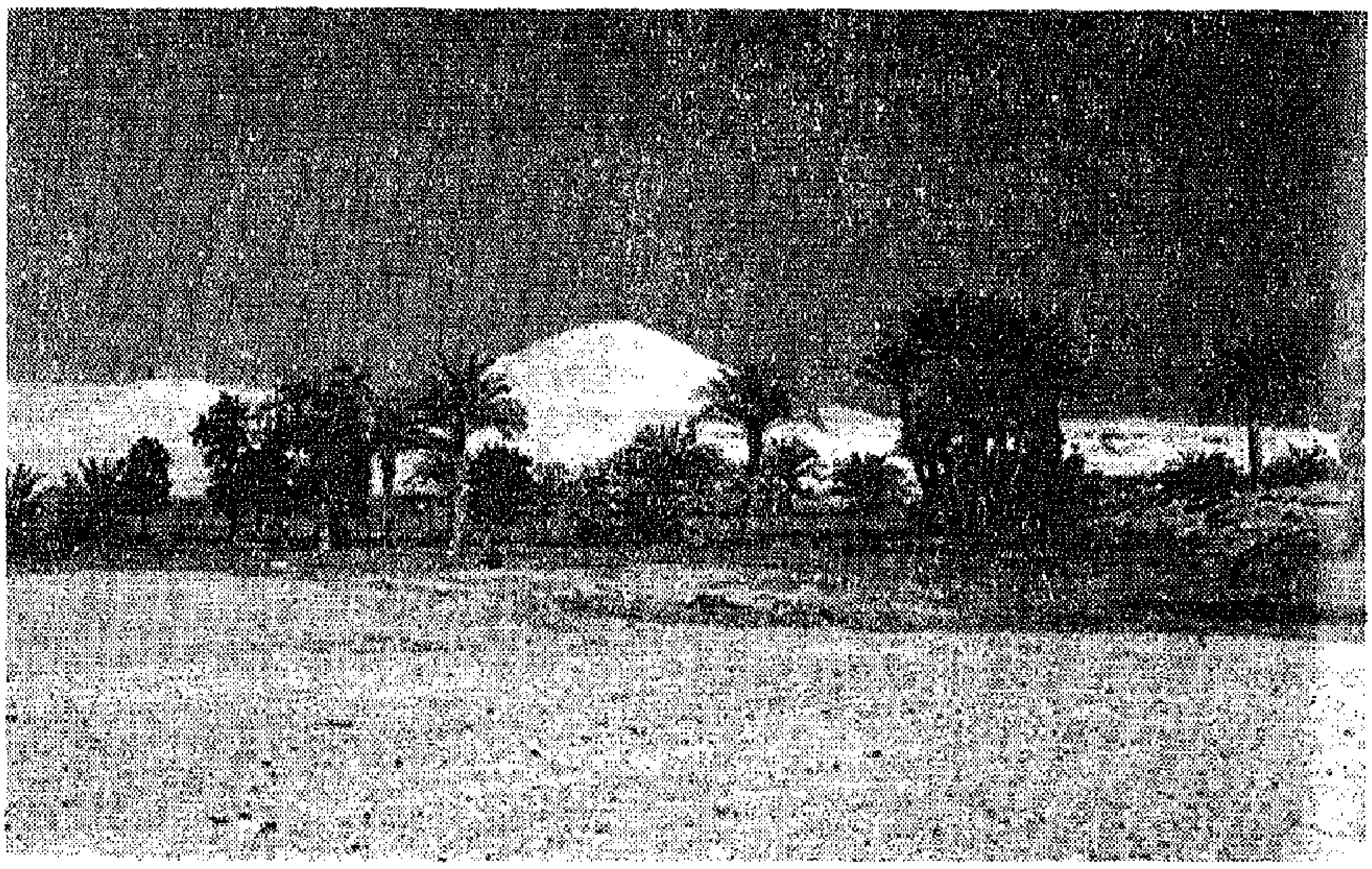

هرم أمنمحعت الأول . . فى منطقة اللشت بالفيوم

يتوجب على رجال البعثة أن يخترقوا الصحراء الشرقية حتى يصلوا إلى سواحل البحر الأحمر . وفى أثناء الرحلة الصحراوية كانوا يتعرضون إلى هجمات فجائية من البدو سكان الصحراء الذين لم يكن لهم هم سوى القيام بعمليات السلب والنهب . ولذلك فقد كان على رجال البعثة أن يواجهوا تلك الهجمات الشريرة بما لديهم من سلاح يدافعون به عن أنفسهم وعن السلع التى كانوا يحملونها فى رحلتى الذهاب والعودة . أما فى أثناء قيامهم بالرحلة البحرية فقد كان عليهم أيضا أن يواجهوا مخاطر الإبحار فى البحر الأحمر وهى ليست من المخاطر الهينة . ومن الأعمال الأدبية الرائعة المنسوبة إلى عهد أمنمحعت الثانى « قصة الملاح الغريق » وهى قصة قد تضاهى قصص « الخيال العلمى » التى عرفها العصر الحديث ، حيث وردت فيها أوصاف للمغامرات والمخاطر الخيالية التى عاناها ملاح مصرى غرقت سفينته التى كانت مبحرة فى البحر الأحمر واستطاع النجاة باللجوء إلى جزيرة خيالية حافلة بالمجوهرات الثمينة التى لا مثيل لها . ومن أهم الآثار المدهشة التى يرجع تاريخها إلى عهد هذا الملك ، ذلك الكنز الرائع الذى عثر عليه علماء الآثار عام ١٩٣٦ م ، وهو عبارة عن أربعة صناديق مصنوعة من البرونز نقش عليها اسم الملك ووجدت مملوءة بالأوانى الذهبية والفضية يبلغ عددها حوالى ٢٠٠ آنية بالإضافة إلى مجموعة من سبائك الذهب والفضة غير المشغولة ، ومجموعة من التمائم والتعاويذ المطعمة باللازَوَرْد والأحجار الكريمة . ويقول علماء الآثار إن معظم هذه التحف من المصنوعات الأجنبية مستوردة من جزر بحر إيجه ومن بلاد بابل ، الأمر الذى يدل على وجود مبادلات تجارية بين مصر وتلك البلاد .

● ومن الملاحظ أن جميع المؤرخين القدامى والمحدثين الذين أرخوا لفترات حكم ملوك الأسرة الثانية عشرة أثبتوا أن هؤلاء الملوك العظام كانوا يطبقون استراتيجية واضحة المعالم سواء من الناحية العسكرية أو من الناحيتين السياسية والاقتصادية . وهى استراتيجية حققت للبلاد أمنها وسلامتها وحققت أعلى مستويات الرخاء للشعب المصرى .

● **سنوسرت الثانى** : تولى الحكم سنة ١٩٠٦ ق م بعد وفاة والده العظيم «أمنمحعت الثانى » . ويصفه بعض المؤرخين بأنه لم يكن ميالاً للحروب إلا إذا اضطر

إليها اضطراراً ، فقد كان همه الأول هو العمل على ازدهار المزيد من المشروعات الزراعية والصناعية التى تحقق الرخاء للشعب ، وفتح أبواب التجارة الخارجية لتصدير المنتجات المصرية واستيراد المنتجات الأجنبية . ومع ذلك فقد عرفنا من بعض النصوص المسجلة فى عهده أن بعض الاضطرابات والقلاقل قد حدثت فى أقاليم بلاد النوبة التى ضمها أسلافه إلى الأرض المصرية ، بل وشرعت بعض القبائل النوبية فى تهديد حدود مصر الجنوبية ، الأمر الذى دفعه إلى إرسال حملة عسكرية لوضع الأمور فى نصابها والقضاء نهائيا على الأسباب التى أدت إلى حدوث تلك الاضطرابات . . بل وأمر الملك ببناء سور فى شمال الشلال الأول يبلغ طوله نحو ٨٠ كيلو متراً « !! » . كما أمر بتدعيم جميع الحصون العسكرية والقلاع الحربية التى شيدها أسلافه فى المناطق الخاضعة للحكم المصرى .

● وتدل الشواهد الأثرية التى يرجع تاريخها إلى عهد « سنوسرت الثانى » على تدعيم وازدهار العلاقات التجارية بين مصر وجزيرة « كريت » وجزر بحر إيجه بصفة عامة ، فقد عثر فى حفائر منطقة «اللاهون » بالقرب من الفيوم ، وهى المنطقة التى وجدت بها أطلال البيوت التى عاش فيها العمال الذين قاموا ببناء الهرم الخاص بهذا الملك ، على مجموعة من الأوانى السليمة والمهشمة ملونة بألوان وزخارف مختلفة عن الألوان والوحدات الزخرفية التى كانت سائدة فى صناعة الأوانى الفخارية المصرية . وبدارسة هذه الأوانى تبين انها من صناعة «كريت » . ويقول المؤرخون المتخصصون فى دراسة الحضارة الكريتية وحضارة جزر بحر إيجه ، إن هذه الحضارات قد نقلت عن مصر فن طلاء الأوانى الفخارية بالمينا . . كما أن أشكال الأوانى الحجرية التى اشتهرت بها الحضارة الكريتية فى عصرها الأول تعتبر تقيلدا دقيقاً لأشكال الأوانى المماثلة التى كانت تصنع فى مصر منذ عصر الأسرة السادسة [بالدولة القديمة] .

● وفى الجهة الجنوبية لهرم « سنوسرت الثانى » بمنطقة اللاهون ، عثر علماء الآثار على أربع مقابر لأعضاء أسرته ، وقد نهبت محتويات تلك المقابر بأكملها فى العصور القديمة فيما عدا حجرة صغيرة واحدة بمقبرة الأميرة « ست حتحور يونيت » وهى إبنة الملك . وقد أفلتت هذه الحجرة من عبث اللصوص القدامى لأنها كانت مخفية تماماً ولا

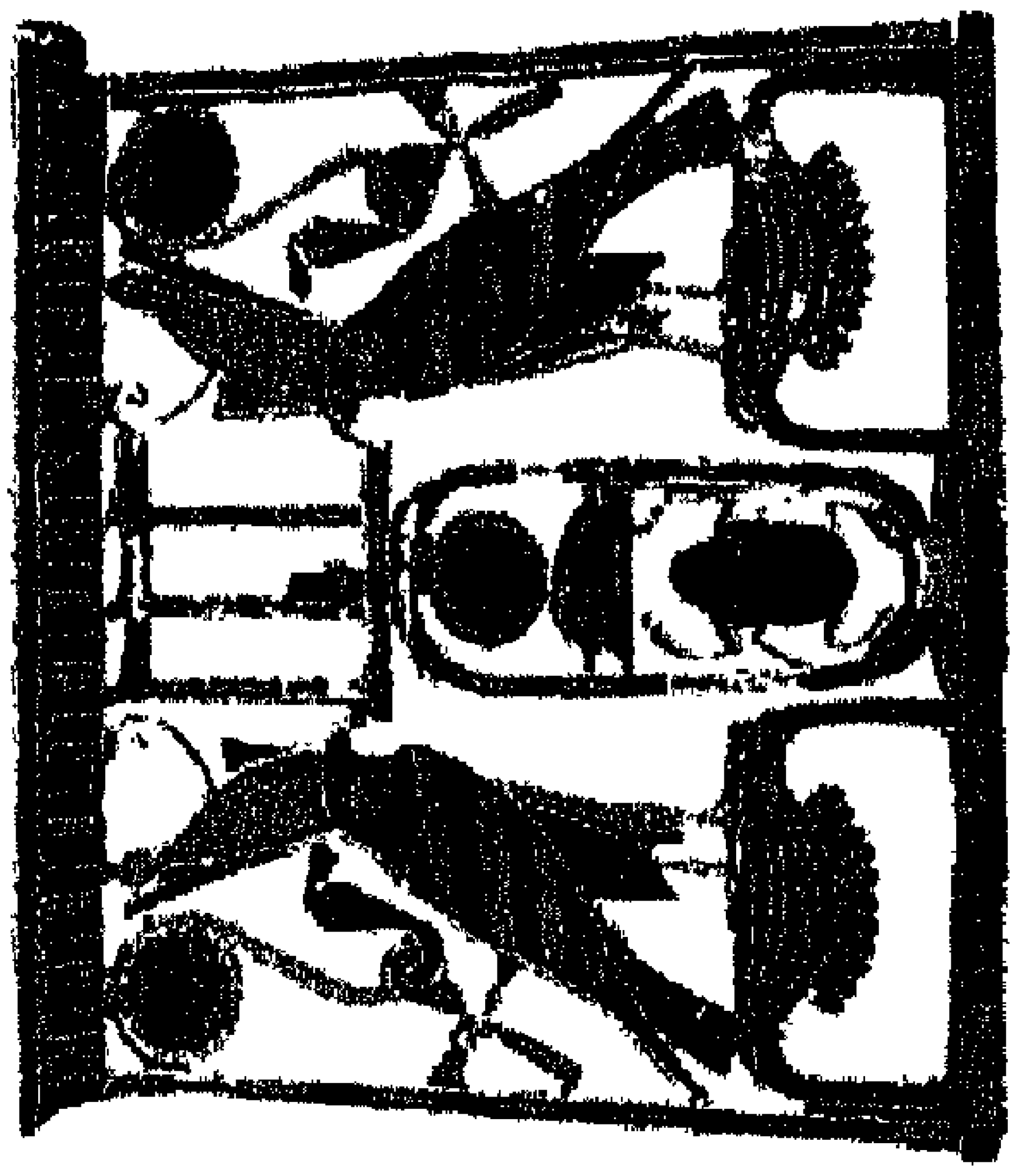

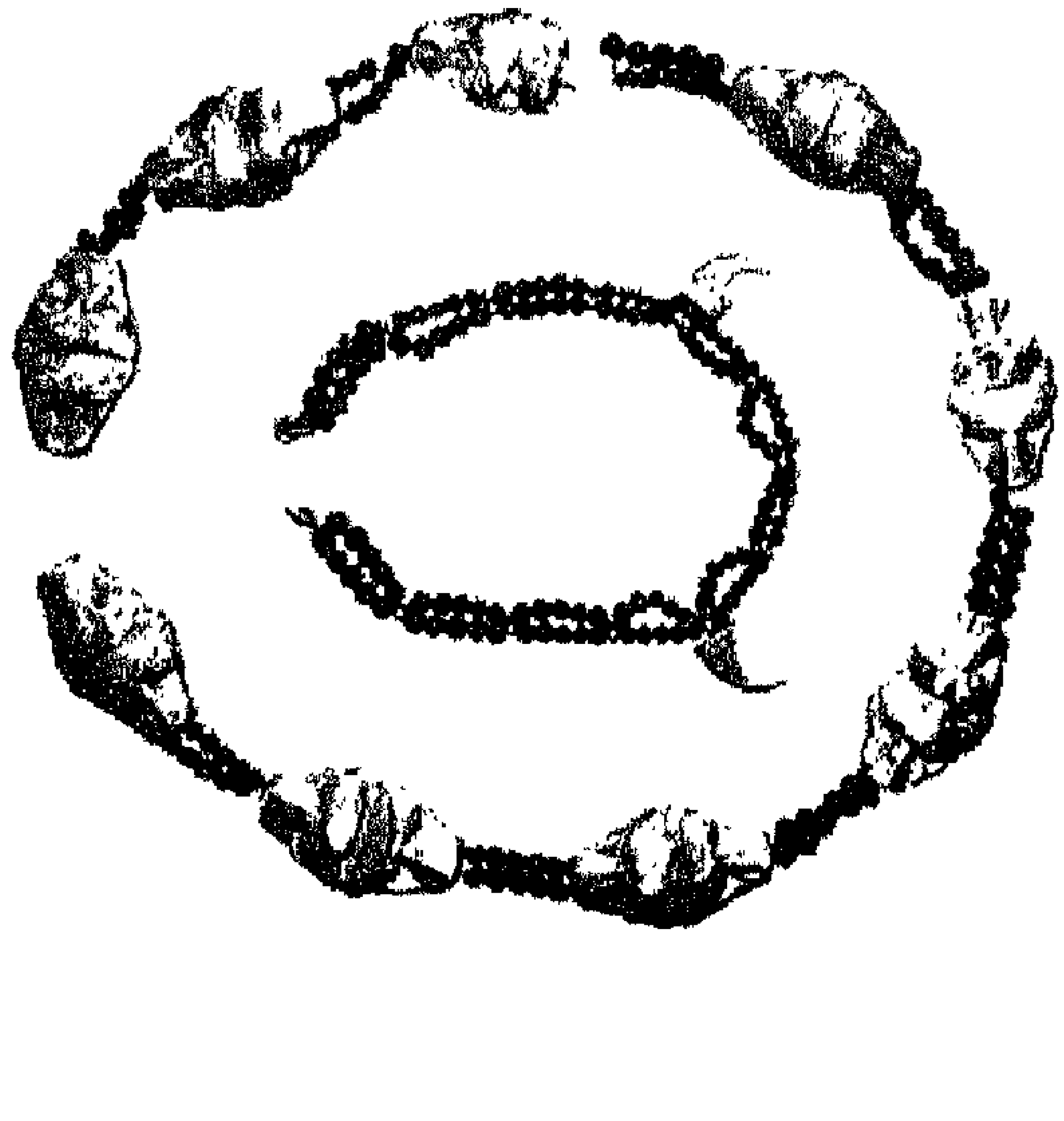

بعض مجوهرات أميرات الاسره الثانيه عشر .

يمكن الوصول إليها بسهولة . وفى عام ١٩١٤ م عثر عالم الآثار المصرية « ج . برنتون» على هذه الحجرة ووجد بها كنزاً من قطع الحلى والمجوهرات أثار ذهول العالم . . فجميع هذه القطع التى تألف منها هذا الكنز مصنوعة بدقة وعناية شديدة تدل دلالة قاطعة على مدى براعة العمال والجواهرجية المصريين فى صناعة المجوهرات فى عصر الدولة الوسطى . ومعظم هذه القطع معروضة الآن بمتحف مترو بوليتان للفن بنيويورك .

● ويقول عالم المصريات البريطانى « سيريل ألدريد » فى كتابة « مجوهرات الفراعنة» ـ ترجمة كاتب هذه السطور ومراجعة الدكتور أحمد قدرى ـ إن صناعة الحلى والمجوهرات فى عصر الدولة الوسطى قد بلغت قمة من قمم الفن الرفيع والذوق الراقى وجمال الشكل ودقة الصناعة . وفى عصر هذه الدولة لم يقتصر نشاط صناع الذهب وصياغه والجواهرجية من المصريين القدماء على سد الحاجات المحلية للشعب المصرى بجميع طبقاته ، بل امتد نشاطهم أيضا إلى عمليات « التصدير » وجعلوا من مصر منبعاً للذهب والمشغولات الذهبية ارتوت منه معظم دول وشعوب العالم القديم ممن كانوا على علاقة بالدولة المصرية .

● أما قطع المصوغات والمجوهرات الخاصة بالأميرة « ست حتحور يونيت » فهى تتألف من : قطع الحلى التى كانت تزين باروكة الشعر الخاصة بتلك الأميرة وهى مصنوعة من الذهب الخالص والذهب المرصع بالعقيق الأحمر واللازورد والفيانس الأخضر . . وحزام للأميرة مصنوع من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة . . وزوج من الخلاخيل . . وقلادتين من الذهب المرصع . . وسوار للمعصم يتألف من سبعة وثلاثين صفاً من خرزات العقيق والفيروز لضمت فى خيوط وينتهى كل طرف من طرفيه بمشبك من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة .

● وبالاضافة إلى تلك التحف الثمينة من الحلى والمجوهرات ، عثر العالمان « ج . برنتون وفلندرز بترى » ـ أثناء ازاحة الأتربة والرديم التى كانت تملأ حجرة الدفن بهرم سنوسرت الثانى بمنطقة اللاهون ـ على قطعة من المجوهرات على شكل « حية الكوبرا » التى كانت تزين التاج الملكى ، وهى مصنوعة من الذهب المرصع بالجواهر . ويبدو أن هذه القطعة النادرة قد أفلتت من اللصوص القدامى الذين اقتحموا حجرة الدفن بهذا

الهرم واستولوا على ما كان فيها من كنوز نهبت كلها ولم يبق منها سوى هذه التحفة النادرة المحفوظة حالياً بالمتحف المصرى بالقاهرة .

● وبعد وفاة « سنوسرت الثانى » تولى الحكم إبنه « سنوسرت الثالث » الذى يعتبر من أقوى وأعظم وأشهر ملوك الأسرة الثانية عشرة . وقد ظلت شهرته قائمة ومنتشرة حتى بداية عصر الحضارة الإغريقية ، فكتب عنه « هيرودوت » والمؤرخون اليونانيون والرومان الذين أطلقوا عليه اسم « سيزوستريس » . ولشدة إعجاب هؤلاء المؤرخين القدامى به ، وقعوا فى خطأ غير مقصود ، إذ خلطوا بين أعماله وأخبار حروبه وبين أعمال وأخبار حروب « رمسيس الثانى » بالرغم من البعد الزمنى الذى يفصل بين عهدى هذين الملكين العظيمين ، فمن المعروف تاريخيا أن رمسيس الثانى ينتمى إلى الأسرة التاسعة عشرة .

● تولى « سنوسرت الثالث » عرش مصر واستمر حكمه نحو ٣٨ سنة . ويعتبره المؤرخون القدامى والمحدثون واحداً من أكبر الفراعنة المحاربين الذين قاموا بحملات عسكرية وخاضوا حروباً طاحنة دفاعاً عن الأراضى المصرية وحدودها الجنوبية والشمالية . . فعندما تولى هذا الملك حكم مصر ، كانت البلاد تجنى ثمار الاصلاحات الزراعية والصناعية والتجارية التى حققها أسلافه من ملوك الأسرة الثانية عشرة والتى جعلت مصر تتمتع برخاء عظيم لم تشهده البلاد من قبل .

● ومن الحقائق التاريخية الغريبة ان مصر عندما تنهض زراعياً أو صناعياً ، وعندما يعم الرخاء الاقتصدى فى أرجائها ، وعندما يبدأ شعبها فى التمتع بالخيرات التى صنعوها أو كافحوا من أجلها ، تصبح مطمعاً للشعوب المجاورة لها ، بل وللشعوب البعيدة عنها . . فتبدأ هذه الشعوب فى التسلل إلى الأراضى المصرية بقصد الاستيطان فيها ، أو من أجل القيام بالسرقة والخطف وممارسة أعمال السلب والنهب . وهذا هو السبب المباشر الذى كان يدفع الأقوياء من الملوك والحكام المصريين إلى تكون الجيوش القوية للدفاع عن الأراضى المصرية أو لتأديب تلك الشعوب الطامعة المعتدية .

● وفى عهد « سنوسرت الثالث » حدثت قلاقل واضطرابات فى بلاد النوبة ، وقامت بعض قبائل النوبة العليا بتحريض قبائل النوبة السفلى وحثها على الهجوم على

جنوب مصر . ولهذا فقد أمر الملك بتكوين جيش قوى قاده بنفسه استعدادا للهجوم والتأديب ووضع الأمور فى نصابها . وكان هذا الجيش يعتمد أساساً على أسطول عظيم من السفن النيلية المخصصة لنقل الجنود ونقل المعدات والامدادات الحربية من غذاء وسلاح .

● غير أن استمرار إبحار هذا الأسطول كان يتوقف عند الشلال [أو الجندل] الأول الذى تتسبب صخوره فى قطع المواصلات واستحالة عبور السفن . وقد ذكرنا من قبل أن ملوك الأسرة السادسة ـ قبل عهد سنوسرت الثالث بحو ٦٠٠ سنة ـ واجهوا هذه المشكلة وتغلبوا عليها بفكرة فذة هى تحويل مجرى النيل فى منطقة الشلال الأول ، حيث قاموا بحفر عدة قنوات تتجنب صخور الشلال وتلتف حولها . إلا أن هذه القنوات لم تكن صالحة للملاحة فى عهد سنوسرت الثالث ، فقد ردمت بفعل الرمال وما ترسب فيها من طمى النيل . لذلك فقد أمر « سنوسرت الثالث » بحفر قناة جديدة تبحر فيها سفن أسطوله دون عناء . ولم يكن حفر هذه القناة عملاً سهلاً ميسوراً ، فقد حفرت فى أصلب أنواع الصخور الجرانيتية ، ووضع مهندسو الملك خطة لتطهيرها دائماً لتظل صالحة للملاحة ولعبور السفن طوال السنة . وقد سميت هذه القناة باسم « أجمل طرق الملك سنوسرت الثالث » .

● وتكاملت الأعمال والاستعدادات الحربية بأن أمر الملك ببناء قلعة حربية حصينة فى جزيرة إلفنتين ، وبناء قلعتين حصينتين أخريين فى منطقة « سمنة » ومنطقة « قمة » بداخل بلاد النوبة . وكان من أهم نتائج تلك الحملة العسكرية الناجحة ضم بلاد النوبة نهائياً إلى مصر . ووضع الملك مجموعة من القواعد السياسية للتعامل مع أهالى النوبة العليا ، تقضى بعدم السماح لهم بالعبور شمالاً ودخول الأراضى المصرية إلا إذا جاءوا بقصد التجارة استيراداً أو تصديراً . . وأمر بإقامة نصب تذكارى فى منطقة حدود مصر الجنوبية يقول فيه : « لقد جعلت حدود بلادى أبعد مما وصل إليه أجدادى . . وأنا أقول وأنفذ ما أقول . . وما يختلج فى صدرى تنفذه يدى . . ولست بالرجل الذى يرضى بالتقاعس عندما تتعرض بلادى للعدوان . . فأنا أهاجم من يهاجمنى

وأقضى عليه . . . . » .

● أما بالنسبة للحدود الشمالية لمصر ، فقد قضى سنوسرت الثالث نهائياً على تسلل الآسيويين والبدو إلى مناطق الدلتا . وتدل الشواهد التاريخية على قيام الملك بالاشترك مع القائد المصرى « سبك خو » فى قيادة حملة عسكرية لتأديب بدو الصحارى وإبعادهم وتهديدهم بأقسى أنواع العقاب إذا اقتربوا من الحدود المصرية .

● وفى عهد سنوسرت الثالث ازدهرت تجارة مصر الخارجية مع البلاد الأجنبية فى افريقيا وآسيا وجنوب أوروبا . . وحفرت قناة تصل بين أقصى فروع النيل الشرقية وخليج السويس بالبحر الأحمر . وامتلأت البلاد بالخيرات المحلية والأجنبية . . ولكثرة الذهب أصبح أرخص من الفضة . . وكتب الشعراء فى عهده قصائد طويلة فى مدحه وتمجيده .

● وعثر فى منطقة اللاهون بالقرب من الفيوم على بردية تشتمل على ست قصائد شعرية كتبت فى مدح وتمجيد « سنوسرت الثالث » تقول إحداها فى وصف هذا الملك العظيم : « إنه يحمى الأرض ويمد حدودها . . وهو الذى يقهر البلاد الأجنبية ويمسكها بقبضته . . ويقضى على الأعداء قبل أن تطأ أقدامهم أرض بلاده . . وهو الذى يضم الأرضين [مصر] بين ذراعيه . . وهو الذى يجعل البدو يفرون ويولون الأدبار . . ويجعل شعبه ينام فى أمان حتى الصباح . . . . » .

● ومعنى ذلك أن « سنوسرت الثالث » ترك البلاد بعد موته لوريثه « أمنمحعت الثالث » وهى فى حالة من الأمن والأمان ساعدت على صنع الرخاء ، وجعلت الملك الجديد يتفرغ تماماً للقيام بالمشروعات الاقتصادية والحضارية الكبرى التى توفر الخيرات للشعب المصرى فى طول البلاد وعرضها . وكان على رأس تلك المشروعات تطوير نظم الرى فى مصر الوسطى والفيوم والوجه البحرى . خصوصاً منطقة الفيوم التى كانت محل اهتمام وعناية عظيمة من هذا الملك العظيم .

● ومنذ أن تولى « **أمنمحعت الثالث** » عرش مصر عام ١٨٤٩ ق م وهو يعتمد على الهندسة والمهندسين المصريين فى إنشاء المشروعات الجديدة أو تطوير المشروعات

القائمة . وكان أكبر هذه المشروعات كيفية الاستفادة من منخفض الفيوم . وانتهى الأمر بانشاء خزان ضخم لادخار مياه الفيضان خلال الخريف لتستعمل بعد انحسار الفيضان فتخرج منه المياه فى موسم التحاريق . واقتضى تنظيم دخول وخروج المياه إلى هذا الخزان حفر وتعميق ترعة [اسمها الآن بحر يوسف] وهى التى كانت تحمل مياه الفيضان إلى الخزان بدءاً من شمال أسيوط عند ديروط . وقد أقيم هذا الخزان فى منطقة اللاهون ، وأدى إلى زيادة الرقعة الزراعية فى أقليم الفيوم بنحو ٢٧ ألف فدان زرعت بالحقول الغنية بالحبوب والفواكه والخضراوات ، كما أدى أيضا إلى توفير الرى لمناطق واسعة بالوجه البحرى .

● وقد وقع المؤرخون القدامى ـ ومنهم هيرودوت ـ فى خطأ حيث ذكروا فى مدوناتهم ان « أمنمحعت الثالث » هو الذى أمر بحفر « بحيرة قارون» وكانوا يسمونها « بحر موريس» . . فى حين أن من المعروف علمياً وجيولوجيا أن منخفض الفيوم نتج عن انفصال فى طبقات الأرض ، وأن البحيرة تكونت فى جزء من هذا المنخفض كانت تملؤه مياه الفيضان منذ عصور ما قبل التاريخ . وكان قدماء المصريين يسمونها « حنو ـ مر ـ ور » أى بحيرة « مر ـ ور » وهوالاسم الذى حرفه الاغريق القدامى إلى «موريس » . وتدل الشواهد التاريخية على أن قدماء المصريين منذ عصر الأسرة الخامسة حاولوا تجفيف جزء من هذه البحيرة بقصد زيادة الرقعة الزراعية فى تلك المنطقة ، كما أدى ترسيب طمى النيل على ضفاف البحيرة إلى تقليص مساحتها وزيادة مساحة الأرض الخصبة الصالحة للزراعة .

● واستكمالاً للنهضة الزراعية التى حدثت فى عهد « أمنمحعت الثالث » أمر الملك بانشاء عدة مقاييس على طول مجرى النيل بدءاً من بلاد النوبة ، ووضع نظاماً للإبلاغ بمناسيب المياه فور قياسها . وعلى أساس هذه المناسيب ـ ارتفاعاً أو انخفاضاً ـ كان المهندسون يقدرون كميات الحبوب والزراعات التى يمكن انتاجها فى كل موسم . وعلى هذا الأساس أيضا يقوم موظفو الإدارة المالية المركزية بتحديد نسب الضرائب والرسوم التى تفرضها الدولة على ذوى الأملاك الزراعية .

● وإلى جانب هذه النهضة الزراعية أمر الملك بتطوير عمليات التعدين والبحث

رأس تمثال للملك أمنمحعت الثالث

عن مناجم جديدة خصوصاً فى شبه جزيرة سيناء ، فأرسلت فى عهده « ٢٤ » بعثة تعدينية . وأقيمت لأول مرة بيوت ثابتة ـ بدلاً من المساكن المؤقتة ـ لإقامة العمال ورؤساء البعثات والجنود ومن كان فى صحبتهم من عائلات . وتم حفر المزيد من الآبار وإنشاء المزيد من خزانات المياه اللازمة للشرب . كما أنشئت العديد من القلاع العسكرية لصد هجمات البدو الذين كانوا يغيرون على بعثات التعدين لممارسة السلب والنهب .

● أما أهم وأضخم الآثار التى شيدها هذا الملك فهو المعبد الجنائزى للهرم الذى بناه فى منطقة الفيوم . وقد أطلق المؤرخون القدماء من الإغريق والرومان على هذا المعبد اسم « قصر اللابرنت » وذلك تشبهاً بقصر أسطورى يحمل هذا الاسم كان موجوداً فى جزيرة كريت ورد ذكره فى الأساطير الإغريقية موصوفاً بتشعب طرقه وممراته وكثرة حجراته . ويبلغ طول قصر اللابرنت المصرى ٣٠٠ متر وعرضه ٢٥٠ متراً . وكان يتألف من بنايات متداخلة تمثل جميع مقاطعات وأقاليم الديار المصرية ، ويتكون من أكثر من ٣٥٠٠ حجرة وقاعة . وقال عنه هيرودوت إنه بناء يتفوق على بناء الهرم الأكبر. ووصفه « استرابون » بأنه عمل يضارع الأهرام ولا يمكن للأجنبى أن يدخل إلى حجراته وقاعاته أو يخرج منها دون دليل يرشده . أما المؤرخ الرومانى« بللينى » فقد قال إن الانسان يعجز عن وصف هذا القصر عظيم الحجم والمساحة ووصف مكوناته من قاعات وتماثيل وأعمدة كبرى .

● وللأسف الشديد ظل هذا القصر مغموراً فى الإهمال إلى أن اكتشفه عالم المصريات « سير فلندرز بترى » عام ١٨٨٩ م ، فلم يجد سوى أكوام من الأحجار والرديم وأساسات بعض الحجرات وأجزاء من تماثيل الآلهة والملوك . . فعلى مدى التاريخ استعمله الأهالى كمحجر لبناء مساكنهم واستخدمت بقية أحجاره فى بناء خط حديد الفيوم خلال القرن التاسع عشر .

أول إعلان للعدالة الاجتماعية .. وحقوق الانسان

تميز نظام الحكم في عصر الدولة الوسطى ، وخصوصاً في عصر ملوك الأسرة الثانية عشرة بتحقيق قدر عظيم من أسس ومبادىء العدالة الاجتماعية لم تشهده مصر القديمة في العصور التاريخية التي سبقت عصر هذه الأسرة ، بمثل هذا القدر من الوضوح ، وبكل الشواهد والنصوص الأثرية التي تثبت وجود وتطبيق مبادىء هذه العدالة .

● وقد ذكرنا فيما سبق بعضاً من أحوال الظلم الذي تعرض له المصريون القدماء بعد انهيار الدولة القديمة في نهاية عصر الأسرة السادسة ودخول مصر إلى عصر مظلم أطلق عليه المؤرخون اسم « عصر الاضمحلال الأول » حيث أصبح الشعب لا يأمن على عيشه ، ويتعرض إلى كل مساوىء نظام قائم على « البلطجة » يأكل فيه القوى حق الضعيف ، ويسود فيه المجرمون الذين يرفعون السلاح ليغتصبوا ما لدى الآخرين من أموال وأعراض . وفي ذلك العصر البغيض ، تفككت أوصال الدولة الموحدة ، وأصبحت مجزأة في شكل أقاليم متنافرة متناحرة ، على رأس كل إقليم منها حاكم يحاول أن يصبح ملكاً ، ويتصور أن الحكم هو الاستعلاء والتجبر وفرض الظلم والطغيان على رؤوس العباد . . فانسحقت بالتالي طبقة الفقراء من الفلاحين والصناع وأصحاب الحرف وسائر أفراد المجتمع المصري ، عدا أسرات هؤلاء الحكام وكل من كان في بطانتهم من أصحاب الثروات المغتصبة والجنود والحراس المدججين بسلاح القهر .

● ومع ذلك فقد كانت تلك المظالم التي سادت في طول البلاد وعرضها ، وحالة الضنك والضيق بالحياة التي كادت أن تكتم أنفاس الناس ، من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى نوع من « الفوران » بين سائر طبقات الفقراء وصفه بعض المؤرخين بأنه أول ثورة

شعبية فى تاريخ الإنسان على الأرض . ولكنها لم تكن ثورة سياسية منظمة طبقا لمعايير ومفاهيم الثورات الشعبية فى عصرنا الحاضر ، بل كانت « هبّةً » فوضوية أتت على الأخضر واليابس ، فازدادت الأحوال سوءاً ، وتهيأت الفرصة للشعوب الأجنبية المحيطة بمصر أن تتسلل إلى البلاد لتمارس أعمال السلب والنهب ومحاولة السيطرة على مقاليد الأمور .

● غير أن مصر « الولّادة » دائماً أنبتت فى تربتها الحضارية الخصبة بعضاً من أبنائها الأدباء والحكماء الذين لم يهن عليهم أن يروا بلادهم وقد وصلت إلى تلك الأحوال السيئة ، فأخذوا يسجلون أحلامهم بأن يوماً ما سيأتى حتما تعود فيه مصر إلى وحدتها وقوتها وعظمتها ورخائها ، ويظهر حاكم عادل يوفر الأمن والطمأنينة لكل الناس ، يساعده فى تحقيق العدل موظفون أمناء من ذوى الضمائر الحية . وفى هذا العصر المنتظر ستتم المساواة بين كل أبناء الشعب ، لا فرق بين غنى وفقير ، أو بين شخص عادى وآخر إلى عائلة الملك أو عائلات النبلاء .

● ولهذا لم يكن غريباً أن يحرص كل ملوك الأسرة الثانية عشرة على تحقيق العدالة الاجتماعية للشعب قبل أى شىء آخر . ولحسن الحظ فقد تم العثور على عدة نسخ من «خطاب العرش » الذى كان يلقيه الملك عندما يقوم بتعيين « الوزير » الجديد الذى يفوضه الملك فى إدارة شئون البلاد . وبالرغم من أن تلك النسخ تعود إلى عصر الدولة الحديثة ، إلا أن بعض المؤرخين يقولون إن أصول ومبادىء هذا الخطاب تعود إلى عصر الدولة الوسطى وإلى عصر ملوك الأسرة الثانية عشرة على وجه التحديد .

● يقول الملك لوزيره الجديد : « كن يقظا عند قيامك بكل مهام الوزارة . . فليست الوزارة حلوة المذاق بل هى مرة ومتعبة . . واعلم انه عندما يأتى إليك سائل متظلم سواء من الوجه القبلى أو الوجه البحرى أو من أية بقعة من الدولة ، فعليك أن تطمئنه إلى أن معاملته ستكون طبقا للقوانين العادلة وحسب العرف الذى يعطى كل ذى حق حقه . . واعلم ان الماء والهواء يخبران بكل شىء تفعله ولا يبقى أى شىء مجهولاً . . فعامل من تعرفه معاملة من لا تعرفه . . واجعل نفسك مهيب الجانب . . والخوف من الوزير يأتى من إقامته للعدل . . واعلم أن الإله خلق الرياح الأربعة ليتنفس بها

الإنسان مثل أخيه الإنسان مدة حياته . . وخلق المياه العظيمة ليستعملها الفقير مثل السيد . . وليس هناك فضل لمستكبر على مستضعف » .

● وإذا أمعنا النظر فى هذه المبادىء الخلقية الرفيعة التى تحقق العدالة الاجتماعية كمسئولية يفرضها الملك وهو القائد الأعلى لسياسة الدولة على ضمير من يتولى منصب الوزارة ، وهو أعلى مناصب الدولة ، ليقوم هذا الوزير بتنفيذ هذه الوصايا الملكية مستعيناً بكبار الموظفين فى الحكومة المركزية وفى كافة الأقاليم المصرية ، فإننا نستنتج من ذلك أن الوزير نفسه كان يملى تعليمات مماثلة على هؤلاء الموظفين ليعاملوا الناس طبقا لوصايا الملك وبالمساواة المطلقة أمام القانون .

● وقام بعض المؤرخين بمقارنة هذا الدستور الأخلاقى المصرى المؤسس على العدالة الاجتماعية والمساواة بين جميع الناس ، بقانون « حامورابى » الذى صدر فى مملكة بابل والذى يرجع تاريخه إلى عصر قريب من عصر الدولة الوسطى فى مصر . . فهذا القانون الأخير يفرق بين الناس حسب طبقتهم الاجتماعية ، ويفرق بين العقاب على الجرائم التى يرتكبها النبلاء وأبناء الطبقة العليا فى المجتمع البابلى ، والجرائم المماثلة التى يرتكبها أبناء الشعب العاديين .

حين طالب الشعب المصرى القديم
بحقه فى المساواة والعدالة الاجتماعية

لم تكن مبادىء العدالة الاجتماعية التى تحققت فى عصر الدولة الوسطى نبتاً شيطانياً خرج من التربة المصرية فجأة ليستظل المصريون بظله دون فرق بين غنى وفقير ، أو بين مستكبر ومستضعف ، فالكل أمام القانون سواء . لقد كانت هناك إرهاصات سابقة على عصر الدولة الوسطى أدت إلى فرض هذه العدالة فرضاً على نظام الحكم . كانت هناك تلك الثورة الفوضوية العارمة التى خَرّبت البلاد كما خربت نفوس العباد . ومع ذلك فلم تكن هذه الثورة شراً مطلقاً ، بل هى التى أوحت إلى أدباء مصر وحكمائها بأن ينسجوا قصصاً أو أعمالاً أدبية ذات مضامين هادفة ، وأن يبدعوا حكماً فلسفية تتضمن مثلاً عليا فى السياسة والقانون والأخلاق .

● لقد طالب المصريون القدماء فى ذلك العصر بإعلاء قيمة الفرد العادى من أبناء الشعب ، وأن يكون له الحق فى أن يعيش فى حياته الدنيا كريماً غير مسلوب ولا مقهور، وأن يعيش أيضا فى الحياة الأخرى ليحاسب على عمله ـ خيراً أو شراً ـ مثله فى ذلك مثل الملوك والنبلاء الذين كانوا يبنون لأنفسهم الأهرام والمصاطب والمقابر البديعة الضخمة . . وشجع الحكماء الناس على المطالبة بكل حقوقهم بطريقة شجاعة لا خنوع فيها من المحكومين للحكام . . ونادوا بأن كل إنسان مهما علا قدره سيحاسب أمام الآلهة على ما جنت يداه . . ونصحوا الحكام بألا يظلموا أحداً مهما تواضع شأنه ، وأن يسهروا على راحة الرعية وتوفير الخير للجميع .

● ومثلما يحدث فى كل مكان وكل زمان ، كان بعض كبار الموظفين المنوط بهم تنفيذ القوانين وأوامر الحكام والتعامل المباشر مع الناس ، غير أمناء فى القيام بوظائفهم ، ولا يباشرون مهامهم طبقا لما يمليه عليهم الضمير من مبادىء العدالة والمساواة . وكما يقول

أحد الحكماء إن الموظف غير الأمين كان يقول لنفسه : « لماذا لا أصبح غنياً مثل الآخرين ؟ . . وماذا تفيدنى الاستقامة دون أن أحصل على المال من القادرين على الدفع ؟ ».

● ويقول الحكيم « خيتى » وهو ينصح ابنه ، وهو فى حقيقة الأمر ينصح كل من يباشر شئون الناس : « إن الرجل القنوع الذى لا يحتاج إلى شىء حرام يكون فى مأمن من أن يشتريه صاحب المال . . ولن يحابى أحداً ضد أحد دون حق . . ولن يتكلم إلا حسب ما يعتقده صحيحاً لا شر فيه ولا التواء » . ثم يستطرد فى النصيحة ويقول : «أقم العدل فى الأرض حتى يرضى عنك رب العدل . ولا تهزأ بالرجل الضعيف إذا كان صاحب حق . . وادرس كل ما يقوله المتخاصمون وأصحاب المصالح حتى يتبين لك الخطأ من الصواب . . ولا تضطهد يتيماً أو أرملة . . ولا تحرم رجلاً من متاع والده » .

● أما قصة « الفلاح الفصيح » التى يرجع تاريخها قبيل عصر الدولة الوسطى بسنوات قليلة ، فقد وضعت بين سطورها أوضح المبادىء لتقنين العلاقة بين الحاكم والمحكوم . ولا يتسع المجال هنا لأن نشير إلى درامية وموضوع القصة نفسها ، وإنما نشير إلى ما استخلصه بعض المحللين والمؤرخين من الأهداف السياسية والاجتماعية النبيلة التى تضمنتها وقائع تلك القصة والخطب التسع الذكية التى ألقاها الفلاح الفصيح بطل القصة وهو يعرض شكواه شارحاً فيها ما يجب أن يتحلى به كل من يحكم بين الناس بالعدل . وتتلخص الصفات الضرورية الواجبة على كل حاكم فى : « أن يكون خالياً من الشراهة والطمع . . شريفاً بعيداً عن الدنايا . . مهلكاً للكذب مشجعاً للصدق والعدل . . يلبى نداء المستغيث . . وأن يقف ضد المغتصب . . ويكبح جماح اللصوص والمرتشين وأصحاب الدعاوى الكاذبة . . وأن يقضى بالحق دون أن ينحاز إلى جانب . . ولا يتحزَّب لشخص ضد آخر أو لجماعة ضد أخرى . . وأن تكون مهمته المحافظة على حرمة القانون » .

● وأمام هذا المشعل الحضارى الساطع الذى رفعه فلاحنا الفصيح منذ آلاف السنين ليضىء أمام البشرية سبيل الدساتير العادلة التى تحدد ما يجب أن تكون عليه

علاقة الحكام بالمحكومين . . لا نملك سوى أن نقول بكل فخر وتقدير : يا له من فلاح عظيم !

الحنين إلى الوطن .. فى الأدب المصرى القديم

كتب الأديب المصرى القديم أول عمل أدبى فى تاريخ الأدب العالمى يعبر عن فكرة « الحنين إلى الوطن » . ومن الثابت علمياً وعملياً أن الشعب المصرى فى جميع عصوره التاريخية القديمة والحديثة يتميز بميزة انفرد بها بين شعوب العالم أجمع ، فهو لا يطيق البعد عن وطنه ولا مكونات هذا الوطن من ناس وزروع وعمار ونيل يجرى بماء الحياة . ومهما طالت به الغربة فى بلاد الأغراب ، فإن قلبه ينبض بالحنين إلى الوطن فى كل نبضة ، وكل دقة من دقات هذا القلب الملهوف المشتاق إلى العودة لبلده ليتنسم هواءه وليشرب من مائه وليرى أهله وأحبابه . وهى ظاهرة شخصها أطباء علم النفس بأنها «مرض الحنين إلى الوطن» HOME SICKNESS .

● ومن أبدع ما كتب فى أدب الحنين إلى الوطن قصة « سنوحى » التى يرجع تاريخها إلى عصر الدولة الوسطى فى بداية عصر الأسرة الثانية عشرة . وقد اعتبرت هذه القصة من أحب القصص الأدبية إلى قلوب المصريين القدماء . خصوصاً فى عصرى الدولتين الوسطى والحديثة ، حيث وصلت إلينا عدة نسخ كاملة أو جزئية مكتوبة على أوراق البردى أو على « الشقف » الحجرى أو الفخارى ، تبين أن المدرسين كانوا يملونها على تلاميذ المدارس فى مصر القديمة خلال هذين العصرين ، بسبب حلاوة أسلوبها وروعة أحداثها وسهولة تركيباتها اللغوية وما اجتمع فيها من عناصر القصة المثيرة الناجحة . وقد وصف عالم المصريات « سير آلان جاردنر » هذه القصة فى كتابه « تراث مصر » الصادر عام ١٩٤٣ بأنها جديرة بأن توضع بين روائع الآداب العالمية .

● وكلمة « سنوحى » كلمة مصرية قديمة معناها « ابن الجميزة » . فقد كانت شجرة الجميز تسمى « نوهى » أو «نوحى » وكلمة « سا » أو « سى » بمعنى ابن .

ولذلك فمن الممكن أن ينطق اسم بطل هذه القصة « سنوحى أو « سنوهى » فكلاهما صحيح .

● ومن الغريب أن سنوحى كان شخصية حقيقية عاش فى عهدى الملكين أمنمحعت الأول وسنوسرت الأول وهما من الملوك الأوائل فى الأسرة الثانية عشرة [١٩٩١ ـ ١٩٣٤ ق م] . وكانت قصة حياته وما تضمنته من أحداث ومغامرات شيقة موضع إعجاب معاصريه وإعجاب الأجيال التالية له . وقد وردت الصياغة الأدبية لهذه القصة بلسان المتكلم وهو سنوحى بطل هذه القصة حيث يحكى بأسلوب شيق جذاب كل ما صادفه من أحوال وأحداث منذ أن قرر خروجه من مصر إلى أن عاد إليها معززاً مكرماً . وهى حكاية طويلة لا يتسع المجال هنا لرواية تفاصيلها ، وسنقتصر على عرض موجز لكافة عناصرها وأحداثها .

● وتبدأ القصة عندما علم « سنوحى » بطريق المصادفة بخبر مقتل الملك أمنمحعت الأول . وكان سنوحى ضابطا يحارب آنذاك ضد بعض قبائل الليبيين التى كانت تغير على مصر وتهدد الحدود المصرية الغربية . وكان الجيش المصرى تحت قيادة أحد أبناء الملك وهو الأمير سنوسرت الذى تولى العرش بعد مصرع أبيه باسم سنوسرت الأول . ويقول سنوحى عندما سمع بخبر مصرع الملك : « هلع قلبى وتدلى منى الذراعان وأصابت القشعريرة كل أعضاء جسمى فأخذت أعدو لأجد مخبأ . . » ولا يذكر لنا سنوحى السبب فى خوفه وقراره الهرب من مصر لدى سماع هذا النبأ . وأغلب الظن أنه كان يخشى أن يزج باسمه فى الصراعات السياسية التى كان يتوقع نشوبها بين الأمراء من أبناء الملك ليتولى أحدهم الانفراد بالجلوس على عرش مصر .

● ويصف سنوحى قصة هروبه سيراً على الأقدام ليلاً ونهاراً وهو يعانى الجوع والعطش حتى وصل إلى حدود مصر الشرقية . ثم واصل سيره شمالاً حتى وصل إلى بلاد « رتنو » [فلسطين وسوريا ولبنان] وهناك استضافه أمير تلك البلاد بعد أن علم انه مصرى وعرف قدره ، فمنحه أراضٍ واسعة ذات أشجار وزروع وقطعان . . وتزوج من كبرى بنات الأمير وأنجب منها أبناء صاروا شبابا وعاش هناك حياة حافلة بالنبل

والشجاعة والاحترام ، ولكنه لم ينسى مصر فى يقظته أو منامه ، وكان يتمنى أن يعود إليها بعد أن يصفح عنه الملك سنوسرت الأول . وعندما تقدم به العمر كتب إلى الملك يستسمحه فى العودة إلى مصر ليدفن فى ترابها . وكتب إليه الملك مرحباً به لأنه لم يرتكب ذنباً يؤخذ عليه ، وأخبره الملك بأنه هو الذى نفى نفسه بنفسه .

● ويختتم سنوحى قصته بوصف ما حدث له عندما عاد إلى مصر وقابل الملك والملكة وأبناءهما من الأمراء والأميرات . ويقول سنوحى فى ذلك « لقد أعدوا لى حماماً وعطرونى بالعطور الفاخرة وألبسونى أحسن الثياب . . وهأنذا أعيش فى وطنى هانئاً بأفضال الملك حتى يحين يوم وفاتى . . . » .

قصة الملاّح وجزيرة العجائب .. وأثرها فى الآداب العالمية

إذا كانت قصة سنوحى التى يرجع تاريخها إلى عصر الأسرة الثانية عشرة أول قصة فى تاريخ الآداب العالمية يتناول موضوعها فكرة « الحنين إلى الوطن » ، فإن قصة « الملاح وجزيرة العجائب » التى يرجع تاريخها إلى نفس العصر ، تعتبر هى الأخرى أول قصة أدبية يتناول موضوعها مغامرة من « الخيال العلمى » الذى اتسمت به بعض القصص والروايات فى الأدب العالمى الحديث .

● ويتلخص موضوع قصة « الملاح وجزيرة العجائب » وتسمى أيضا قصة « الملاح الغريق » فى أن عهد الملك أمنمحعت ـ وهو ملك من ملوك الأسرة الثانية عشرة ـ كان يتميز برخاء لم تشهده البلاد من قبل ، وازدهرت تجارة مصر الخارجية مع الدول البعيدة فى جنوب البحر الأحمر . وتحكى لنا القصة حكاية سفينة مصرية عظيمة كان طولها مائة وخمسين ذراعاً ، ولها مائة وخمسون مجدافا ، ويعمل عليها رجال ذوو خبرة بالسماء والماء والأرض ، ولهم قلوب أقوى من قلوب الأسود . وكانت هذه السفينة مبحرة فى المحيط العظيم بعد أن خرجت من جنوب البحر الأحمر . وهناك فى إحدى الليالى المظلمة هبت عليها رياح عاصفة أخذت تدفع السفينة بقوة نحو أرض مجهولة ، وارتطمت السفينة بصخور الشاطىء ذات الحواف المدببة فتحطمت وتناثرت أجزاؤها واختفى كل الرجال الذين كانوا يعملون عليها وابتعلتهم أمواج عاتية يصل ارتفاعها إلى أكثر من ثمانية أذرع .

● ولكن ملاحاً واحداً كان حسن الحظ استطاع أن ينجو من الغرق وسبح فوق الأمواج الصاخبة حتى وصل إلى رمال الشاطىء فارتمى عليها حتى الصباح ، فوجد نفسه وحيداً على أرض جزيرة صغيرة ليس فيها إنسان سواه . وعندما قرصه الجوع وجد

طعاماً وفيراً من التين والأعناب والحبوب والتوت ، كما لاحظ وجود أنواع لا حصر لها من الأسماك والطيور التى يمكن اصطيادها بأسهل الطرق . وفجأة سمع صوتا هائلا هادراً كالرعد ، وامتلأ قلبه بالرعب حين وجد ثعباناً ضخماً حمله بين فكيه إلى أن وصل إلى الكهف الذى يعيش فيه . وبالرغم من أن أسنانه وأنيابه كانت طويلة وحادة إلا أنه لم يصب بأذى .

● واندهش الملاح حين قال له الثعبان بلغة مفهومة : « لا تخف أيها المخلوق الصغير وليطمئن قلبك . . إن نجاتك وحدك كانت بمشيئة الآلهة . . وسوف تظل هانئاً بخيرات هذه الجزيرة لمدة شهور أربعة . . وستصل إلى هنا سفينة مصرية ستعود بك سالماً إلى وطنك وأهلك . . وسوف أمنحك هدايا كثيرة من العطور الثمينة والأخشاب الغالية والعاج . . وهدايا أخرى مماثلة لتقدمها إلى الفرعون عند وصولك إلى مصر » .

● وبعد أن انقضت الشهور الأربعة وصلت سفينة مصرية إلى شاطىء الجزيرة فنقل إليها الملاح كل هذه الهدايا . . وعندما أراد البحارة أن ينزلوا إلى الشاطىء ليروا تلك الجزيرة ويشاهدوا عجائبها وغرائبها ، حدث شىء غريب . . فقد بدأت الجزيرة فى الابتعاد عن السفينة بسرعة رهيبة . . وحل ظلام الليل بطريقة فجائية وعجيبة . . ولم يعد هناك أى أثر للجزيرة سوى أمواج لا أول لها ولا آخر .

● ووصلت السفينة بسلام إلى أرض مصر . . واستأذن الملاح حراس القصر الملكى لكى يحكى تفاصيل قصته للفرعون . . واستمتع الفرعون بسماع قصة هذا الملاح وجزيرة العجائب التى عاش فيها بعد أن تحطمت سفينته . . وأمر الفرعون باحضار الكاتب الأول البلاط الملكى ليدون تلك الحكاية على لفافة من ورق البردى لعل أحد يقرأها فى يوم من الأيام .

● وبتحليل عناصر هذه القصة المصرية القديمة نجدها تدور حول ملاح عاش وحده فى جزيرة منعزلة ، وحصل على كنز ثمين ، ثم عاد إلى وطنه . وهذا المحور نفسه انتقل إلى عديد من الأعمال الأدبية العالمية الحديثة التى أبدعها أدباء عالميون مشهورون من جنسيات مختلفة . . مثل قصة « جزيرة الكنز » من تأليف الأديب الانجليزى

«روبرت لويس ستيفنسون » . . وقصة « الكونت دى مونت كريستو » من تأليف الأديب الفرنسى « ألكسندر دوماس » . . وقصة « روبنسون كروزو » من تأليف الأديب الانجليزى « دانييل ديفو » . . وقصة « الفضيلة ـ أو ـ بول وفرجينى » من تأليف الأديب الفرنسى « برناردين دى سان بيير » .

● وبطبيعة الحال هناك اختلافات تكنيكية عديدة فى كيفية تناول الموضوع فى كل من هذه الأعمال الأدبية العالمية ، ولكن المحور الرئيسى فى هذه الأعمال ، يدور دائما حول العثور على كنز فى جزيرة نائية ، أو الحياة فى جزيرة منعزلة ، وهو المحور نفسه الذى أبدعه المؤلف المصرى القديم المجهول فى قصة « الملاح وجزيرة العجائب » منذ نحو أربعة آلاف سنة .

المراجـــع

● أولاً : المراجع العربية :

١ ـ العمارة فى مصر القديمة	تأليف : د . محمد أنور شكرى	
٢ ـ حضارة مصر والشرق القديم	تأليف : الدكاترة : إبراهيم رزقانه محمد أنور شكرى ، عبد المنعم أبو بكر حسن محمود ، عبد النعيم حسنين	
٣ ـ الحضارة المصرية	تأليف جون ولسون	ترجمة : د أحمد فخرى
٤ ـ الماضى الحى	تأليف : إيفار ليسنر	ترجمة : شاكر إبراهيم سعيد
٥ ـ الرمز والأسطورة فى مصر القديمة	تأليف : رندل كلارك	ترجمة : أحمد صيلحة
٦ ـ تاريخ مصر القديمة [جزءان]	تأليف : د . رمضان السيد	
٧ ـ فن الرسم عند قدماء المصريين	تأليف : وليم بيك	ترجمة : مختار السويفى
٨ ـ تاريخ العمارة المصرية القديمة	تأليف : د . اسكندر بدوى	
٩ ـ هردوت يتحدث عن مصر	تأليف : هرودت	ترجمة : د . محمد صقر خفاجة
١٠ ـ نمو الحضارة	تأليف : و . ج . برى	ترجمة : لويس اسكندر
١١ ـ علماء الآثار	تأليف : تشارلز مايكل دوربى	ترجمة : محمد عبد الفتاح ابراهيم
١٢ ـ فن التصوير المصرى القديم	تأليف : نينا ديفز	ترجمة : د . حسن صبحى بكرى ، وعبد الغنى الشال
١٣ ـ أهرام مصر	تأليف : إ . إ . س . إدواردز	ترجمة مصطفى عثمان
١٤ ـ أسرار الهرم الأكبر	تأليف : محمد العزب موسى	
١٥ ـ المواد والصناعات عند قدماء المصريين	تأليف : ألفريد لوكاس	ترجمة : د . زكى اسكندر ومحمد زكريا غنيم
١٦ ـ فى رحاب المعبود توت	تأليف : د سامى جبره	ترجمة : عبد العاطى جلال
١٧ ـ مصر الفراعنة	تأليف : سير ألن جاردنر	ترجمة : د . نجيب ميخائيل ابراهيم
١٨ ـ عندما حكمت مصر الشرق	تأليف : جورج شتايندورف ، وكيث سيل	ترجمة : محمد العزب موسى
١٩ ـ آثار الأقصر	تأليف : د . محمد عبد القادر محمد	
٢٠ ـ الآثار المصرية فى وادى النيل	تأليف : جيمس بايكى	ترجمة : لبيب حبشى ، وشفيق فريد

٢١ ـ وادى الملوك	تأليف : عزيز مرقص منصور	
٢٢ ـ الفن المصرى [جزءان]	تأليف : د . ثروت عكاشة .	
٢٣ ـ مصر فى عيون الغرباء [جزءان]	تأليف : د . ثروت عكاشة .	
٢٤ ـ مصر والنيل فى أربعة كتب عالمية	تأليف : مختار السويفى .	
٢٥ ـ المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية	تأليف : د . أحمد قدرى [بالانجليزية]	ترجمة : مختار السويفى ومحمد العزب موسى
٢٦ ـ نفرتيتى الجميلة التى حكمت مصر فى ظل ديانة التوحيد	تأليف : جوليا سامسون	ترجمة : مختار السويفى
٢٧ ـ سرقة ملك مصر	تأليف : محسن محمد	
٢٨ ـ مجوهرات الفراعنة	تأليف : سيريل ألدريد	ترجمة : مختار السويفى
٢٩ ـ المجمل فى تاريخ مصر	تأليف : د . ناصر الأنصارى	
٣٠ ـ على هامش التاريخ المصرى	تأليف : عبد القادر حمزة	
٣١ ـ الموسوعة الأثرية العالمية	تأليف : مجموعة من علماء الآثار الأجانب	ترجمة : محمد عبد القادر محمد ود . زكى اسكندر
٣٢ ـ تاريخ الحضارة المصرية [العصر الفرعونى]	تأليف : نخبة من المؤرخين وعلماء الآثار المصريين	
٣٣ ـ تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى	تأليف : جيمس هنرى برستيد	ترجمة : د . حسن كمال
٣٤ ـ فى موكب الشمس [جزءان]	تأليف : د . أحمد بدوى	
٣٥ ـ موسوعة الفراعنة	تأليف : باسكال فيرنوى ، وجان يويوت	ترجمة : د . محمود ماهر طه
٣٦ ـ الأدب الثورى عبر التاريخ	تأليف : محمد مفيد الشوباشى	
٣٧ ـ مصر القديمة [١٦ جزءاً]	تأليف : د . سليم حسن	
٣٨ ـ الأدب المصرى القديم [جزءان]	تأليف : د . سليم حسن	
٣٩ ـ معجم الحضارة المصرية القديمة	تأليف : مجموعة من المؤرخين وعلماء الآثار الأجانب	ترجمة : أمين سلامة
٤٠ ـ الحضارة المصرية	تأليف : سيريل ألدريد	ترجمة : مختار السويفى
٤١ ـ حتشبسوت : الملكة الفرعون	تأليف : سوزان راتييه	ترجمة : فاطمة عبد الله محمود مراجعة : د . محمود ماهر طه
٤٢ ـ رمسيس الثانى : فرعون المجد والانتصار	تأليف : كنت كتشن	ترجمة : د . أحمد زهير أمبين مراجعة : محمود ماهر طه
٤٣ ـ الفن المصرى القديم	تأليف : سيريل ألدريد	ترجمة : د . أحمد زهير أمين
٤٤ ـ إيمحوتب : إله الطب والهندسة	تأليف : ج . هارى	ترجمة : محمد العزب موسى
٤٥ ـ خطوات الإنسان الأول على أرض مصر	تأليف : عزت السعدنى	

٤٦ ـ المدخل إلى علم التاريخ	تأليف : د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ	
٤٧ ـ أعمال الحفر الأثرى	تأليف : ليونارد وولى	ترجمة : د . حسن الباشا
٤٨ ـ انتصار الحضارة	تأليف : جيمس هنرى برستيد	ترجمة : د . أحمد فخرى
٤٩ ـ مصر القديمة : دراسات فى التاريخ والآثار	تأليف : مختار السويفى	
٥٠ ـ الحياة اليومية فى مصر	تأليف : بيير مونتيه	ترجمة : عزيز مرقس منصور
٥١ ـ مرحلة التعليم العالى فى مصر القديمة	تأليف : سمير أديب	
٥٢ ـ الأسرة المصرية فى عصورها القديمة	تأليف : د . عبد العزيز صالح	
٥٣ ـ أبيدوس	تأليف : د . عبد الحميد زايد	
٥٤ـ آثار حضارة الفراعنة فى حياتنا الحالية	تأليف : تأليف : محرم كمال	
٥٥ ـ الطب المصرى القديم	تأليف : د . حسن كمال	
٥٦ ـ تاريخ الصيدلة والعقاقير	تأليف : الأب ج . شحاتة قنواتى	
٥٧ ـ التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة	تأليف : ليز مانكه	ترجمة : د . أحمد زهير أمين مراجعة : د . محمود ماهر طه
٥٨ ـ قدماء المصريين والاغريق	تأليف : جان فركرتيه	ترجمة : د . كمال الدسوقى ومحمد على كمال الدين مراجعة : د . محمد صقر خفاجة
٥٩ ـ فى المعرفة التاريخية	تأليف : أرنست كاسيرر	ترجمة : أحمد حمدى محمود مراجعة : على أدهم
٦٠ ـ العادات المصرية بين الأمس واليوم	تأليف : وليم نظير	
٦١ ـ فن النحت	تأليف : صبحى الشارونى	تقديم : د . ثروت عكاشة
٦٢ ـ المسرح المصرى القديم	تأليف : اتيين دريوتون	ترجمة : د . ثروت عكاشة مراجعة : د . عبد المنعم أبو بكر
٦٣ ـ الرقص المصرى القديم	تأليف : إيرينا لكسوفا	ترجمة : د . محمد جمال الدين مختار مراجعة : د . عبد المنعم أبو بكر
٦٤ ـ المرأة الفرعونية	تأليف : كريستيان نوبلكور	ترجمة : فاطمة عبد الله محمود مراجعة : د . محمود ماهر طه
٦٥ ـ فجر التاريخ	تأليف : ج . ل . مايرز	ترجمة : على عزت الأنصارى مراجعة : د . عبد العزيز كامل
٦٦ ـ دور المرأة فى المجتمع المصرى القديم	تأليف : د . عبد الحليم نور الدين	

٦٧ ـ الدور السياسى للملكات فى مصر القديمة	تأليف : د . محمد على سعد الله	تقديم : د . محمد جمال الدين مختار
٦٨ ـ أساطير فرعونية		ترجمة كمال الحناوى
٦٩ ـ أبو الهول	تأليف : د. سليم حسن [بالانجليزية]	ترجمة : جمال الدين سالم مراجعة : د . أحمد بدوى
٧٠ ـ الديانة المصرية القديمة	تأليف : ياروسلاف تشرنى	ترجمة : د . أحمد قدرى مراجعة : د . محمود ماهر طه
٧١ ـ معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية	تأليف : د . سيد توفيق	
٧٢ ـ الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	تأليف : أ . ج . سبنسر	ترجمة : أحمد صليحة
٧٣ ـ حديث الفنون	تأليف : أحمد شفيق زاهر وآخرين	
٧٤ ـ فى الأدب المصرى القديم	تأليف : د . أحمد عبد الحميد يوسف	
٧٥ ـ نهاية مدينة فرعونية	تأليف : الحسينى صالح	تقديم : د . ضياء أبو غازى
٧٦ ـ التاريخ والسير	تأليف : د . حسين فوزى النجار	
٧٧ ـ أساطير مصرية	تأليف : د . عبد المنعم أبو بكر	
٧٨ ـ الآلات الحجرية وعصور ما قبل التاريخ	تأليف : د . على على السكرى	
٧٩ ـ الثروة الحيوانية عند قدماء المصريين	تأليف : وليم نظير	
٨٠ ـ الأزياء فى مصر القديمة	تأليف : د . محمد جمال الدين مختار ومحمد عبد اللطيف الطنبولى	مراجعة : د . أحمد بدوى

● ثانياً المراجع الأجنبية :

81 - GREATPYRAMID
BY : PETER TOMPKINS .
82 - THE EGYPTIANS.
BY : CYRIL ALDRED.
83 - EGYPT TO THE END OF THE OLD KINGDOM.
BY : CYRIL ALDRED.
84 - THE EGYPT OF THE PHARAOHS - AT THE CAIRO MUSEUM.
BY : JEAN - FRANCOIS GOUT.
PREFACE BY JEANLECLANT. TRANSLATED BY ANTHONY ROBERTS
85 - IN THE SHADOW OF THE PYRAMIDS.
BY : JAROMIR MALEK.
86 - ANCIENT EGYPT .
BY : GEORGE HART .
87 - SUNRISE OF POWER .
BY : JOYCE MIL TON .
88 - EGYPT DRAWINGS .
BY : DAVID ROBERTS (1839) .
89 - VALLEY OF THE KINGS .
BY : JOHN ROMER .
90 - ATLAS OF ANCIENT EGYPT .
BY : JOHN BAINES & JAROMIR MALEK .
91 - THE TOMBS OF THE NOBLES ATLUXOR .
BY : LISE MANNICHE .
92 - WARRIOR PHARAOHS .
BY : P.H. NEWBY .
93 - DEATH IN ANCIENT EGYPT .
BY : A.J. SPENCER .
94 - ARCHAIC EGYPT .
BY : W . B. EMERY .
95 - THE ANCIENT EGYPTIANS .
BY : JILL KAMIL .

● **ثالثا: من مصادر الصور والأشكال الداخلية :**

٩٦ ـ متحف الأقصر للفن المصرى القديم [كتالوج] ـ أصدار : مركز البحوث الأمريكى بمصر ، والمعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية . ترجمة : عبد العزيز صادق .

٩٧ ـ الماضى يبعث حيا ـ تأليف : إدنا مجوير . ترجمة : إبراهيم زكى خورشيد .

٩٨ ـ مجلة « شل » [١١ عددا] .

٩٩ ـ المتحف المصرى ـ موجز فى وصف الآثار الهامة ـ إصدار ١٩٥٤ .

100 - EGYPT - 1900 : SHELL COMPANIES IN EGYPT .

101 - ART THROUGH THE AGES .

102 - EGYPT REVEALED - SCENES FROM NAPOLEON ' S DESCRIPTION DE L ' EGYPT

BY : ROBERT ANDERSON AND IBRAHIM FAWZY.

103 - THE SPLENDERS OF EGYPT .

BY : MICHAEL DAVISON .

104 - WONDERS OF TUTANKHAMUN.

BY : DAVID P. SIL VERMAN .

105 - UPPER EGYPT .

BY : DINO SASSI .

106 - DAS ALTE REICH - Ä GYPTEN IM ZEITAL TER DER PYRAMIDEN. [KATALOG].

107 - VALLEY OF THE KINGS [CATALOGUE] .

108 - DENDERAH - KARNAK - LUXOR [CATALOGUE] .

109 - EGYPT [CATALOGUE] .

BY : A.BBAS CHALABY .

● مراجع إضافية خاصة بالجزء الثانى :

١ ـ موسوعة مصر القديمة ـ ١٦ جزءاً — سليم حسن

٢ ـ الموسوعة العربية الميسرة — مجموعة من العلماء

٣ ـ موسوعة تاريخ الحضارة المصرية — مجموعة من العلماء

٤ ـ الموسوعة الثقافية — مجموعة من العلماء

٥ ـ تاريخ الصيدلة والعقاقير فى عهد القديم والعصر الحديث — الأب جورج شحاته قنواتى

٦ ـ هيرودوت يتحدث عن مصر — ترجمة : د . محمد صقر خفاجة

٧ ـ إيمحوتب إله الطب والهندسة — تأليف : جيميسون هارى — ترجمة : محمد العزب موسى

٨ ـ التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة — تأليف : ليز مانكه — ترجمة : د . أحمد زهير أمين

٩ ـ الطب المصرى القديم — تأليف : د . حسن كمال

١٠ ـ طب وسحر — تأليف : د . بول غليونجى

المؤلف

● وكيل الوزارة بقطاع النقل البحرى سابقا . من مواليد باب الشعرية بالقاهرة عام ١٩٣٣ . ليسانس فى القانون والاقتصاد ١٩٥٥ ، ودبلوم عال فى القانون البحرى ١٩٧٥ .

●محاضر فى الاقتصاد والعلوم البحرية والنقل الدولى فى مراكز التدريب والتنمية الادارية بمصر والدول العربية . وتعتبر مؤلفاته ومترجماته فى علوم النقل البحرى من الكتب الرائدة غير المسبوقة باللغة العربية .

● كتب العديد من سيناريوهات الأفلام الثقافية التسجيلية عن التاريخ المصرى القديم ، والآثار الاسلامية بمصر ، وأعلام العرب ، وقصص القرآن . . بالاضافة إلى العديد من البرامج الثقافية بالتليفزيون والإذاعة المصرية وهيئة الاذاعة البريطانية بلندن .

● نشرت له عشرات من القصص القصيرة المؤلفة والمترجمة منذ الخمسينيات وحتى الآن فى مجلات : روزاليوسف وصباح الخير ونصف الدنيا والكاتب والقوات المسلحة والاذاعة والتليفزيون وكتب للجميع ومجلة حورس التى تصدرها مصر للطيران . . كما كتب عشرات المقالات المتخصصة فى مجلات الهلال والعربى والمسرح والقاهرة والثقافة والأوبرا وإدارة الأعمال ، وجرائد الأهالى والوفد والجمهورية والأخبار والأهرام .

● عضو اللجنة الدائمة بالمجلس الأعلى للآثار المصرية . . وعضو منتسب بالمجمع العلمى المصرى . . وعضو باتحاد الكتاب . . وعضو بالجمعية التاريخية المصرية . . ومستشار التحرير بالدار المصرية اللبنانية . . ورئيس تحرر سلسلة « روائع الأدب العالمى للناشئين » التى تصدرها هيئة الكتاب .

كتب للمؤلف

● فى الاقتصاد والعلوم البحرية :

١ ـ اقتصاديات النقل البحرى .

٢ ـ أساسيات النقل البحرى والتجارة الخارجية

٣ ـ المصطلحات الفنية البحرية .

٤ ـ المصطلحات التجارية الدولية .

٥ ـ دراسة تحليلية عن عقد البيع البحرى « فوب» [محاضرات] .

٦ ـ عمليات نقل البضائع على سفن الخطوط المنتظمة [محاضرات] .

٧ ـ عمليات نقل البضائع على السفن المستأجرة [محاضرات] .

٨ ـ عمليات الموانى وعمليات الشحن والتفريغ [محاضرات] .

٩ ـ سند الشحن « دراسة تحليلية »[محاضرات] .

١٠ ـ قطاع النقل البحرى فى مصر .

١١ ـ محاضرات فى البيوع البحرية .

١٢ ـ القانون البحرى « ترجمة » ـ تأليف : إيمانويل دفورسكى .

١٣ ـ تأجير السفن «ترجمة » ـ تأليف : بيرجر نوسوم

١٤ ـ انتاجية الرصيف « ترجمة » ـ تأليف : دى مونيه .

١٥ ـ الرقابة على الأعمال البحرية عن طريق الميزانية « ترجمة » تاليف : ج سيموندز.

١٦ ـ سفن الحاويات والموانى المعدة لاستقبالها « ترجمة » ـ تأليف : أ . إيفانس .

١٧ ـ مصطلحات التجارة الدولية والنقل البحرى وأنواع النقل الدولى الأخرى .

١٨ ـ حساب الوقت والعوامل المؤثرة فيه [فى عمليات شحن وتفريغ السفن]ـ تحت الطبع .

في الأدب والفن :

١٩ ـ ألوان من النشاط المسرحى فى العالم .

٢٠ ـ خيال الظل والعرائس فى العالم .

٢١ ـ الرقص والحضارة « دراسة تاريخية . فولكلورية . إثنولوجية » .

٢٢ ـ زرع النوى « رواية أدبية » .

٢٣ ـ مساخر من العاصمة والأقاليم « مجموعة قصصية » .

٢٤ ـ عذراء سرابيوم « مجموعة قصصية » ـ تحت الطبع .

٢٥ ـ الضحك بسبب « من الأدب الساخر » .

٢٦ ـ الضحك بالراحة « من الأدب الساخر » .

٢٧ ـ الضحك علينا « من الأدب الساخر » ـ تحت الطبع .

٢٨ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الأول .

٢٩ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الثانى .

٣٠ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الثالث .

٣١ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الرابع .

● روايات ومسرحيات مترجمة :

٣٢ ـ أوليفر تويست ـ تأليف : تشارلس ديكنز .

٣٣ ـ الآمال الكبرى ـ تأليف : تشارلس ديكنز .

٣٤ ـ ثورة على السفينة بونتى ـ تأليف : وليم بلاى .

٣٥ ـ توم سوير ـ تأليف : مارك توين .

٣٦ ـ مغامرات هكلبرى فين ـ تأليف : مارك توين .

٣٧ ـ رجال عظام ونساء عظيمات ـ تأليف : ليزلى ليفيت .

٣٨ ـ دافيد كوبر فيلد ، ـ تأليف : تشارلس ديكنز .

٣٩ ـ جزيرة الكنز ـ تأليف : روبرت لويس ستيفنسون .

٤٠ ـ دكتور جيكل ومستر هايد ـ تأليف : روبرت لويس ستيفنسون

٤١ ـ كنوز الملك سليمان ـ تأليف : سير هنرى رايدر هاجارد .

٤٢ ـ نجمة الصباح ـ تأليف : سير هنرى رايدر هاجارد .
٤٣ ـ مون فليت ـ تأليف : ميد فوكنر .
٤٤ ـ المفتش العام ـ تأليف : نيكولاى جوجول
٤٥ ـ روبنسون كروزو ـ تأليف : دانييل ديفو .

● **فى الآثار والتاريخ المصرى القديم :**

٤٦ ـ المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الإمبراطورية « مترجم » تأليف الدكتور أحمد قدرى [بالانجليزية] . مراجعة : الدكتور محمد جمال الدين مختار ـ نشرته هيئة الآثار المصرية .
٤٧ ـ فن الرسم عند قدماء المصريين « مترجم » تأليف : وليم بك . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى ـ نشرته هيئة الآثار المصرية .
٤٨ ـ مصر والنيل [فى أربعة كتب عالمية] ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .
٤٩ ـ مراكب خوفو [حقائق لا أكاذيب] ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .
٥٠ ـ الحضارة المصرية من عصور ماقبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة «مترجم» ـ تأليف : سيريل ألدريد . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .
٥١ ـ نفرتيتى : الجميلة التى حكمت مصر فى ظل ديانة التوحيد « مترجم » ـ تأليف : جوليا سامسون . مراجعة : الدكتور محمد جمال الدين مختار ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .
٥٢ ـ مجوهرات الفراعنة « مترجم » ـ تأليف : سيريل ألدريد . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى ـ نشرته الدار الشرقية .
٥٣ ـ صفحات من تاريخ الاسكندرية ـ تحت الطبع .
٥٤ ـ كليوباترا ـ تحت الطبع .
٥٥ ـ مصر القديمة ـ دراسات فى التاريخ والآثار
٥٦ ـ أم الحضارات ـ الجزء الأول .

الفهـرس

● تقديم : بقلم الدكتور زاهى حواس ٩
١ ـ أول من اعترفوا بأن للمرأة حقوقاً مقدسة ١٧
٢ ـ تقديس الأنوثة . . فى عصور ما قبل التاريخ ٢٠
٣ ـ ورفعوهن إلى مراتب الملكات ٢٣
٤ ـ ملكات شهيرات : «حتب حرس» . . أم الملك خوفو ٢٦
٥ ـ ملكات شهيرات : « إياح حتب » . . أم الملك أحمس ٢٩
٦ ـ ملكات شهيرات : « تى » . . أم أخناتون ٣٢
٧ ـ ملكات شهيرات : « حتشبسوت » . . درة النساء الشريفات . ٣٥
٨ ـ ملكات شهيرات : « نفرتيتى » . . ٣٨
٩ ـ المرأة المصرية القديمة . . حولت مصر من العصر الحجرى إلى عصر المعادن ٤١
١٠ ـ حق المساواة بين الرجل والمرأة فى مصر القديمة ٤٥
١١ ـ عذارى مصر القديمة . . وفترة الحب والخطبة ٤٨
١٢ ـ قائمة العفش . . واستعراض جهاز العروسة . . إبتكار مصرى قديم ٥١
١٣ ـ « نبت بر » . . معناها : « ست الدار » ٥٤
١٤ ـ الخيانة الزوجية . . جريمة عقوبتها الإعدام ٥٦

١٥ ـ جريمة الزنى . . كبيرة الكبائر	٥٩
١٦ ـ محاكمة الزانى والزانية	٦٢
١٧ ـ القوامة على النساء . . بالمحبة والرضاء	٦٥
١٨ ـ الطلاق . . وضمان حقوق المرأة	٦٨
١٩ ـ القواعد العرفية لتنظيم أحوال الطلاق	٧١
٢٠ ـ الأبناء . . بين زوجة الأب أو زوج الأم	٧٤
٢١ ـ نساء مصر القديمة . . وكيدهن العظيم	٧٧
٢٢ ـ كيد النساء . . فى بلاط الملوك	٨٠
٢٣ ـ مسلسل قتل الأزواج . . ولو كانوا ملوكا	٨٣
٢٤ ـ مؤامرة حريم . . ضد ملك عظيم	٨٦
٢٥ ـ المرأة المصرية القديمة . . وفنون الماكياج	٨٩
٢٦ ـ المرأة المصرية القديمة . . صاحبة أول مرآة فى العالم	٩٢
٢٧ ـ المرأة المصرية القديمة . . وأرقى موضات الأزياء	٩٥
٢٨ ـ أصول « الإتيكيت » . . والسلوكيات الأخلاقية والاجتماعية الطيبة	٩٩
٢٩ ـ مدخل إلى العلوم الطبية عند قدماء المصريين	١٠٢
٣٠ ـ أول كتاب فى علم التشريح فى تاريخ العالم	١٠٤
٣١ ـ طبيب مصرى عبقرى . . اسمه إيبمحوتب	١٠٦
٣٢ ـ إمنحوتب بن حابو . . من عباقرة الأطباء المصريين القدماء	١٠٩
٣٣ ـ أول من اكتشفوا العلاج بالإيحاء النفسى	١١٢
٣٤ ـ المراجع الطبية فى مكتبات المعابد	١١٦

٣٥ ـ مدارس تعليم الطب فى مصر القديمة . ١١٨
٣٦ ـ أقدم كتب تعليم الطب فى تاريخ العالم . ١٢١
٣٧ ـ مصر القديمة . . رائدة التخصص فى الطب . ١٢٤
٣٨ ـ أول من عرفوا علم التشريح . . ومكونات الهيكل العظمى لجسم الانسان ١٢٧
٣٩ ـ أقدم كتاب جراحة فى العالم . ١٣٠
٤٠ ـ أمراض الجهاز الهضمى . . فى الطب المصرى القديم . ١٣٢
٤١ ـ . . وأمراض القلب والجهاز الدموى . ١٣٥
٤٢ ـ العيون الصناعية . . وأمراض العيون الطبيعية . ١٣٨
٤٣ ـ . . وأمراض الجهاز البولى . ١٤١
٤٤ ـ . . والأمراض الجلدية . ١٤٤
٤٥ ـ . . والشَّلَل وأمراض الجهاز العصبى . ١٤٧
٤٦ ـ . . وأمراض النساء . ١٥٠
٤٧ ـ . . وأمراض الأطفال . ١٥٣
٤٨ ـ التخصص فى طب الأسنان . ١٥٦
٤٩ ـ جبر العظام . . علاج مصرى قديم ١٥٩
٥٠ ـ التحنيط . . معجزة قدماء المصريين . ١٦١
٥١ ـ الطب المصرى القديم . . كتب ومراجع . ١٦٤
٥٢ ـ الذين ابتدعوا الصيدلة . . وفن تركيب الدواء . ١٦٧
٥٣ ـ الصيدلة المصرية القديمة . . وأسس الصيدلة الحديثة . ١٧٠
٥٤ ـ طب الأعشاب . . فى مصر القديمة . ١٧٣
٥٥ ـ الطب المصرى القديم . . وصل إلى الصين . ١٧٤

٥٦ ـ بسم الله أرقيك . . والله يشفيك .	١٧٩
٥٧ ـ زيارة لمتحف التحنيط . . بمدينة الأقصر .	١٨٢
٥٨ ـ الدير البحرى . . وفاتنة الجبل المبتسمة	١٨٨
٥٩ ـ أرض الخيرات . . وجيرانها الجياع .	١٩٢
٦٠ ـ منذ البداية . . مصر تتسلح للدفاع عن أرضها .	١٩٦
٦١ ـ فى عصر الدولة القديمة : الجيش لحماية الصناعة والتعدين .	١٩٩
٦٢ ـ حين أخذ عدو مصر يشد شعره يأساً وأسى .	٢٠٢
٦٣ ـ أول حملة عسكرية برية بحرية فى تاريخ العالم .	٢٠٥
٦٤ ـ تحويل مجرى النيل . . وحملات استكشافية داخل أفريقيا .	٢٠٨
٦٥ ـ علاقات مصر القديمة بمناطق وسط أفريقيا .	٢١١
٦٦ ـ أول مصيبة كبرى . . فى مصر القديمة .	٢١٤
٦٧ ـ أحداث المصيبة الكبرى . . فى وثيقة أدبية .	٢١٧
٦٨ ـ أول جيش نظامى فى تاريخ العالم .	٢٢٠
٦٩ ـ أول الحصون الحربية . . فى تاريخ العالم	٢٢٣
٧٠ ـ مصر القديمة : أول من وضع الألقاب والرتب العسكرية .	٢٢٦
٧١ ـ « الشاب الجميل » . . لقب الجندى فى مصر القديمة .	٢٢٩
٧٢ ـ شرف الجندية . . فى مصر القديمة .	٢٣٢
٧٣ ـ أول دولة استخدمت الجنود المرتزقة .	٢٣٥
٧٤ ـ الجيش يوحد مصر مرة أخرى .	٢٣٨
٧٥ ـ بداية ظهور ونمو « الدولة الوسطى » .	٢٤١
٧٦ ـ مصر القديمة تستعيد وحدتها وقوتها .	٢٤٤

٧٧ ـ البيت الأبيض . . أصله مصرى قديم . ٢٤٧
٧٨ ـ حضارة « الدولة الوسطى » . . وهؤلاء الملوك العظام . ٢٥٠
٧٩ ـ أول إعلان للعدالة الاجتماعية . . وحقوق الانسان . ٢٦٣
٨٠ ـ حين طالب الشعب المصرى القديم بحقه فى المساواة والعدالة الاجتماعية . ٢٦٦
٨١ ـ الحنين إلى الوطن . . فى الأدب المصرى القديم . ٢٦٩
٨٢ ـ قصة « الملاح وجزيرة العجائب » . . وأثرها فى الآداب العالمية . ٢٧٢

أم الحضارات

فى تصريح للعالم المصرى الفذ الأستاذ الدكتور «**أحمد زويل**» بعد حصوله على **جائزة نوبل** ، قال إنه فخور بالانتماء إلى مصر باعتبارها «**أم الحضارات**» .

وما أن نشرت الصحف ووسائل الإعلام الأخرى هذا التصريح حتى عم السرور جميع العاملين بالدار المصرية اللبنانية التى نشرت ذلك الكتاب القيّم الذى يحمل عنوان «أم الحضارات» للكاتب المؤرخ الاستاذ الكبير «**مختار السويفى**» .

و إذا كانت الشواهد التاريخية تدل على أن الشعب المصرى القديم كان أول شعب فى العالم استطاع ـ منذ آلاف السنين ـ أن يقسّم الزمن إلى أعوام وشهور وأيام وساعات . . فها هو أحد أبناء هذا الشعب العريق استطاع أن يكتشف «زمنا» لا يتجاوز واحداً على المليون من بليون جزء من الثانية . . بمعنى أنه استطاع الخروج من إيقاع الزمن الذى تدركه حواس الإنسان ، والتطرق إلى إيقاع زمنى آخر بالغ القصر لم يتطرق إليه بشر من قبل ، وكان هذا الاكتشاف العظيم هو السبب الذى استحق عليه الحصول على جائزة نوبل .

وهكذا أصبح الشعب المصرى فى مجمله هو الشعب الذى أهدى إلى الإنسانية معرفة تقسيم الزمن . . وهذا الإنجاز الحضارى يعتبر جزءاً من الاكتشافات والانجازات التى صنعها شعب مصر القديم على مدى آلاف السنين فى مجالات العلوم والفنون والآداب والحِرَف والصناعات والسلوكيات الاجتماعية والأخلاقية والسياسية التى يعرضها لنا بالتفصيل كتاب «أم الحضارات» بأجزائه المتتابعة .

« **الناشر** »

الدار المصرية اللبنانية ١٦ عبد الخالق ثروت ـ تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥
٣٩٣٦٧٤٣ ـ فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ ص . ب ٢٠٢٢ ـ برقيا دار شادو ـ القاهرة .

١٧٫٥٠ ج
١٧٫٥٠ ج
١٧٫٥٠ ج